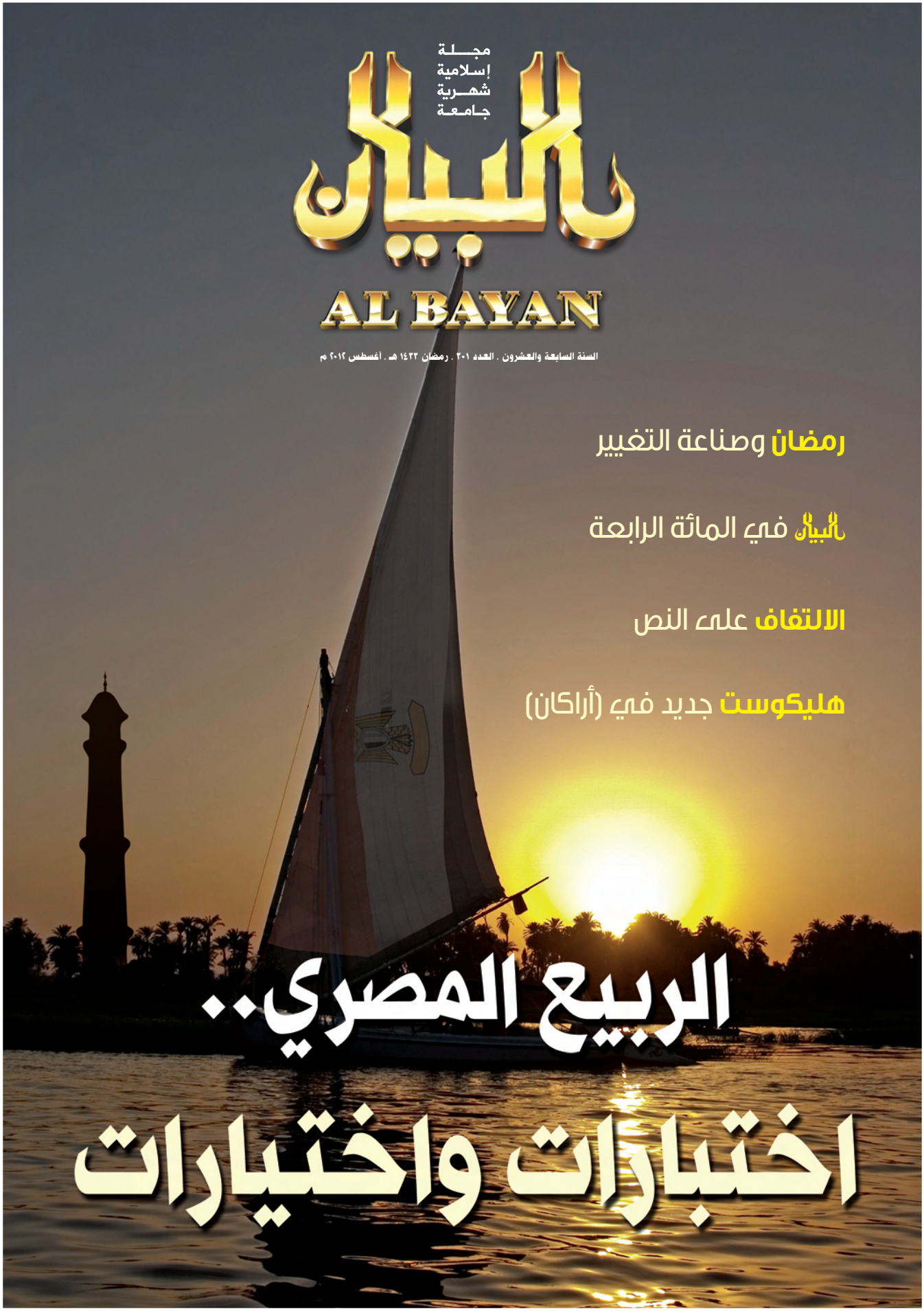
مجلة
إسلامية
شهرية
جامعة
البيان
AL BAYAN
السنة السابعة والعشرون . العدد ٣٠١ . رمضان ١٤٣٣ هـ . أغسطس ٢٠١٢ م
رمضان وصناعة التغيير
البيان في المائة الرابعة
الالتفاف على النص
هليكوست جديد في (أراكان)
الربيع المصري..
اختبارات واختيارات

مجلة البيان

الآن على آبل ستور

Al-Bayan Digital Calendar

Available on the iPhone App Store

www.albayan.co.uk

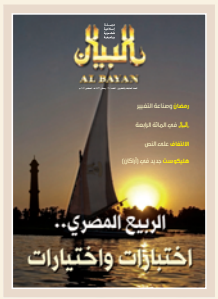

مجلة البيان
إسلامية . شهرية . جامعة

رئيس التحرير
أحمد بن عبد الرحمن الصويان
alsowayan@albayan.co.uk

مدير التحرير
د. عبد الله بن سليمان الفراج

هيئة التحرير
أحمد بن عبد العزيز العامر
د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف
د. يوسف بن صالح الصغير
فهد بن صالح العجلان
د. أحمد بن عبد المحسن العساف
فيصل بن علي أحمد الكاملي

سكرتير التحرير
إسلام السيد علي

الإخراج الفني
محمد سالم لرضي

عنوان المجلة على الشبكة العالمية
www.albayan.co.uk

الحسابات

السعودية: مصرف الراجحي
آي بان: SA1380000296608010021007

الاشتراكات

السعودية ودول الخليج	١٢٠	ريال سعودي
بريطانيا وإيرلندا	٤٧	يورو
أوروبا	٥٥	يورو
البلاد العربية وإفريقيا	٤٥	يورو
أمريكا وبقية دول العالم	٥٥	يورو
المؤسسات الرسمية	٦٠	يورو

خدمة العملاء

السعودية
ص. ب ٢٦٩٧٠ الرياض: ١١٤٩٦.
الهاتف الموحد: ٩٢٠٠٠٤٥٤٨
هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ ـ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

للمراسلات عبر البريد الإلكتروني

التحرير
editors@albayan.co.uk
خدمة العملاء
sub@albayan.co.uk
التسويق
sales@albayan.co.uk
العلاقات العامة
pr@albayan.co.uk

الموزعون

الأردن: الشركة الأردنية للتوزيع، عمان ص. ب ٣٧٥ هاتف: ٥٣٥٨٨٥٥، فاكس: ٥٣٢٧٧٣٣.
الإمارات العربية المتحدة: شركة الإمارات للطباعة والنشر، دبي ص. ب ٦٠٤٩٩ هاتف : ٣٩١٦٥٠١، فاكس ٢٦٦٦١٢٦ .
سلطنة عُمان: مؤسسة العطاء للتوزيع، ص.ب ٤٧٣ ـ العذيبة ١٣٠ ـ هاتف: ٢٤٤٩١٣٩٩ ـ فاكس: ٢٤٤٩٣٢٠٠ .
البحرين: مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ـ **المنامة:** ص.ب ٢٢٤ هاتف ٥٣٤٥٥٩ ـ ٥٣٤٥٦١، فاكس ٥٣١٢٨١.
السعودية : الشركة الوطنية للتوزيع: هاتف: ٤٨٧١٤١٤ ـ فاكس: ٤٨٧١٤٦٠.
السودان: الخرطوم، مكتب المجلة ٨٣٢١٢١٨٣.
قطر: دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع، الدوحة هاتف: ٤٥٥٧٨١٠ – ٤٥٥٧٨١١ – ٤٥٥٧٨١٢ – فاكس: ٤٥٥٧٨١٩.
الكويت: شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع، ص. ب: ٢٩١٢٦ ـ الكويت الرمز البريدي ١٣١٥٠ ـ هاتف: ٢٤٠٥٣٢١ ـ ٢٤١٧٨١٠ ـ فاكس: ٢٤٧٨٠٩.
المغرب: سوشبرس للتوزيع، الدار البيضاء، ش جمال بن أحمد ص. ب ١٣٦٨٣ ـ هاتف: ٢٤٠٠٢٢٣ ـ فاكس: ٢٤٦٢٤٩.
اليمن: دار القدس للنشر والتوزيع، صنعاء : ص. ب ١١٧٧٦ الطريق الدائري الغربي أمام الجامعة القديمة، هاتف: ٢٠٦٤٦٧ ـ فاكس: ٤٠٥١٣٥
تونس: الشركة التونسية للصحافة، ت ٠٠٢١٦٧١٣٢٢٤٩٩ – فاكس: ٠٠٢١٦٧١٣٢٢٠٠٤

الافتتاحية

٦ مصير مصر.. والمهمَّات العشر
التحرير

العقيدة والشريعة

١٠ ظاهرة الالتفاف على النص الشرعي
د. سعد بن بجاد العتيبي
١٥ تأمُّلات شرعية في ظل الربيع العربي
عبد الله الناصر

الغرب: قراءة عقدية

٢٢ الحكمة الخالدة وحقيقة المشترك الإنساني
فيصل بن علي الكاملي

السياسة الشرعية

٢٦ مناقضة الديمقراطية للإسلام
إبراهيم بن محمد الحقيل

عاجل إلى الإسلاميين

٣٢ الربيع المصري.. طاهر أم طهور؟
أحمد فهمي

معركة النص

٣٦ عَلمانيةُ ما قبل الأسلمة!
فهد بن صالح العجلان

ملف العدد

٤٠ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾
د. هشام عقدة
٤٦ مَعالمُ المتدبِّرين
عبد اللطيف بن عبد الله التويجري

٥٠ الصيام غذاء الأرواح وجُنَّة من العذاب
د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف

٥٢ أحكام القنوت في رمضان
د. أحمد محمد ذي النورين

٦٠ عملياً.. كيف نربي أبناءنا في رمضان؟
سحر شعير

٦٣ احتفاء الشعراء بشهر رمضان الكريم
عبدالرزاق دياربكرلي

المسلمون والعالم

٦٧ المشروع السُّنِّي.. أين.. والى أين..؟
د. عبد العزيز كامل

٧٢ خطوات ما بعد نجاح الثورة
محمد بن شاكر الشريف

٧٦ الانتخابات المصرية.. تحوُّل ديمقراطي بأفق إسلامي
طلعت رميح

٨٠ هليكوست جديد في أراكان
مجلة البيان

٨٢ مرصد الأحداث — جلال سعد الشايب

عين على العدو

٨٨ دوافع تنازل الصهاينة عن النظام السوري
د. عدنان أبو عامر

تقرير

٩٠ اللاجئون السوريون.. والفرار من جحيم العنصرية
أحمد أبو دقة

الورقة الأخيرة

٩٤ رمضان.. معيار التوفيق والخذلان
مشاري بن سعد الشثري

[كلمة صغيرة]

المائة الرابعة

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وإمام المرسلين.. وبعد:

فقد صدر العدد الأول من مجلة البيان في شهر ذي الحجة عام ١٤٠٦هـ الموافق لشهر أغسطس عام ١٩٨٦م، وها نحن - ولله الحمد والمنّة - نقدِّم لقرائنا الكرام العدد الأول من المائة الرابعة، ونسأل الله - عزّ وجل - أن ينفع بهذا الجهد، ويصلح النيات، ويعيذنا من مضلات الأهواء والفتن.

وتبدأ انطلاقتنا في المائة الرابعة في مرحلة تاريخية حرجة من ثورات الربيع العربي، التي ما زالت آثارها السياسية والدعوية والاجتماعية تتفاعل بقوة وبشكلٍ متسارع جداً.

ونحسب أنَّ الاضطرابات الفكرية والمنهجية التي تصَّاعد تداعياتها يوماً بعد يوم؛ تؤكد أن الدعوة الإسلامية بأطيافها المختلفة أحوج ما تكون إلى البناء المنهجي المعتصم بالكتاب والسنة، العاضِّ على منهاج الخلفاء الراشدين والصحابة المهديين بالنواجذ، ومراجعة المواقف العملية والرؤى والاجتهادات العلمية بتجرد وموضوعية.

ونرجو أن تكون البيان منبراً علمياً لتحقيق الاعتصام بمنهاج الكتاب والسنة، ومحضناً جامعاً وراشداً لتصحيح المسيرة وتقويم العمل.

ولتأكيد هذا الدور الذي اخترناه لمجلة البيان، نذكّر ببعض ما رسمناه في العدد الأول:

أولاً: البيان منبرٌ من منابر أهل السنة والجماعة؛ تعبِّر عن منهجهم، وتدعو إلى أصولهم، وتذكِّر بطريقتهم الوسطية السليمة من الغلو والانحراف، وهي مع هذا ليست منبراً لحزب، ولا دعوة إلى عصبية أو طائفية، ولا إلى إقليمية.

ثانياً: البيان مجلة كل مسلم مهما كان لونه أو جنسه، وأياً كان موقعه، وهي بهذا لا تدَّعي أنها صوت المسلمين الوحيد، ولا تزدري الأصوات الأخرى التي تقف معها في ساحة العمل الإسلامي، ولا تنظر بمنظار ذي جهتين: يكبر لها نفسها، ويصغر لها الآخرين.. كما أنها لا تدَّعي ولن تدَّعي الوصاية على الدعوة، ولا تحتكر ولن تحتكر معرفة الحق، بل تضم صوتها إلى كل صوت جادّ يدافع عن القضايا الإسلامية بصدق وإخلاص.

ثالثاً: البيان مؤسسة دعوية تسعى للتأليف والاجتماع ورصِّ الصفوف، وتحذر من الفُرقة والتنازع والتدابر، وتتعاون مع الجميع لتعزيز التناصح والتواصي بالحق، ونشر ثقافة التآخي والتعاون على البر والتقوى.

والحمد لله على فضله وعظيم عطائه وإحسانه، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

مصير مصر..
والمهمّات العشر

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه.. وبعد:

فقد اعتاد الإسلاميون الذين تواصلت معهم الابتلاءات، أن يردّدوا بعد كل بلاء القول المشهور: (إنه منحة في طيّ محنة)، فالابتلاء بالضراء مع الصبر لا تكون عاقبته إلا الخير، وذلك على مستوى الأفراد والجماعات، لكن هناك ابتلاء آخر - وهو الابتلاء بالسراء - قد يأتي في صورة فتح أو انتصار، لكن: لا بد بعده من الاختبار، كما قال الله تعالى: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، وهنا يمكن أن يتحول التعبير من (منحة في صورة محنة) إلى (محنة في صورة منحة)، فيكون الانتصار في حقيقته اختباراً.

الفوز الذي حققه الإسلاميون مؤخراً في مصر، وعلى رأسهم (الإخوان المسلمين)، هو نجاح كبير بكل المقاييس، لكن على قدر كبره وعظمته سيكون حجم الاختبار وخطورته، خاصة إذا كان هذا النجاح لجماعة بقدر وانتشار جماعة كالإخوان المسلمين، وفي بلد كمصر في اتساعها وعمقها، وفي منطقة كالشرق الأوسط في حساسية أوضاعها؛ لذلك فإن ذلك الفوز تترتب عليه مهمات ومسؤوليات اللهُ وحده المستعان على القيام بها.

لقد كشفت نتائج الانتخابات الرئاسية المصرية الأخيرة - في جولة الإعادة - عن شيء أكبر وأخطر من النتائج نفسها، وهو أن في مصر إرادتين شعبيَّتين رئيسيَّتين تختلفان إلى حد التناقض، وتتنافسان إلى حد الصراع، وتتقاربان في القوة كفرسَي رهان، حيث إن الفارق الذي فاز به مرشح الإسلاميين - الدكتور محمد مرسي - لم يتجاوز نسبة الواحد في المائة، على مرشح العَلمانيين - الفريق أحمد شفيق - ! علماً أن العنوان الأبرز للاختلاف بين برنامجي المرشَّحَين كان يدور حول موضوع أساسي، وهو (هوية الدولة)، وهل تكون «مدنية» ذات طبيعة عَلمانية، أم إسلامية ذات مرجعية شرعية؟

لقد شـــاء الله أن يفوز المرشح الإســـلامي، وهذا بلا شك يبشّـــر بمستقبل واعد لدعوة الإسلام، لا في مصر وحدها، بل في المنطقة والعالم؛ إذا ســـارت الأمـــور في نصابها الصحيح. ولهذا؛ فإن موضع الفرح والسعادة بالإنجاز هنا هو نفسه موطن الخوف والقلق من ضياع ثمرته أو إخفاق تجربته.

انقسام الإرادات الذي كشفت عنه الانتخابات، له بلا شك تبعاته وتداعياته، لأنّ كان المفاجئ الأكبر فيه أنه ليس انقساماً على مستوى القيادات والنخب فحسب، بل على مستوى الشعب، والإرادتـــان لهما ثقلهمـــا ورموزهمـــا وجمهورهما المصر على تحقيق غايات محددة، ولـــكل منهما وجهتها الفكرية والثقافية التي تريد أن تنصرها وتنشرها.

سيظل الفريقان المختلفان يرقبان ويختبران الأداء الرئاسي في إنجاز مهمات تغييرية ستكون نتائجها مصيرية، لا في مصر وحدهـــا، لكن كذلك في المنطقة حولها، ويمكننا أن نرصد أهم تلك الاختبارات في عشر مهمات كما يلي:

الاختبـار الأول: ويـــدور حول إيجاد مخـــرج لمأزق تعارض الإرادتين الشـــعبيتين المتعاكســـتين فيما يتعلـــق بمَدَنية الدولة أو إسلاميتها، فهناك إرادة الرغبة في الدولة الإسلامية الحاكمة بما أنزل الله، في مقابل إرادة الرغبـــة عنها تأثراً بعوامل التجهيل أو التضليل أو التخويف – طلبـــاً للدولة المدنية «العَلمانية» المتحاكمة إلى غير ما أنزل الله، ولا شك أن تعهد الرئاسة الجديدة بأن تكون دولة مدنية، بمعنى (غير عســـكرية)، لن يقنـــع المعارضين للحكم بالشريعة في الداخل والخارج، وســـيظلون يرقبون الوفاء بالتعهد الرئاسي بالدولة المدنية على مرادهم، لا على مراد الرئيس ومراد الإســـلاميين، بينما سيظل الإســـلاميون وأنصارهم ممَّن ساندوا الرئيس الجديد ينتظرون الخطوات الجادة – ولو كانت مرحلية – نحو مهمة إنجاز الأمل المنشود بتحكيم الشريعة الإسلامية.

الاختبـار الثاني: وهو حول الموقف العملي للرئاســـة من مبدئي: (المشاركة في السلطة)، و(تداول السلطة)، فالعَلمانيون – رغم كونهم في المعارضة – يصرون على المشاركة الكاملة في رسم أسس الدولة لتقوية دعائم العَلمانية من خلال مشاركتهم في الســـلطة رأساً برأس مع الأغلبية، وهم يخططون لأن تكون الفترة الرئاســـية المقبلة كلها لهم، إعمالاً لمبدأ تداول السلطة، ويهددون من الآن بثورة ثانية إذا غيَّر الإسلاميون معالم الدولة لتكون إســـلاميةً، ولذلك يراهنون على إعمال مبدأ (المشـــاركة في السلطة) بصورة جزئية اليوم للإخلال بالمشروع الإسلامي، ويعملون لإعمال مبدأ (تداول الســـلطة) غداً لإحلال المشـــروع العَلماني مـــرة أخرى، وهنا تبدو المهمة الصعبة للرئاســـة في وضع أسس الدولة على أســـس صحيحة وسط هذا الضجيج الديمقراطي المعاند من النذ المعارض.

الاختبـار الثالـث: وهو بخصوص المعركة حـــول هوية الدولة، والشـــرعية التي تقوم عليها، وهذه هي معركة الدســـتور التي بدأت منذ بواكير الثورة من خلال اســـتفتاء ١٩ مارس ٢٠١١، الذي اشتهر بـ (غزوة الصناديق)، حيث أخذ الاســـتفتاء منحى الخيار بين الإبقاء أو الإلغاء للمادة الثانية من الدســـتور الحالـــي، والتي تنص على أن «الشـــريعة الإســـلامية هي المصدر الرئيسي للتشـــريع»، وقد واصل العَلمانيون المعركة بشكل أشد في سعيهم إلى حل البرلمان ذي الأغلبية الإســـلامية، ثم تحركهم لرفض تشـــكيل (الهيئة التأسيســـية لوضع الدســـتور) التي كانت غالبيتها من البرلمانيين الإسلاميين، ثم رفضهم التشكيل الثاني للهيئة، حيث مثل الإسلاميون من خارج البرلمان ٥٠ ٪ منها، وهم يراهنون على هيئة ذات أغلبية عَلمانية لا تسمح إلا بوضع دستور يرسّخ العَلمانية ولا يجعل الإسلام أساساً للشرعية.

الاختبار الرابع: وموضوعه هو مآل مبدأ (سيادة القانون)، و(احترام القضاء)، رغم اتفاق الجميع حوله، لكن التساؤل سيظل حول: سيادة أيّ قانون واحترام أيّ قضاء؟.. هل القانون المستمد من أحكام الشـــريعة الثابتة بعد تقنينها والقضاء بمقتضاها؟ أم الأحكام الوضعية والمغيرة التي تقف عقول البشر وراء تشريعها واختراعها؟ وهل سيكون الدســـتور المسمى (أبو القوانين) فوق الشريعة وحاكماً عليها؟ أم ستكون الشريعة فوق الدستور وفوق القانون؟ ويتعلق بهذا ما شاب سمعة القضاء في مصر من لغط بســـبب ما قيل عن خضوعه في بعض تداعيات الثورة لضغوط تشكِّك في استقلاله.

الاختبار الخامس: وأسئلته تدور حول العلاقات الخارجية والمعاهدات الدولية، وموقف النظام الجديد من بقاء بعض تلك العلاقات، و«احترام» بعض تلك المعاهدات، خاصة معاهدة (كامب ديفيد) التي وقعها النظام المصري في عهد السادات مع الكيان الصهيوني عام ١٩٧٨م برعاية أمريكية، والتي تلتزم مصر بموجبها بإقامة سلام دائم وشامل مع دولة الطغيان والعدوان، وأيضاً ما انبنى على تلك المعاهدة من علاقات التطبيع التي لم تكسب منها مصر إلا الخسارة، والتي ستظل موضع اختبار للرئاسة الجديدة، داخلياً وخارجياً، من الإسلاميين وغير الإسلاميين.

الاختبار السادس: وهو بشأن الحريات والأقليات، فأما الحريات، فهناك من يريدها مطلقة بلا قيود، سلوكياً واعتقادياً، حتى لو فُتحت بواسطتها كل أبواب الفساد.. وهناك من يطالب بتقييدها بمحاكمات الدين الذي تعتنقه الغالبية العظمى من شعب مصر. والأقباط يمثلون رأس حربة في المطالبة بحرية المعتقد - على طريقتهم -، بمعنى أن يسمح للمسلم بالردة عن الإسلام قانونياً، ويسمح للنصراني الداخل في الإسلام بالعودة عن النصرانية رسمياً، هذا إلى جانب مطالب كثيرة بعضها للابتزاز، والآخر لمجرد الاستفزاز، مثل: إطلاق حرية «التبشير» بين المسلمين، وإلغاء القيود على إنشاء كنائس النصارى في كل مكان أسوة بالمساجد، هذا كله رغم أنه لا تزيد نسبتهم العددية في شعب مصر على ٤ - ٥٪. وباسم حرية الاعتقاد واحترام الأقليات ستنشط كثير من الكيانات المنحرفة للمطالبة بما تراه حقها في ممارسة طقوسها ومزاولة أنشطتها، بل وتكوين أحزاب خاصة بها، كما فعلت نابتة الشيعة المصريين التي بدأت أيضاً تطالب بإنشاء حوزات ومساجد خاصة بالشيعة في مصر.

الاختبار السابع: وقضيته الإعلام والتعليم، حيث ستظل سياسة الدولة الجديدة تجاههما مرصودة ومراقبة، لأن التعليم يشكل العقول، والإعلام يصوغ القلوب، ومن غير المنتظر أن تتوحد الرؤى بين الإسلاميين وغيرهم حول محتوى الإعلام، ولا وجهة التعليم، لأن كلا الفريقين يريان أن الشخصية والهوية لدى جموع الشعب ستتحدَّد ملامحها وَفق ما ينشره التعليم ويبثه الإعلام، لذلك ستظل قضية مناهج التعليم وسياسة الإعلام محل اختبار وامتحان للأداء الرئاسي، بل ستظل مضمار سباق وربما عراك حزبي وسياسي بين العَلمانيين المراهنين على تنشئة أجيال (ليبرالية) والإسلاميين الساعين إلى بناء أجيال ربانية.

الاختبار الثامن: ومفرداته هي: الضروريات المعيشية، فهي محل اختبار كبير، للموسر والفقير، لتعلقها بالحياة اليومية، وهو ما استدعى أن تجعلها الرئاسة الجديدة على رأس اهتماماتها في المائة يوم الأولى من استلام السلطة، حيث سيظل علاج المشكلات المعيشية لعموم الشعب المعيارَ الأكثر دقة وحساسية عند عموم الناس للنجاح أو الإخفاق في غيره، وذلك في مجالات أسعار السلع، وتأمين الإسكان، وإصلاح المواصلات والخدمات، وتوفير فرص التوظيف.

الاختبار التاسع: هو في مراقبة الإصلاح الاقتصادي، وهو في نظر الأكثرين العامل الضامن لحل أكثر الأزمات التي يتوجب على نظام مصر الجديد علاجها، فقد أبانت تداعيات الثورة المصرية أن مصر ليست بلاد فقر، لكنها بلد تعرَّض للإفقار المتعمد مع سبق الإصرار والترصد على أيدي عصابة حاكمة لم تكتفِ بفتح أبواب السلب والنهب للتجريف من الداخل، حتى نقلت ثمرات الثروات كلها إلى الخارج، وقد جاءت للدلالة على ذلك شهادة مفوضة الاتحاد الأوروبي (كاثرين آشتون) وقت زيارتها لمصر، (في منتصف فبراير ٢٠١٢)، حيث قالت: إن ثروات مصر تكفي لأن تجعلها في مصاف الدول الغنية، والأموال التي أُهدرت وهُرِّبت خارج مصر تبلغ نحو خمسة تريليونات (٥٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) دولار!!

لهذا؛ فإن الشعب المصري «المسروق» سيظل يراقب وينتظر ويختبر أداء أصحاب (مشروع النهضة) من بوابة الاقتصاد قبل غيرها، ليعرف حاضره ومصيره.

الاختبار العاشر: وسؤالاته العاجلة تدور حول الاستقرار والأمن، بمعناه الداخلي والخارجي، فالرئاسة الجديدة استلمت بلداً خلخلت تداعيات الثورة الأمن في داخله، وتهدد أحقاد المعادين أمنه القومي من خارجه، وكلا جهازي الأمن: (الشرطة) و(الجيش)، يعيشان حالة عدم انتظام أو انسجام مع عموم الشعب بسبب تداعيات أحداث الثورة، ويفتقران إلى سياسة ترميم وتوافق مع الأوضاع الجديدة، والكل يرقب ما ستنتهي إليه العلاقة القلقة مع رموز الجيش وهياكل الداخلية، لأنه دون أمن داخلي وخارجي لن يكون هناك استقرار، ومن ثم لن تكون هناك نهضة، وهذا رهان المتربصين بمصير مصر.. نسأل الله أن يخسر الكارهون الرهان، ويتجاوز الإسلاميون في أرض الكنانة مرحلة الاختبار والامتحان.. (آمين).

ظاهرة الالتفاف على النص الشرعي

د. سعد بن بجاد العتيبي

لقد أقام الله – سبحانه – الحجة على خلقه بكتابه ورسوله، قال – تعالى –: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقال: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال: ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

ومقتضى ذلك أن ما جاء في الوحيين إنما يفيد العلم واليقين، ويشهد لذلك ما وصف الله به نفسه من أنه بيَّن لعباده غاية البيان، وما وصف به كتابه من أنه حق ونور وفرقان وبيِّنات من الهدى، إلى غير ذلك من الأوصاف التي جاءت في آيات كثيرة.

قال الله – تعالى –: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ٥٨]، قال الإمام الطبري – رحمه الله: «يقول جلّ ثناؤه: كما بيَّنت لكم أيها الناس أحكام الاستئذان في هذه الآية، كذلك يبيِّن الله لكم جميع أعلامه وأدلته وشرائع دينه»[1].

وقال – تعالى –: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ﴾ [الحج: ١٦].

وقال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ [الطارق: ١٣ – ١ ، إلى غير ذلك من الآيات.

وممَّا يشهد لذلك أيضاً أن الله أرسل رسوله ﷺ ليعلم الناس الكتاب والحكمة، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]، وقال: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

(١) جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري، ١٠/ ٢١٤.

«ومحمد ﷺ أعلم الخلق بالحق، وهو أفصح الخلق لساناً، وأصحُّهم بياناً، وهو أحرص الخلق على هدي العباد، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [النحل: ٣٧]، وقد أوجب الله عليه البلاغ المبين، وأنزل عليه الكتاب ليبيِّن للناس ما نزل إليهم؛ فلا بد أن يكون بيانه وخطابه وكلامه أكمل وأتم من بيان غيره»[١].

ثم هذا البيان الذي تكفل به الله سبحانه وأمر به رسوله ﷺ، إما أن يكون المرادُ به بيان اللفظ وحده أو المعنى وحده أو اللفظ والمعنى جميعاً، ولا يجوز أن يكون المراد به بيان اللفظ دون المعنى؛ فإن هذا لا فائدة فيه ولا يحصل به مقصود الرسالة، وبيان المعنى وحده دون دليله، وهو اللفظ الدال عليه، ممتنع، فعُلم قطعاً أن المراد بيان اللفظ والمعنى؛ وعليه فكما أنَّا نقطع ونتيقن أنه ﷺ بيَّن اللفظ، فكذلك نقطع ونتيقن أنه بيَّن المعنى؛ بل كانت عنايته ببيان المعنى أشد من عنايته ببيان اللفظ، وهذا هو الذي ينبغي، فإن المعنى هو المقصود، وأما اللفظ فوسيلة إليه ودليل عليه، فكيف تكون عنايته بالوسيلة أهم من عنايته بالمقصود؟ وكيف نتيقن بيانه للوسيلة ولا نتيقن بيانه للمقصود؟ وهل هذا إلا من أبين المحال؟[٢].

وبناءً على ما تقدم، فإن عامة دلالة نصوص الشريعة - كتاباً وسنة - تفيد العلم أو القطع، والمراد من ذلك ما يلي[٣]:

١ أن نصوص الشريعة في نفسها تفيد العلم بصرف النظر عن إدراك المجتهد لذلك أو تردده فيه، كما نقول عنها: إنها ثابتة ومعصومة من أن يضيع من أحكامها شيء أو يفوت، ولا يلزم من ذلك أن يعلم المجتهد جميع نصوصها.

٢ أن حصول العلم والقطع بها ممكن.

٣ أن القطع بها حاصل لمن اجتهد واستدل بالأدلة الشرعية عليها، ولا يلزم أن يكون حاصلاً لكل أحد، بل ولا حتى لغالب المتفقهة المقلدين لأئمتهم؛ فإن الحاصل عندهم ليس علماً بذلك عن دليل يفيدهم القطع، وإن كان العالم عنده دليل يفيد القطع.

٤ أن العلم بها يحصل للمجتهد في غالب الأحكام، وأن الظن فيها إنما هو قليل، وذلك غالباً ما يكون في مسائل الاجتهاد والنزاع، أما مسائل الإجماع والاعتقاد فالعلم فيها أكثر قطعاً.

والقول إن دلالة النصوص الشرعية في غالبها تفيد القطع، لا يتوافق مع طريقة ومسلك أولئك الذين أعيتهم النصوص الشرعية أن يحفظوها ويعملوا بها، فبحثوا عن مخارج يلتفّون بها على دلالة النصوص الشرعية، فدلتهم عقولهم إلى ترويج مقولة إن أكثر نصوص القرآن والسُّنَّة ظنية الدلالة، وإنه قلما تتحقق القطعية إلا في نطاق محدود، واستشهد بعضهم بكثرة المخصصات لعموم النصوص، والمقيدات لإطلاقها[٤].

وممَّا يفسر مقصدهم تبريرهم لزعمهم هذا بأن ذلك دليل الإذن بالاجتهاد فيها، وإلا لجعل الله فيها من قواطع الأدلة ومحكمات النصوص ما يرفع التشابه، ويغني عن النظر، ويمنع الاختلاف؛ ولهذا أنزل الله كتابه على رسوله ﷺ: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧][٥].

ومن العجائب تقرير بعضهم بأنه يجب أن تظل مراتب الأحكام كما جاءتنا؛ القطعي يجب أن يظل قطعياً، والظني يجب أن يستمر ظنياً، هكذا.. مع العلم أن مسألة القطع واليقين - كما هو معلوم - مسألة نسبية ترجع للمجتهد والناظر في الأدلة[٦].

ومن ثم بنَوا على ذلك أن منطقة الأحكام المأخوذة من النصوص القطعية منطقة مغلقة لا يدخلها التغيُّر أو التطور، وهي محدودة جداً، حتى إن بعضهم زعم أنها قد لا تتعدى ٧ في المائة من النصوص[٧]، بينما منطقة الأحكام الظنية منطقة مفتوحة، وهي مجال الاجتهاد ومعترك الأفهام، ومنها ينطلق الفقه إلى الحركة والتطور والتجديد.

ومكمن الخطورة في مثل هذا الطرح هو التلبيس ودعوى العلمية فيما يقرِّرونه وخلط الحق بالباطل.

إنه لا خلاف مع أصحاب هذا الاتجاه في مبدأ تفاوت وضوح دلالة النصوص الشرعية على مراد الشارع، لكن الخلاف معهم في هذه المسألة في جانبين:

---

(١) درء التعارض: ١/ ٢٣.

(٢) انظر: مختصر الصواعق، ٣/ ٧٣٧-٧٣٨.

(٣) انظر: الاستقامة، ابن تيمية، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، ١/ ٥٥ - ٥٦، نشر: جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ؛ والصواعق المرسلة: ٢/ ٧٤٦؛ والثبات والشمول: ١٧٦؛ ومعالم أصول الفقه عند أهل السُّنَّة والجماعة: ٨٧.

(٤) انظر: الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد، القرضاوي: ٤٢؛ وشريعة الإسلام صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان، القرضاوي: ١١٣؛ وانظر كذلك: الإسلام وفلسفة الحكم، محمد عمارة: ٣٥، ١١٨؛ والحريات العامة في الإسلام، راشد الغنوشي: ٢٥؛ وحوار لا مواجهة، أحمد كمال أبو المجد: ٣٠.

(٥) انظر: الاجتهاد في الشريعة، القرضاوي: ٦٥.

(٦) انظر: الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد، القرضاوي: ٤٥.

(٧) انظر: تمرد على الممنوع، الغنوشي: ٤٦.

الأول: دعــوى أن أكثر النصوص الشــرعية ظنية الدلالة، سواء أوردت هذه الدعوة صراحة أو جاءت في سياق يُفهم منه الإشارة إلى ذلك.

الثـاني: اعتبــار الظنية أو القطعية فــي النصوص معياراً وضابطاً للثبات والتغيُّر في تطبيق الأحكام الشرعية.

وهذان الجانبان لا يُســلَّم لهم فيهمــا. أما الجانب الأول فالجواب عنه بما يلي:

أولاً

توســيع دائرة ظنية دلالة النصوص الشرعية مقابل التقليل الشديد من دائرة النصوص القطعية، مخالفٌ لما وصف الله تعالى به نفســه من أنه بــيَّن لعباده غاية البيان، وأن رسوله ﷺ بلَّغ البلاغ المبين، كما أنه مخالفٌ لنهج الصحابة – رضــوان الله عليهم – ومَن بعدهم مِن التابعين، فهم يتعاملون مع النصوص الشــرعية عند ثبوتها، حيث يتَّبعون ما جاء فيها بإطــلاق دون تفريق بين قطعــي وظني، وهم أولــى من يتبع سبيلهم[1].

ثانياً

إنما وضع الكلام للدلالة على مراد المتكلم، وألفاظ القرآن والسُّنَّة بحسب ذلك ثلاثة أقسام[2]:

أ – نصوص لا تحتمل إلا معنىً واحداً.

ب – ظواهر تحتمل غير معناها احتمالاً بعيداً مرجوحاً.

ج – ألفــاظ مجملة تحتاج إلى بيــان، فهي من دون البيان عرضة للاحتمال.

فأما **القســم الأول** فهو يفيد اليقين بمدلوله قطعاً، كقــوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُــمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤]، وقوله: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَــبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَــرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقــرة: ١٩٦]، وهذا شــأن عامة نصوص القرآن الصريحة في معناها؛ كنصوص آيات الصفات، إلى أمثال ذلك من النصوص التي هي في الدلالة على مرادها كدلالة لفظ العشــرة والثلاثة على مدلوله، وكدلالة لفظ الشــمس والقمــر والليل والنهار.. هذا شــأن مفرداته، أما تركيبه فجاء على أصح وجوه التركيب وأبعدها عن اللبس وأشدها مطابقة للمعنى، فمفرداته نصوص أو كالنصوص في مســماها، وتراكيبه صريحة في المعنى الذي قصد بها، والمخاطبون به أهل تلك اللغة سجيتهم وطبيعتهم غير متكلفة لهم، فهم يعلمون بالاضطرار مراده منها.

والقســم الثاني: ظواهر قد تحتمــل غير معانيها الظاهرة منهــا، لكن قد اطردت في موارد اســتعمالها على معنى واحد فجرت مجرى النصوص التي لا تحتمل غير مسماها، والقسمان يفيدان اليقين والقطع بمراد المتكلم.

وأمــا القســم الثالث: فهذا قد يكــون بيانه معه، وقد يكون منفصــلاً عنه، أما أن يكون له عدة معــانٍ وليس معه ما يبيِّن المراد؛ فهذا ليس في كلام الله ورســوله، وإذا أُحســن رد هذا القسم إلى القسمين قبله عُرف مراد المتكلم منه.

فالقســم الأول يفيد اليقين بنفسه، والثاني يفيده باطراده في موارد اســتعماله، والثالث يفيده إحسان رده إلى القسمين قبله.

وهذا ظاهر جــداً لمن له عناية بنصوص القرآن والسُّــنَّة وألفاظها ومعانيها واقتباس المعارف واليقين منها، فاســتفادته اليقــين من أدلتها أعظم من اســتفادة كل طالــب علم اليقينَ من مــواد علمه وبراهينه، بل إذا تأمل مــن بصره الله طريقة القرآن والسُّنَّة وجدها متضمنة رفع ما يوهمه الكلام من خلاف ظاهره.

ثالثاً

الاحتمــالات الموجبة للظنية فــي دلالة النصوص الشــرعية مدارها على أن الدليل اللفظي يحتمل أزيد من معنى، فلا يقطع بإرادة المعنى الواحد.

ويجاب عن ذلك: بأن أهل اللغة لم يسوغوا للمتكلم أن يتكلم بما يريــد به خلاف ظاهره إلا مع قرينة تبــيِّن المراد، والمجاز إنما يدل مع القرينة، بخلاف الحقيقة؛ فإنها تدل على التجرد، وكذلك الحذف والإضمار لا يجوز إلا إذا كان في الكلام ما يدل عليــه، وكذلك التخصيص ليس لأحــد أن يدَّعيه إلا مع قرينة تدل عليه.

قــال الإمام الشــافعي – رحمه الله: «القــرآن عربي كما وصفــت، والأحكام فيه على ظاهرهــا وعمومها ليس لأحد أن يحيل منها ظاهراً إلى باطن، ولا عاماً إلى خاص؛ إلا بدلالة من كتاب الله، فإن لم تكن فسنَّة رسول الله تدل على أنه خاص دون عام أو باطن دون ظاهــر، أو إجماع من عامة العلماء الذين لا يجهلون كلهم كتاباً ولا سنَّة، وهكذا السُّنَّة، ولو جاز في الحديث أن يحال الشــيء منه عن ظاهره إلــى معنى باطن يحتمله كان أكثر الحديث يحتمل عدداً من المعاني ولا يكون لأحد ذهب إلى معنــى منها حجة على أحد ذهب إلــى معنى غيره، لكن الحق فيها واحد؛ لأنها على ظاهرها وعمومها إلا بدلالة عن رســول

(١) انظر: المستصفى: ٢/ ١٧١؛ والحكم الشرعي: ٢٨٥.

(٢) انظر: مختصر الصواعق: ١/ ٣٨٢ – ٣٩٧، ٦٧٠ – ٦٧٢.

اللـــه أو قول عامة أهل العلم إنهـــا على خاص دون عام وباطن دون ظاهر»[1].

وإذا كانت هذه الأنواع لا تجوز مع تجرد الكلام عن القرائن المبيِّنـــة للمراد، فحيث تجردت علمنا قطعاً أنه لم يُرد بها ذلك، وليـــس لقائل أن يقول قد تكـــون القرائن موجودة ولا نعلم بها؛ لأن من القرائن ما يجب أن يكون لفظياً، كمخصصات الأعداد وغيرها، ومنهـــا ما يكون معنوياً، كالقرائـــن الحالية والمقالية، والنوعـــان لا بـــدَّ أن يكونا ظاهرين للمخاطَـــب ليفهم من تلك القرائـــن مراد المتكلم، فإذا تجرد الكلام عن القرائن فُهم معناه المراد عند التجرد، وإذا اقترن بتلـــك القرائن فُهم معناه المراد عند الاقتران، فلم يقع لبس فـــي الكلام المجرد ولا في الكلام المقيد، إذ كلٌّ من النوعين مفهم لمعناه المختص به.

وقد اتفقت اللغة والشرع على أن اللفظ المجرد إنما يراد به ما ظهر منه، وما يقدر من احتمال مجاز أو اشتراك أو حذف أو إضمار أو تخصيص ونحوه؛ إنما يقع مع القرينة، أما مع عدمها فلا، والمراد معلوم على التقديرين[2].

والشـــارع قد خاطب العرب على المعهود من كلامهم ومن ثم: «فإنه لا بدَّ في فهم الشـــريعة من اتبـــاع معهود الأميين - وهم العرب الذين نزل القرآن بلســـانهم، فإن كان للعرب في لسانهم عُرف مســـتمر فلا يصح العدول عنه في فهم الشـــريعة، وإن لم يكن ثم عُرف فلا يصح أن يجري في فهمها على ما لا تعرفه»[3].

وعليه؛ فالمتكلم بالعربية «لا يُكلف استشـــعار الموانع مطلقاً في الأنواع والأشخاص لكثرتها، ولو استشعر بعضها لم يحسن التعـــرض لنفي كل مانع منهـــا؛ فإن الكلام فيـــه هَجْنة ولَكْنَة وطول وعي، فقد يتعســـر أو يتعذر علم الموانع أو بيانها أو هما جميعاً»[4]؛ ولذا كانوا يعيبون على الشـــاعر ظهور قصد شـــدة التنقيح للعبارات في شعره[5].

وفي المقابل، فإن العاقل لا يســـتعمل الكلام فيما هو على خلاف الأصل بغير قرينة مبيِّنة لمراده، وإلا كان تلبيســـاً ولكنة يُبرأ عنها الرسول ﷺ الذي بعثه الله بأفصح الألسنة وأجمعها معنى[6].

(١) اختلاف الحديث بهامش الأم: ٧/٢٧.

(٢) انظر: مختصر الصواعق: ٧٥١ - ٧٥٣؛ وانظر في تفصيل الرد على إيراد احتمال التخصيص والإضمار: ٦٨١ - ٧١٤، وقد بين القول في هذه المسألة بياناً شافياً.

(٣) الموافقات: ٢/٨٢.

(٤) مجموع الفتاوى: ٢٠/١٩١.

(٥) انظر: الموافقات، ٢/٨٤.

(٦) انظر: مختصر الصواعق، ١/٢٠١.

رابعاً لم يقـــل أحد من العقـــلاء: إن كل لفظ فهو مفيد لليقين بالمراد منه بمجرده من غير احتياج إلى لفظ آخر متصل به أو منفصل عنه.

وإنما الذي يُقال هنا: إن مراد المتكلم يعلم من لفظه المجرد تـــارة، والمقرون تارة، ومنه ومن لفظ آخر يفيدان اليقين بمراده تـــارة، ومنه ومن بيان آخر بالفعـــل أو القول يحيل المتكلم عليه تـــارة، وليس في القرآن خطاب أريد منه العلم بمدلوله إلا وهو داخل في هذه الأقسام.

فالبيان المقترن كقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْـــرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

والبيان المنفصل كقوله تعالـــى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾ [النساء: ١٢]، مع قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَـــاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَـــيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٧٦]، فقد أفاد مجموع النصين العلـــم بالمراد من لفظ الكلالة، وأنه من لا ولد له وإن سفل ولا والد له وإن علا.

وأما البيان الذي يحيل المتكلـــم عليه فكـــما أحـــال الله - ســـبحانه وتعالى - على رسوله ﷺ في بيان ما أمر به عباده من الصلاة، والزكاة، والحج، وفرائض الإســـلام، التي إنما علم مقاديرها، وصفاتها، وهيئاتها من بيان الرسول ﷺ.

فلا يخـــرج خطاب القرآن عن هذه الوجـــوه، ولم يخاطب اللـــه عباده بلفظ إلا وقد بيَّن لهم مـــراده به بأحد هذه الوجوه الأربعـــة، فصار الخطاب مع بيانه مفيداً لليقين بالمراد منه وإن لـــم يكن بيانه متصلاً به، وذلك لا يعزل كلام الله ورســـوله عن إفادة العلم واليقين[7].

خامساً ما يحصل عند المجتهد مـــن تردد في معرفة دلالة النص إمـــا لكون اللفظ مشـــتركاً وإما لأسباب أخرى، يجاب عنه بما يلي:

١ - أن الشـــريعة في نفسها تفيد العلم بصرف النظر عن إدراك المجتهـــد لذلك أو تردده فيه، كمـــا نقول عنها إنها ثابتة ومعصومة من أن يضيع من أحكامها شـــيء أو يفوت، ولا يلزم من ذلك أن يعلم المجتهد جميع نصوصها[8].

(٧) انظر: مختصر الصواعق: ٧٥٤ - ٧٥٧.

(٨) انظر: مختصر الصواعق: ٢/٦٥٧؛ والثبات والشمول، عابد السفياني: ١٧٦.

٢ – أن ما كان ظني الدلالة مستند ولا بدَّ إلى قطعي، فمآله إلى القطعية[١].

٣ – أن ما يتردد المجتهد في تعيين المقصود منه هو من لوازم الطبيعة الإنسانية، كما أنه قليل جداً بالنسبة إلى ما يتيقنه، وهذا لا ينافي القول إن الشريعة تفيد العلم، كما نقول إن الشريعة محكمة مع أن المتشابه موجود فيها[٢]، وفي ذلك قال ابن حزم – رحمه الله: «إننا قاطعون باتون على أن علم الحقيقة فيما أشكل علينا موجود عند غيرنا ولا بدَّ؛ لقول الله تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ولقول رسول الله ﷺ: (اللهم هل بلغت)، قالوا: اللهم نعم. قال: (اللهم اشهد)[٣]»[٤].

٤ – أن كثرة المعاني تصير بعد الاجتهاد في الغالب إلى معنى واحد يقطع به المجتهد[٥].

سادساً

لا يخفى ما في مسلك توهين دلالة معظم النصوص الشرعية من الخطورة؛ فأهل الباطل بشتى أصنافهم كانوا وما زالوا يتعلقون به؛ إذ لو ساغ ذلك لانفتح باب إيراد التجويزات والاحتمالات الذي لا آخر له ولا ثقة معه ألبتة، ما يفتح الباب لتجاوز الأحكام الشرعية بدعوى قلة الأدلة القطعية الدالة عليها[٦].

وها هي دعاوى العَلمانيين – الذين لا يقيمون للنصوص الشرعية وزناً – تتكرر بأن الشريعة أكثرها نصوص ظنية، وعليه لا يصح الالتزام فيها بفهم واحد، والقطعي فيها قليل، وهذا القليل يسقطونه كذلك بدعاوى المصلحة والضرورة ومراعاة الواقع، فما الذي بقي بعد ذلك من الشريعة؟ إنه لم يبقَ إلا معاني عامة يسميها بعضهم المبادئ الكلية للتشريع الإسلامي، وهي في حقيقتها تفريغ للدين من مقصده الأول؛ عبودية الله وتوحيده وتحكيم شريعته.

فانظر إلى الجناية العظمى التي تلحق نصوص الشريعة؛ «فيالله ما لقيت النصوص من هذه الفرق، وأرباب التأويلات، والمتعصبين لمذاهبهم، وإلى مُنزلها الشكاية، وبه المستعان، وعليه التكلان»[٧].

وأما الجانب الثاني في هذه المسألة، وهو اعتبار الظنية أو القطعية في النصوص معياراً وضابطاً للثبات والتغيُّر في تطبيق الأحكام الشرعية؛ فيجاب عنه بما يلي:

أولاً: إن وصف القطعية والظنية في الدليل وصفٌ إضافيٌّ نسبيٌّ يتفاوت من شخص إلى آخر حسب حاله مع الدليل، وكون فلان يقول بظنية دليل ما فهذا بالنسبة له وليس حكماً على غيره[٨].

وإذا كان الأمر كذلك فاعتبار الظنية أو القطعية في النصوص معياراً وضابطاً للثبات والتغيُّر في تطبيق الأحكام الشرعية؛ يزيد الأمر إشكالاً، فمَن الذي سيكون حكمه بالظنية هو المعتبر؟

والقول بثبات القطعي قطعياً والظني ظنياً يستدعي التساؤل بماذا توصف دلالة النص إذا ظهر للمجتهد أو الناظر في النصوص قرائن تزيل أي احتمال لفهم آخر؟ هل سيبقى هذا الظني ظنياً؟ وبعبارة أخرى: هل ستظل الأمة غير متيقنة من مراد الله ورسوله من هذا النص إلى يوم القيامة؟!

ثانياً: يلزم على هذا المعيار أحد لازمين:

أ – اجتماع الثبات والتغير على الحكم الشرعي الواحد، وهذا باطل.

ب – تغيير حقيقة حكم الشرع وطبيعته لتغير الزمان؛ ففي زمان الصحابة يوصف بالثبات، وفي زمان من بعدهم يوصف بالتغير، وهذا باطل[٩].

وبعد هذا العرض تبيَّن خطأ وخطورة مسلك توهين دلالة معظم نصوص الشريعة، والذي يفتح الباب أمام أهل الأهواء لتحكيم أهوائهم في الأحكام الشرعية بدعوى ظنية أكثر أدلتها.

وإنه لا يَسدُّ الباب أمام تلك الانحرافات الخطيرة إلا التأكيد على قوة أدلة الشريعة، وإفادتها في ذاتها للعلم، وأن الحجة قائمة بها على الخلق لا فرق في ذلك بين مسائل الاعتقاد وسائر الأحكام، ما يبرز خصائص هذه الشريعة من العموم والاطراد، والإحكام والثبات، وحاكميتها على غيرها، «فلا تجد في العمل أبداً ما هو حاكم على الشريعة، وإلا انقلب كونها حاكمة إلى كونها محكوماً عليها»[١٠].

(١) انظر: الموافقات: ٤/٨٦.
(٢) انظر: مختصر الصواعق: ٢/٦٥٧؛ والثبات والشمول: ١٧٦.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى، ح (١٦٥٢).
(٤) الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم: ١/٧١.
(٥) انظر: الثبات والشمول: ١٧٦.
(٦) انظر: مختصر الصواعق: ٢/٦٨٢.
(٧) المصدر السابق: ٦٨٣.
(٨) انظر: مجموع الفتاوى: ٣٢/٢٤٧؛ والحكم الشرعي بين أصالة الثبات والصلاحية، عبد الجليل ضمرة: ٢٨٨.
(٩) الحكم الشرعي: ٢٨٦.
(١٠) الموافقات: ١/٧٩.

تأمُّلات شرعية في ظل الربيع العربي

عبد الله الناصر

ما زالت تداعيات الربيع العربي تتوالى، وما زالت الحاجة ماسَّةً إلى النظر إليها في ضوء الأحكام الكونية القدرية، والأحكام الدينية الشرعية؛ للاعتبار، وضبط المسار.. وإن من أهم الأمور التي ينبغي الوقوف عندها في خضم تلك الأحداث ما يلي:

الأمر الأول:

اليقين الجازم والاعتقاد الراسخ بأن ما يجري اليوم من أحداث ونوازل في الأمة، إنما هو بعلم الله عز وجل، وكتابته لها، وإرادته سبحانه لها، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وإرادته ومشيئته سبحانه ليست مجردة عن حكمته، بل له سبحانه الحكمة البالغة في خلقه وأمره. والعارفون لربهم عز وجل يعلمون ذلك ويوقنون به، لذا فهم يحسنون الظن بربهم ويحمدونه سبحانه على خلقه وأمره، ويوقنون أن عاقبة هذه الأحداث التي يقدرها الله عز وجل خيرٌ ومصلحة ولطف بالموحدين - إن شاء الله تعالى. ومع أنها موجعة وكريهة، إلا أننا نلمس لطف الله عز وجل وحكمته ورحمته في أعطافها، يقول الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى: (وأسماء الله الحسنى تقتضي آثارها وتستلزمها استلزام المقتضي الموجب لموجبه ومقتضاه، فلا بد من ظهور آثارها في الوجود، فإن من أسمائه: الخلاق المقتضي لوجود الخلق، ومن أسمائه: الرزاق المقتضي

لوجود الرزق والمرزوق، وكذلك الغفار والتواب والحكيم والعفو، وكذلك الرحمن الرحيم، وكذلك الحكم العدل... إلى سائر الأسماء، ومنها الحكيم المستلزم لظهور حكمته في الوجود، والوجود متضمن لخلقه وأمره ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فخلقه وأمره صدرا عن حكمته وعلمه، وحكمته وعلمه اقتضيا ظهور خلقه وأمره، ولهذا يقرن سبحانه بينهما عند ذكر إنزال كتابه وعند ذكر مُلكه وربوبيَّته، إذ هما مصدر الخلق والأمر)[1].

الأمر الثاني:

إن من حكمة الله البالغة في هذه الأحداث أن يعرفنا على سننه سبحانه التي لا تتبدل ولا تتحول، ومن معرفة هذه السنن الإلهية يتضح الطريق المستقيم، ويهتدي المسلم إليه، ويوفق إلى الموقف الحق والمنهج الصائب؛ يقول الله عز وجل آمراً لنا بالنظر في سننه سبحانه المطردة ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧]، وقال سبحانه: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ [فاطر: ٤٣].

لذا وجب على المسلمين بعامة، وعلى دعاة الحق والمجاهدين في سبيل الله عز وجل بخاصة؛ أن يقفوا طويلاً مع كتاب الله عز وجل وما تضمن من الهدى والنور، ومن ذلك ما تضمنه من السنن الربانية المستوحاة من دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ وذلك لأن في معرفتها والسير على هداها أخذٌ بأسباب النصر والتمكين والفلاح، ونجاة مما وقع فيه الغير من تخبط وعناء.

ومن هذه السنن التي ينبهنا الله عز وجل إليها في مثل هذه الأحداث ما يلي:

١ - سنة الابتلاء والتمحيص والمدافعة:

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١]، ويقول الله عز وجل: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١]، وقال في السورة نفسها: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤]، وقال الله عز وجل معقباً على غزوة أحد: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، وقال سبحانه في الحدث نفسه: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٦]، قال ابن كثير - رحمه الله تعالى - عند الآية الثانية: (أي لا بد أن يعقد سبباً من المحنة يظهر فيه وليّه ويفتضح فيه عدوه، يُعرف به المؤمن الصابر والمنافق الفاجر). ويقول صاحب الظلال - رحمه الله تعالى: (ويقطع النص القرآني بأنه ليس من شأن الله - سبحانه - وليس من مقتضى ألوهيته، وليس من فعل سنته؛ أن يدع الصف المسلم مختلطاً غير مميز يتوارى المنافقون فيه وراء دعوى الإيمان، ومظهر الإسلام، بينما قلوبهم خاوية من بشاشة الإيمان، ومن روح الإسلام).. وبالنظر إلى هذه الأحداث الضخمة المتسارعة في ضوء سنة الابتلاء والتمحيص، نرى أن هذه السنة المطردة الثابتة تعمل الآن عملها بإذن ربها سبحانه وتعالى لتؤتي أكلها الذي أراده الله عز وجل، ومن ذلك تمحيص عباده المؤمنين ولطفه بهم ورحمته وتمييز الصفوف حتى تتنقى من المنافقين وأصحاب القلوب المريضة وينكشف أمرهم للناس، وحتى يتعرف المؤمنون أنفسهم على أنفسهم وما فيها من الثغرات والآفات التي تحول بينهم وبين التمكين والنصر، فيتخلصوا منها ويغيّروا ما بأنفسهم؛ لأن الله عز وجل لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، فإذا ما تمايزت الصفوف، وتساقط المتساقطون في أتون الابتلاء، واستبان سبيل المؤمنين من سبيل المجرمين، وخرج المؤمنون الصابرون الصادقون منها كالذهب الأحمر الذي تخلَّص من شوائبه بالنار؛ حينها تهب رياح النصر على عباد الله المصطفين الذين ثبتوا في الابتلاء وما بدلوا تبديلاً.

٢ - سنة الإملاء والاستدراج للكفار:

قال الله تعالى عن هذه السنة: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وهذه السنة تعمل عملها في هذه الأوقات، وذلك في معسكر أهل الكفر والنفاق، وبخاصة أولئك الذين بلغ بهم الكبر والغطرسة والظلم والجبروت والطغيان مبلغاً عظيماً ونراهم يزدادون يوماً بعد يوم في الظلم والطغيان، لكن المسلم الذي يفقه سنة الله عز وجل ويتأمّلها ويرى آثارها وعملها في الأمم السابقة؛ لا يستغرب ما يرى، ولا يحيك في نفسه شيء من هذا، لأنه يرى في ضوء هذه السنة أن الظلمة اليوم يعيشون سنة الإملاء والاستدراج التي تقودهم إلى مزيد من الظلم والطغيان والغرور، وهذا بدوره يقودهم إلى نهايتهم المحتومة وهي الهلاك والقصم في الأجل الذي قد ضربه الله لهم، قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم

(١) الصواعق المرسلة: (٤/ ١٥٦٤).

مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩]، ففي الإملاء للظالمين وتركهم يتسلَّطون على المسلمين في مدة من الزمن، ابتلاءٌ وتمحيصٌ للمؤمنين، حتى إذا آتت سنن الابتلاء أكلها وتميَّز الصف المؤمن الذي خرج من الابتلاء ممحَّصاً نظيفاً، عندئذ تكون سنة الإملاء هي الأخرى قد أشرفت على نهايتها، فيحق القول على الظالمين ويمحقهم الله كرامة ونصراً للمؤمنين الممحَّصين الذين يمكِّن الله لهم في الأرض ويستخلفهم فيها بعد محق الكافرين، قال الله عز وجل: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١]، فذكر الله سبحانه التمحيص قبل المحق، ولو محق الله عز وجل الكفار قبل تهيُّؤ المؤمنين الممحصين فمَن يخلف الكفار بعد محقهم؟

الأمر الثالث:

وفي ضوء ما سبق في الأمر الأول والثاني، فإنه يمكن فيما يلي تسجيل بعض التفسيرات لما يحدث، كما يمكن تسجيل بعض الوصايا في ظل ما يحدث؛ فإن تك صواباً فمن الله وحده فهو المان بذلك، وإن تك خطأً فمني ومن الشيطان وأستغفر الله من ذلك. ويمكن إجمال هذا التفسيرات والوصايا في الوقفات التالية:

الوقفة الأولى:

اختلفت آراء المراقبين من فئات المسلمين لهذه الأحداث وتفسيرها ما بين ناظر إليها على أنها عفوية غير مخطط لها وإنما جاءت لتراكمات وضغوظ شديدة على الشعوب في تلك البلدان في دينها ومعيشتها وأعراضها وبعد أن بلغ الظلم والكبت منتهاه انفجرت تلك النفوس المكبوتة لتعبِّر عن معاناتها في مظاهرات وثورات انتهت بأفول الطواغيت في تلك البلدان. وفي المقابل لهذا الرأي هناك من ينظر إلى هذه الأحداث على أنها نتيجة تخطيط وتواطؤ أمريكي مع الفئات الليبرالية ومن تراهم أمريكا من المعتدلين الإسلاميين لإسقاط تلك الأنظمة الديكتاتورية التي جثمت على صدور شعوبها ردحاً من الزمن وأذاقتها الظلم والأمرين بعد أن استنفدت أغراضها وبلغت كراهية الشعوب لها مبلغاً لا يحتمل، وتسبب ذلك في كراهية أمريكا التي كانت تدعم هذه الأنظمة الظالمة، فأرادت أمريكا أن تخفف من كراهية الشعوب الإسلامية لها لا سيما بعد غزوها العراق وأفغانستان ودعمها الواضح الصريح لدولة اليهود في فلسطين، ولذا يرى أصحاب هذه النظرة أن الأصابع الأمريكية وراء هذه الأحداث، وأن أمريكا أرادت تغيير الوجه الحاكم في تلك البلدان بحيث تخف الوطأة وتخف الكراهية بعد أن تأتي بخليط من الإسلاميين والليبراليين على نمط التجربة الإسلامية التركية (الإسلام الأمريكاني)، وحينها تمرر أمريكا ما تريد من أفكار وتغييرات في المنطقة بصورة غير استفزازية ومقبولة من الشعوب دون إنكار لها.

وهناك رأي ثالث وسط بين الرأيين السابقين، ولعله الأقرب إلى الصواب، وهو قول من يقول أن هذه الأحداث والثورات جاءت دون تخطيط مسبق لها من الخارج، وإنما هي تنفس المكبوت وثورة المظلوم على الظالمين، وهذا مقتضى ما أشير إليه في المقدمة من أنها من تقدير العزيز العليم اللطيف الخبير الحكيم، وأنها جاءت في وقتها الذي أراده الله عز وجل بحكمته ورحمته وعلمه ولطفه وعزته وسنته في الظالمين، وهي مقتضى أسمائه سبحانه الحسنى ومقتضى سنته التي لا تتبدل ولا تتحول. ويرى أصحاب هذا الرأي أن هذه الأحداث وإن لم يُخطِّط لها أعداء الإسلام من الخارج إلا أنهم بذلوا وسعهم في استثمارها وركبوا موجتها ساعين إلى ألا يقطف الثمرة من يسمونهم الإسلاميين الأصوليين وأن يحولوا بينهم وبين استثمار هذه الفرص والفوز بها، فسعوا جاهدين لدعم التيار الليبرالي ومن يسمونهم المعتدلين الإسلاميين في قطف ثمرة هذه الثورات والتي بها يضمن الغرب وأمريكا بقاء الولاء لهم وبقاء هذه الأنظمة الجديدة تدور في الفلك الأمريكي لكن بصورة غير ظاهرة وغير استفزازية كما كانت في الأنظمة السابقة. وهذا هو شأن السياسة الأمريكية، فعندما تفشل في تحقيق هدف كبير لها فإنها ترضى بما دونه من الأهداف ولو كان لا يعجبها، فهي لما فشلت في القضاء على الإسلام والاطمئنان في دياره رضيت بما دون ذلك ولو كان فيه ظهور وحرية جزئية للمسلمين ودعوتهم؛ وهذا شأن الشيطان الرجيم، حيث إنه لا ييأس من إظهار الشر وإضلال الناس، فهو يبدأ بإضلالهم وإيقاعهم في الكفر والشرك الأكبر، فإن فشل في ذلك رضي بإيقاعهم في البدع، فإن فشل في ذلك ذهب إلى إيقاعهم في الكبائر... وهكذا، حتى إذا يئس من عصيانهم لله تعالى أشغلهم بالمباحات وتقديم المفضول على الفاضل، وهكذا السياسة الأمريكية الشيطانية.

هذا ما يخطط له البشر الجاهل الظالم، لكن لا يبقى ولا يكون إلا ما يريده الله عز وجل ويدبره، فهو - سبحانه - مدبر الأمور بعلمه وحكمته وعدله ولطفه ورحمته وعزته، والجميع في قبضته ونواصي الخلق بيده، ولا يأتي من ربنا عز وجل إلا الخير لعباده المؤمنين، ومن سنته سبحانه أن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله.

الوقفة الثانية:

وكما اختلفت وجهات النظر السابقة في تفسير هذه الأحداث ومنشَئها، فقد اختلفت أيضاً مواقف الدعاة إلى الله عز وجل والمحبين لهذا الدين إزاء النتائج التي تمخَّضت عنها وإزاء القائمين عليها والماسكين بزمام الأمور فيها، ونشأ من جراء ذلك ثلاثة مواقف؛ طرفان ووسط، وخير هذه المواقف أوسطها والله أعلم.

الطرف الأول:

المفرطون في التفاؤل وهم الذين نظروا إلى هذه الأحداث وما تمخَّض عنها من تخفيف الوطأة على المسلمين والحرية في تطبيق بعض أحكام الإسلام، على أنها النصر المنشود للإسلام والمسلمين، وأن هذا العهد الجديد الذي خَلَفَ العهد البائد هو تمكين للإسلام في الأرض وعودة إلى الحكم بالشريعة بين الناس.

الطرف الثاني:

ويأتي مقابلاً للطرف الأول ومضاداً له، وهم الذين أفرطوا في التشاؤم من هذه الأحداث ونتائجها فشككوا في كل شيء ولم يروا أن شيئاً قد تغير ولم يعيروا اهتماماً بالخير الذي ظهر من هذه الأحداث ولا إلى الشر الذي خفت، ووقفوا خصوماً للقائمين عليها ومَن تعاطف معهم.

الموقف الوسط:

وهم الذين استبشروا من هذه الأحداث خيراً، ففرحوا بما فتح الله فيها من أبواب الخير وارتفاع صوت الإسلام، وفرحوا بما أغلق بها من أبواب الشر والظلم وسقوط الظالمين، لكنهم لم يروا أن هذه الأحداث ونتائجها هي النصر المنشود للإسلام والمسلمين والتمكين لهم في الأرض، حيث لم تتوافر شروط ذلك بعد، بل إن في الواقع من الموانع ما يمنع ذلك، ولعل في التغيرات الجديدة من الأسباب ما يزيل بها سبحانه هذه الموانع حتى يتحقق نصر الله الموعود، وقد تكون هذه التغيرات والأحداث برزخاً بين عهدين؛ عهد الظلم البائد وما كان فيه من إقصاء للإسلام ومحاربة الدين وأهله، وعهد التمكين المنشود للإسلام. وإن أَحْسَنَ الدعاةُ إلى الله اغتنامَ هذه الأحداث واستعلوا على حظوظ النفس والدنيا وجمعوا كلمتهم ووحدوا صفوفهم، فإن نصر الله عز وجل لآت بإذنه سبحانه، وعندها تكون هذه الأحداث إرهاصاً للعودة الحقة إلى الإسلام والحكم بشريعته، أما إن تخلفت أسباب وشروط النصر وتفرق الدعاة واختلفوا بينهم وضعف الإخلاص وقلَّت المتابعة للرسول ﷺ؛ فإن نصر الله عز وجل لا يأتي والحالة هذه، فسنة الله عز وجل لا تحابي أحداً، فهذا رسول الله ﷺ في غزوة أحد ومن معه من أصحابه الكرام قاسوا من آلام الهزيمة الشيء العظيم وليس في الأرض من يعبد الله سواهم، لكن لما تخلف شرط من شروط النصر تخلف النصر، قال الله عز وجل: ﴿ **وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٥٢]. وقد حذر الله عز وجل المؤمنين من أسباب الفشل فقال: ﴿ **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [الأنفال: ٤٦]. نسأل الله عز وجل أن يوحِّد صفوف المؤمنين وأن يؤلف بين قلوبهم وأن يعيذهم من التفرق والاختلاف.

الوقفة الثالثة:

وفي هذه الوقفة أوصي نفسي وإخواني الدعاة والمجاهدين بأن نضع مصلحة هذا الدين ومصلحة المسلمين عامة فوق كل مصلحة فردية أو خاصة، وألا نغفل عن القواعد والموازنات الشرعية المستنبطة من أدلة الأحكام الشرعية، والتي قعَّدها لنا سلفنا الصالح بفهمهم الثاقب ومقاصدهم الحسنة، لا سيما في خضم هذه الأحداث المتسارعة والنوازل الكبيرة، حيث الحاجة كبيرة وماسَّة إلى فقه الموازنات، وذلك عند تعارض المفاسد والمصالح مع بعضها، أو عند تعارض المصالح والمفاسد، لأن في الغفلة عن هذه القواعد والموازنات خطراً كبيراً يؤدي إلى اختلاف الأمة وتفرقها وشماتة أعدائها بها واغتنامهم هذا التفرّق في إشعال الفتن بين المسلمين، وتنفيذ مخططاتهم في بلدان المسلمين، والاستيلاء عليها، وما أحسن تلك العبارة التي قالها من قالها من أهل العلم (ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر، لكن العاقل من يعرف خير الخيرين فيأتيه وشر الشرين فيتركه)، وكي تتضح هذه المسألة المهمة ننزلها على ما يدور في الأوقات من الأحداث والثورات في بعض بلدان المسلمين، فقد يرى بعض الدعاة المجاهدين كثيراً من الملاحظات على الثورات والقائمين عليها فيقفون عندها دون النظر إلى ما فتح الله عز وجل بسببها من أبواب الخير وأغلق بها من أسباب الشر، وبناءً على هذه النظرة عندهم يقفون منها موقف العداء والخصومة، ولو طبقوا قاعدة الموازنات التي منها ارتكاب أخف الضرر عند التعارض والأخذ بأكبر المصلحتين عند التعارض والمحافظة على الأصل الذي هو الاجتماع والائتلاف وإن فات بسببه شيء من الفروع؛ فلو أنهم تنبهوا لهذه الموازنات وفكروا

فيها بعمق؛ لما كانت هذه المواقف العدائية من هذه الثورات، ولا يعني هذا الكلام المجاملة في الحق وإقرار الباطل، بل يجب بيان الحق من الباطل ومناصحة المخالفين للحق، لكن دون المنابذة والافتراق ما داموا في الجملة من أهل السنة الساعين إلى نصرة هذا الدين. وتتأكد هذه المواقف في مثل أحوال الأمة التي تمر بتغيرات كبيرة وهي لا تزال في ضعفها وتفرُّقِها وبُعدها عن دينها، ففي مثل هذه الأحوال تحتاج الأمة - لا سيما دعاتها - إلى توحيد صفوفهم وإن اختلفوا في بعض المسائل؛ تغليباً لمصلحة الاجتماع واتقاءً لمفاسد الفرقة، لا سيما في مواجهة الكفر والطغيان والزندقة، فلقد روى الذهبي في السير أن بعض علماء السنة اتفقوا مع الخوارج على مواجهة الدولة العبيدية، فقال: وعوتب بعض العلماء في الخروج مع أبي يزيد الخارجي، فقال: وكيف لا أخرج وقد سمعت الكفر بأذني. وخرج أبو إسحاق الفقيه مع أبي يزيد الخارجي وقال: (هم أهل قبلة وأولئك ليسوا أهل قبلة وهم بنو عدو الله فإن ظفرنا بهم لم ندخل تحت طاعة أبي يزيد لأنه خارجي)[1]. وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - لما واجهت الأمة في بلاد الشام غزو التتار اجتمع مع أهل العلم في ذلك الزمان، وكان فيهم الأشعري والصوفي من غير الغلاة، وذهبوا إلى ملك التتار، ثم جيَّش الأمة لقتالهم على اختلاف مشاربهم، وهذا من فقهه - رحمه الله، إذ لو وقف مع الخلاف بين أهل المذاهب في وقته وانشغل بمخاصمتهم لاجتاح العدو بلدان المسلمين وأباد الجميع دون تفريق بين مذهب ومذهب.. وهذا لا يعني تساهل ابن تيمية فيما عند الطوائف المبتدعة من باطل، بل كان هذا الموقف في ظرف معين، وإلا فلا تخفى مقارعته لأهل البدع والتشنيع عليهم وبيان باطلهم في رسائله وكتبه ومناظراته لهم. ونظراً لأهمية هذه المسألة وخطورتها أسوق كلاماً نفيساً لشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - يتحدث في صميم المسألة، ويبيِّن فيه أهمية فقه الموازنات وقواعد الترجيح عند التعارض، فيقول (فالتعارض إما بين حسنتين لا يمكن الجمع بينهما؛ فتقدم أحسنهما بتفويت المرجوح، وإما بين سيئتين لا يمكن الخلو منهما؛ فيدفع أسوأهما باحتمال أدناهما، وإما بين حسنة وسيئة لا يمكن التفريق بينهما، بل فعل الحسنة مستلزم لوقوع السيئة وترك السيئة مستلزم لترك الحسنة؛ فيرجح الأرجح من منفعة الحسنة ومضرة السيئة.

(١) سير أعلام النبلاء، ١٥/ ١٥٤ - ١٥٥.

فالأول: كالواجب المستحب؛ وكفرض العين وفرض الكفاية؛ مثل: تقديم قضاء الدين المطالب به على صدقة التطوع، وكتقديم نفقة الأهل على نفقة الجهاد الذي لم يتعين، وتقديم نفقة الوالدين عليه كما في الحديث الصحيح: (أي العمل أفضل؟ قال: الصلاة على مواقيتها. قلت: ثم أي؟ قال: ثم بر الوالدين. قلت: ثم أي؟ قال: ثم الجهاد في سبيل الله)، وتقديم الجهاد على الحج كما في الكتاب والسنة متعين على متعين ومستحب على مستحب، وتقديم قراءة القرآن على الذكر إذا استويا في عمل القلب واللسان، وتقديم الصلاة عليهما إذا شاركتهما في عمل القلب، وإلا فقد يترجح الذكر بالفهم والوجل على القراءة التي لا تجاوز الحناجر وهذا باب واسع.

والثاني: كتقديم المرأة المهاجِرة لسفر الهجرة بلا محرم على بقائها بدار الحرب كما فعلت أم كلثوم التي أنزل الله فيها آية الامتحان: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ﴾ [الممتحنة: ١٠]، وكتقديم قتل النفس على الكفر كما قال تعالى ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، فتقتل النفوس التي تحصل بها الفتنة عن الإيمان؛ لأن ضرر الكفر أعظم من ضرر قتل النفس، وكتقديم قطع السارق ورجم الزاني وجلد الشارب على مضرة السرقة والزنا والشرب، وكذلك سائر العقوبات المأمور بها، فإنما أمر بها مع أنها في الأصل سيئة وفيها ضرر؛ لدفع ما هو أعظم ضرراً منها وهي جرائمها، إذ لا يمكن دفع ذلك الفساد الكبير إلا بهذا الفساد الصغير.

وأما الثالث: فمثل أكل الميتة عند المخمصة؛ فإن الأكل حسنة واجبة لا يمكن إلا بهذه السيئة ومصلحتها راجحة، وعكسه الدواء الخبيث؛ فإن مضرته راجحة على مصلحته من منفعة العلاج لقيام غيره مقامه، ولأن البرء لا يتيقن به، وكذلك شرب الخمر للدواء؛ فتبيَّن أن السيئة تحتمل في موضعين: دفع ما هو أسوأ منها إذا لم تدفع إلا بها، وتحصيل ما هو أنفع من تركها إذا لم تحصل إلا بها. والحسنة تترك في موضعين: إذا كانت مفوتة لما هو أحسن منها، أو مستلزمة لسيئة تزيد مضرتها على منفعة الحسنة. هذا فيما يتعلق بالموازنات الدينية، أما سقوط الواجب لمضرة في الدنيا وإباحة المحرم لحاجة في الدنيا كسقوط الصيام لأجل السفر، وسقوط محظورات الإحرام وأركان الصلاة لأجل المرض؛ فهذا باب آخر يدخل في سعة الدين ورفع الحرج الذي قد تختلف فيه الشرائع بخلاف الباب الأول، فإن جنسه مما لا يمكن اختلاف الشرائع فيه وإن

اختلفت في أعيانه، بل ذلك ثابت في العقل كما يقال: ليس العاقل الذي يعلم الخير من الشر، وإنما العاقل الذي يعلم خير الخيرين وشر الشرين، وينشد:

إن اللبيب إذا بدا من جسمه
مرضان مختلفان داوى الأخطرا

وهذا ثابت في سائر الأمور... ويرجحون وجود السلطان مع ظلمه على عدم السلطان كما قال بعض العقلاء (ستون سنة من سلطان ظالم خير من ليلة واحدة بلا سلطان). ثم السلطان يؤاخذ على ما يفعله من العدوان ويفرط فيه من الحقوق مع التمكن، بل لو كانت الولاية غير واجبة وهي مشتملة على ظلم ومن تولاها أقام الظلم حتى تولاها شخص قصده بذلك تخفيف الظلم فيها، ودفع أكثر باحتمال أيسره؛ كان ذلك حسناً مع هذه النية، وكان فعله لما يفعله من السيئة بنية دفع ما هو أشد منها جيداً.

وهذا باب يختلف باختلاف النيات والمقاصد، فمن طلب منه ظالم قادر وألزمه مالاً فتوسط رجل بينهما ليدفع عن المظلوم كثرة الظلم وأخذ منه وأعطى الظالم مع اختياره أن لا يظلم ودفعه ذلك لو أمكن؛ كان محسناً، ولو توسط إعانة للظالم كان مسيئاً، وإنما الغالب في هذه الأشياء فساد النية والعمل، أما النية فبقصده السلطان والمال، وأما العمل فبفعل المحرمات وبترك الواجبات لا لأجل التعارض ولا لقصد الأنفع والأصلح.

ثم الولاية وإن كانت جائزة أو مستحبة أو واجبة فقد تكون في حق الرجل المعين غيرها أوجب أو أحب، فيقدم حينئذ خير الخيرين وجوباً تارة واستحباباً أخرى، فإذا ازدحم واجبان لا يمكن جمعهما فقدم أوكدهما لم يكن الآخر في هذه الحال واجباً ولم يكن تاركه لأجل فعل الأوكد تاركاً واجباً في الحقيقة، وكذلك إذا اجتمع محرمان لا يمكن ترك أعظمهما إلا بفعل أدناهما لم يكن فعل الأدنى في هذه الحال محرماً في الحقيقة، وإن سمي ذلك ترك واجب وسمي هذا فعلاً محرماً باعتبار الإطلاق لم يضر. ويقال في مثل هذا ترك الواجب لعذر وفعل المحرم للمصلحة الراجحة أو للضرورة أو لدفع ما هو أحرم، وهذا كما يقال لمن نام عن صلاة أو نسيها إنه صلاها في غير الوقت المطلق قضاء، هذا وقد قال النبي ﷺ: (من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها فإن ذلك وقتها لا كفارة لها إلا ذلك). وهذا باب التعارض باب واسع جداً لا سيما في الأزمنة والأمكنة التي نقصت فيها آثار النبوة وخلافة النبوة، فإن هذه المسائل تكثر فيها، وكلما ازداد النقص ازدادت هذه المسائل، ووجود ذلك من أسباب الفتنة بين الأمة، فإنه إذا اختلطت الحسنات بالسيئات وقع الاشتباه والتلازم، فأقوام قد ينظرون إلى الحسنات فيرجحون هذا الجانب وإن تضمن سيئات عظيمة، وأقوام قد ينظرون إلى السيئات فيرجحون الجانب الآخر وإن ترك حسنات عظيمة، والمتوسطون الذين ينظرون الأمرين قد لا يتبيَّن لهم أو لأكثرهم مقدار المنفعة والمضرة أو يتبيَّن لهم فلا يجدون من يعينهم على العمل بالحسنات وترك السيئات كون الأهواء قارنت الآراء، ولهذا جاء في الحديث «إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات»[1].

من هذا الكلام النفيس والفقه العميق يتبيَّن لنا أهمية العلم بفقه الموازنات وخطورة الجهل به أو إغفاله، وبالنظر في ضوء هذا الفقه إلى ما يحدث اليوم من النوازل والفتن في بلدان المسلمين، يتبيَّن لنا خطأ من يجعل نفسه – من بعض الدعاة والمجاهدين – خصماً ومناوئاً لمن يقود هذه الأحداث والثورات وفيها كثير من الإسلاميين، وذلك لما صدر عنهم من بعض المواقف والتصريحات الخاطئة، فيحدث من جراء ذلك فرقة وفتنة بين الساعين لنصرة هذا الدين، ما ينشأ عنها الفشل والهزيمة لهم، وما يهيئ لأنصار الباطل والظلمة وأهل الزندقة والكفر والعلمنة المناخَ الملائم لقطف ثمرة هذه الأحداث وخطف النصر والتمكين لصالحهم، فالوصية لأنصار هذا الدين أن يجتمعوا أمام أهل الزندقة والكفر وأن يُعْمِلوا فقه الموازنات وقواعد الترجيح الشرعية فيما يحقق الخير والصلاح للأمة، ولو كان في هذا الخير شيء من الدخن والمفاسد. والعبرة بارتكاب أخف الضررين وتحقيق أعلى المصلحتين عند التعارض، ولا شك أن تولي المنتسبين لهذا الدين والحكم بشريعته أصلح وأعظم خيراً وأقل فساداً من تولي أعداء هذا الدين الكارهين لشريعته، ولقد أفتى بعض أهل العلم بأنه لو كان في بلد من بلدان الكفر رجلان كافران يطلب التصويت على أحدهما ليكون رئيساً لتلك الدولة وكان أحدهما أخف ضرراً على المسلمين في تلك البلاد، وحرية المسلمين تكون في عهده أكثر من الأخر؛ لكان على المسلمين التصويت له والسعي إلى إسقاط الآخر، وهذا من الفقه الدقيق والعلم الراسخ.

الوقفة الرابعة: وهذه الوقفة فرع من الوقفة السابقة وفيها تطبيق لفقه الموازنات وقواعد الترجيح بين المصالح والمفاسد المتعارضة، فلو قدر الله عز وجل أن يمكِّن لطائفة من

(١) مجموع الفتاوى، ٢٢/٥٢ – ٥٨، باختصار.

المسلمين في بقعة من الأرض وبلد من البلدان ليحكموها بشرع الله عز وجل ويأمرون فيها بالمعروف وينهون عن المنكر، فهل يجب على هؤلاء الممكَّنين المبادرة إلى تطبيق أحكام الإسلام كلها على الناس وإقامة الحدود والعقوبات عليهم دفعة واحدة؟ الجواب على ذلك يحكمه فقه الموازنات والنظر إلى المصالح الكبرى للإسلام والمسلمين وتطبيق قواعد الترجيح الشرعية بارتكاب أعلى المصلحتين ولو ذهبت أدناهما، وارتكاب أهون المفسدتين لتفويت أعظمهما؛ فإذا كان في إقامة الحدود من أول يوم ومعاقبة المخالف لأحكام الإسلام مفسدة عامة ينفر بسببها الناس من الإسلام أو ينحازون إلى أعدائه بسبب جهلهم أو عدم قدرتهم على أخذ أحكام الإسلام كلها وهلة واحدة؛ فإنه قد يكون من الحكمة والمصلحة الراجحة الرفق بالناس والتدرج معهم في تطبيق أحكام الشريعة حتى تذل نفوسهم لذلك وتنقاد، وعندما يقال التدرج في تطبيق بعض الأحكام لا يعني هذا التدرج في بيانها، فبيان دين الله عز وجل وحدود شريعته وأحكامها ينبغي أن يكون من أول يوم يتمكن فيه أنصار الله عز وجل، وإنما المقصود تأجيل مؤاخذة الناس وعقوباتهم على التفريط فيها، أي أن التدرج يكون في تطبيق بعض الأحكام لا في بيانها.

وعن هذه المسألة المهمة يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى: (فينبغي للعالم أن يتدبر أنواع هذه المسائل، وقد يكون الواجب في بعضها – كما بيَّنته فيما تقدم: العفو عند الأمر والنهي في بعض الأشياء، لا التحليل والإسقاط؛ مثل أن يكون في أمره بطاعة فعلاً لمعصية أكبر منها، فيترك الأمر بها دفعاً لوقوع تلك المعصية مثل أن ترفع مذنباً إلى ذي سلطان ظالم فيعتدي عليه في العقوبة ما يكون أعظم ضرراً من ذنبه. ومثل أن يكون في نهيه عن بعض المنكرات تركاً لمعروف هو أعظم منفعة من ترك المنكرات، فيسكت عن النهي خوف أن يستلزم ترك ما أمر الله به ورسوله مما هو عنده أعظم من مجرد ترك ذلك المنكر. فالعالم تارة يأمر وتارة ينهى وتارة يبيح وتارة يسكت عن الأمر أو النهي أو الإباحة كالأمر بالصلاح الخالص أو الراجح أو النهي عن الفساد الخالص أو الراجح، وعند التعارض يربح الراجح – كما تقدم – بحسب الإمكان، فأما إذا كان المأمور والمنهي لا يتقيد بالممكن: إما لجهله وإما لظلمه ولا يمكن إزالة جهله وظلمه، فربما كان الأصلح الكف والإمساك عن أمره ونهيه كما قيل: إن من المسائل مسائل جوابها السكوت كما سكت الشارع في أول الأمر عن الأمر بأشياء والنهي عن أشياء حتى علا الإسلام وظهر.. فالعالم في البيان والبلاغ كذلك؛ قد يؤخر البيان والبلاغ لأشياء إلى وقت التمكن كما أخَّر الله سبحانه إنزال آيات وبيان أحكام إلى وقت تمكُّن رسول الله ﷺ من بيانها. تبين حقيقة الحال في هذا أن الله يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٥]، الحجة على العباد إنما تقوم بشيئين بشرط التمكن من العلم بما أنزل الله والقدرة على العمل به؛ فأما العاجز عن العلم كالمجنون، أو العاجز عن العمل؛ فلا أمر عليه ولا نهي، وإذا انقطع العلم ببعض الدين، أو حصل العجز عن بعضه: كان ذلك في حق العاجز عن العلم أو العمل بقوله كمن انقطع عن العلم بجميع الدين أو عجز عن جميعه كالمجنون مثلاً وهذه أوقات الفترات. فإذا حصل من يقوم بالدين من العلماء أو الأمراء أو مجموعهما كان بيانه لما جاء به الرسول شيئاً فشيئاً بمنزلة بيان الرسول لما بعث به شيئاً فشيئاً، ومعلوم أن الرسول لا يبلغ إلا ما أمكن علمه والعمل به. ولم تأتِ الشريعة جملة. كما يقال: (إذا أردت أن تطاع فأمر بما يستطاع). فكذلك المجدد لدينه والمحيي لسنته لا يبلغ إلا ما أمكن علمه والعمل به، كما أن الداخل في الإسلام لا يمكن حين دخوله أن يلقن جميع شرائعه ويؤمر بها كلها. وكذلك التائب من الذنوب؛ والمتعلم والمسترشد؛ لا يمكن أول الأمر أن يؤمر بجميع الدين ويذكر له جميع العلم؛ فإنه لا يطيق ذلك، وإذا لم يطقه لم يكن واجباً عليه في هذا الحال، وإذا لم يكن واجباً لم يكن للعالم والأمير أن يوجبه جميعه ابتداء، بل يعفو عن الأمر والنهي بما لا يمكن علمه وعمله إلى وقت الإمكان؛ كما عفا الرسول ﷺ عما عفا عنه إلى وقت بيانه. ولا يكون ذلك من باب إقرار المحرمات وترك الأمر بالواجبات، لأن الوجوب والتحريم مشروط بإمكان العلم والعمل وقد فرضنا انتفاء هذا الشرط. فتدبر هذا الأصل فإنه نافع. ومن هنا يتبين سقوط كثير من هذه الأشياء وإن كانت واجبة أو محرمة في الأصل لعدم إمكان البلاغ الذي تقوم به حجة الله في الوجوب أو التحريم، فإن العجز مسقط للأمر والنهي وإن كان واجباً في الأصل والله أعلم)[1].

أسأل الله عز وجل أن ينصر دينه، ويعلي كلمته، وأن يولي على المسلمين خيارهم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين.

(١) مجموع الفتاوى، ٢٢/ ٥٨ – ٦٠.

الحكمة الخالدة

وحقيقة المشترك الإنساني

فيصل بن علي الكاملي(*)
popedia@windowslive.com

الحكمة الخالدة فلسفةٌ باطنيةٌ تذهب إلى أن كل التقاليد الدينية على مرّ العصور مظاهر مختلفة لحقيقة واحدة، وأن المعارف الدينية على اختلافها مستمدَّةٌ من جوهر واحد أو «دينٍ خالد» Religio Perennis؛ فكل الأديان، بغضّ النظر عن سياقها الثقافي أو التاريخي، مجرد تفاسير أخرى لهذه الحقيقة الكلية المشتركة، كما أن اختلاف الكتب المقدسة لهذه الأديان وتعارضها، مردُّه إلى أن كل دين صيغ بشكل مختلف ليتناسب مع الاحتياجات الاجتماعية والعقلية والروحية للعصر الذي ظهر فيه، ما يجعل اختلافات الأديان عند أتباع هذه الفلسفة بمنزلة قشور (ظاهر) يمكن أن تنحى للوصول إلى اللباب (الباطن).

أول من ابتدع عبارة «الحكمة الخالدة» أو «الفلسفة الخالدة» الكاثوليكي الأفلاطوني «أغوسطينو ستيوكو»، وكان أميناً لمكتبة الفاتيكان، وألف كتاباً بعنوان «في الفلسفة الخالدة» عام ١٥٤٠م وأهداه للبابا بولس الثالث. وقد اكتسب هذا المصطلح شيوعه في العصر الحديث بعد صدور كتاب الفيلسوف ألدوس هَكسْلي عام ١٩٤٥م بعنوان «الفلسفة الخالدة» – The Perennial Philosophy. وأشهر المدارس الفكرية القائمة على هذه الفلسفة الباطنية «المدرسة الإرثوية» التي تمثلها كتابات كثير من مفكري القرن العشرين من أمثال رينيه جينو، ومارتن لينجز، والإيراني سيد حسين نصر.

(*) باحث سعودي متخصص في دراسة الأديان – يعمل في مركز الدراسات والبحوث التابع لمجلة البيان.

سُميت المدرسة الإرثوية Traditionalism بهذا الاسم نسبة إلى ما تدَّعيه من وجود «إرث» مشترك بين جميع الأديان، الهندوسية والبوذية واليهودية والنصرانية والإسلام.. وغيرها، هذا الإرث المشترك أشبه ما يكون بمركز الدائرة، وكل الأديان تقف على محيطها، بينما يصلها في المركز نصف القطر الذي يعبِّر عن منهجها الخاص الذي به تبلغ المركز. فالمسلم – عند هؤلاء – ليس أسعد حظاً بالحق من الهندوسي عابد البقر، فكلا الدينَين تعبير عن الحقيقة الكلية عينها.

تعود أفكار المدرسة الإرثوية إلى الفيلسوف الفرنسي الباطني «رينيه جينو» René Guénon الذي ولد في فرنسا عام ١٨٨٦م ونشأ في بيئة كاثوليكية متدينة، وتربى على يد التنظيم اليسوعي. في عام ١٩٠٩م أسَّس جينو مجلة «الغنوص» أو «العرفان» La Gnose الباطنية. وفي عام ١٩١١م اعتنق الطريقة الشاذلية على يد الباطني السويدي الماسوني «إيفان أجويلي» Ivan Aguéli أو «الشيخ عبد الهادي عقيلي» كما كان يُدعى، وهو من المنافحين عن ابن عربي الصوفي. بعدها بعام واحد تلقى «جينو» الطقوس الماسونية لينتمي إلى محفل Thébah التابع للمحفل الماسوني الفرنسي الأعظم. وفي عام ١٩٢٤م ألَّف كتابه «الشرق والغرب» الذي دعا فيه إلى إنقاذ العالم الغربي عن طريق إحياء الباطنية الهندوسية[١].

في عام ١٩٣٠م انتقل «جينو» إلى القاهرة وهناك تزوج من ابنة أحد شيوخ الصوفية وأصبح يُعرف بـ «عبد الأحد يحيى»، لكنه بعد ذلك أسَّس مع بعض رفاقه محفلاً ماسونياً في فرنسا يحمل اسم أحد كتبه «الثالوث العظيم» La Grande Triade، وهو كتاب يبحث في كيفية الدخول في الطقوس الماسونية[٢].. توفي «جينو» عام ١٩٥١م ليصبح عند بعضهم عَلماً من أعلام الإسلام!

من أشهر تلاميذ «جينو» الباطنيُّ السويسري المتهتك «فريتيوف شوان»، الذي التحق بالطريقة العليوية وشيخها «أحمد بن عليوة» المعروف بسوء أدبه مع النبي ﷺ وشطحاته الحلولية. ولما مات شيخه غلبت عليه نزعته النصرانية، فأسَّس الطريقة المريمية نسبة إلى مريم عليها السلام بعد أن رأى – قبَّحه الله – رؤى لا يليق ذكرها. وأتباع هذه الطريقة ليسوا من المسلمين فحسب، بل من اليهود والنصارى والهندوس.. وغيرهم.

تتلمذ على يد هذا الزنديقِ الكاتبُ الإنجليزي «مارتن لينجز» صاحب الكتاب الشهير «حياة محمد ﷺ وفقاً للمصادر القديمة». يقول هذا المريمي في كتابه «الساعة الحادية عشرة»: (مملكة السماء في داخلك. هذه الحقيقة هي أساس الباطنية، علم ودراسة الباطن، وهمة الباطني تتجاوز الخلاص إلى التقديس، الذي هو في أسمى معانيه تأليه، أي الاتحاد (أو «اليوجا» عند الهندوس) بالكمال المطلق للذات الإلهية. إن فناء النسبة كلِّها هو «نيرفانا» البوذية؛ وفي التصوف الإسلامي القول بأن «الصوفي غير مخلوق» يشهد للحقيقة المطلقة ذاتها)[٣].

ويقول في موضع آخر: «لكن الحقيقة تفرض نفسها، فلا شيء دون عقيدة الـ «سمسارا»[٤] الكاملةِ قادرٌ على تقديم مفهوم للكون يفي بمطالب العاقل المتدبر باعتبارها أساساً رمزياً للتأمل في الإلهي المطلق»[٥]. وكأنه لم يقرأ قول المولى جلَّ ثناؤه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ – ١٩١]. أما أغناه ذلك حتى جاءنا بوثنية الهنادكة والبوذيين يقدمها على وحي رب العالمين؟!

هذا غيض مما قاله هذا الرجل الذي هو عند كثير من المسلمين من أعلام الدعوة في بريطانيا، ناهيك عن الطوام التي أوردها في كتابه «حياة محمد ﷺ»، وليس هذا موضع بسطها؛ وإنما أردت أن أحذر من فكره الذي استقاه من شيخه الكاثوليكي الباطني «فريتيوف شوان» ومن ضُلّال الطرق الصوفية.

هذه الوثنية التي يدعونها «حقيقة» هي الدين الخالد عند أتباع الحركة الإرثوية، والوصول إليها يكون من أي طريق، سواء كان بتأملات البوذيين أو بـ «يوجا» الهنادكة أو بطقوس الماسون. وهو مذهب يطوف بالحلول والاتحاد، ويتجاوز عند كثير منهم إلى تناسخ الأرواح، فلا غرو أن يكون ابن عربي صاحب الفصوص من أئمتهم.

ومن مشاهير أتباع المدرسة الإرثوية «روجيه جارودي» الذي أبدى حماسه الشديد لكتابات «جينو» في حوار مع الفيلسوف «آلان دي بينوا»[٦]. ومحاولاته لتوحيد الأديان وصهرها في

(1) Mark Sedgwick, Against the Modern World (Oxford University Press, 2004), pp.

(2) Against the Modern World, p. 121.

(3) Martin Lings, The Eleventh Hour, 10.

(٤) سمسارا هي عقيدة شرقية تقول بالميلاد المتكرر وتناسخ الأرواح.

(5) Martin Lings, The Eleventh Hour, 27, 28.

(6) Against the Modern World, p. 337.

قالب «الأديان الإبراهيمية» أشهر من أن تذكر. وقد وصفه الشيخ بكر أبو زيد في كتابه «الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان» بقوله «النصراني المتلصص إلى الإسلام». يؤيد هذا ما ذهب إليه الكاتب السياسي الأمريكي «روبرت دريفوس» في كتابه «رهينة الخميني» (ص ٢١١ – ٢١٢)، إذ يقول: «المنظِّر الفرنسي ذو الارتباط اليسوعي «روجيه جارودي»... شخصية مهمة في عمليات المخابرات البريطانية... وهو منظر سابق للحزب الشيوعي، اعتنق الكاثوليكية الرومية من خلال تأثير «بير ليبريه» Père Lebret اليسوعي المختص في [كيفية] الإبقاء على البناء الاجتماعي الإفريقي على أساس من السحر القَبَلي»[١].

لكن كتابات جارودي رغم شهرتها، لم تعد فاعلة كما كانت في القرن العشرين، بيد أن شخصية بارزة تقوم بالدور ذاته بصورة ألطف بعض الشيء، ألا وهي الكاتبة الإنجليزية «كارين آرمسترونج». «كارين آرمسترونج» واحدة من أخطر الكتَّاب الذين يسعون إلى توحيد الأديان بناءً على عقيدة الإرثوية أو الدين الخالد. والفرق بينها وبين من سبق ممن ذكرت هو أنها لم تعتنق الإسلام كما صنعوا، لكنها تظهر في المؤتمرات والوثائقيات وكأنها تمثل أهل الإسلام، حتى ظن بعض البسطاء أنها قاب قوسين أو أدنى من دخول الإسلام، علماً أنها راهبة كاثوليكية سابقة في «جمعية الطفل المقدس يسوع» اليسوعية، تخلت عن الكاثوليكية – على حدٍّ زعمها – لكنها لم تعتنق غيرها.

أما فكرها الإرثوي فبيِّنٌ لمن قرأ كتابها «The Case for God»، فهي تزعم فيه أن البشر لم يكونوا يعبدون إلهاً موصوفاً بصفات، وإنما كانوا يعبدون وجوداً مطلقاً حتى ظهر الآريون في الهند في القرن العاشر قبل الميلاد فعبَّروا عن هذا المعبود باسم «براهمن»، الوجود المطلق[٢]؛ ولذا فهي تمجِّد غلاة الصوفية بقولها: «إن الفرع الباطني من الإسلام، أعني الصوفية، حرص دائماً على القول بأنك عندما تكون في حضرة الله فأنت لست بيهودي ولا نصراني ولا مسلم، ولا يضيرك أكنت في بِيعَة أم مسجد أم هيكل أم كنيسة؛ فكل الأديان المهدية إنما تأتي من الله، فإذا أبصر المتألِّه الإله، نبذ هذه الفروق التي صنعها البشر وراء ظهره»[٣].

(1) Robert Dreyfuss, Hostage to Khomeini, pp. 211, 212.

(2) Karen Armstrong, The Case for God (Vintage, 2010), p. 21.

(٣) في حوار أجراه معها الصحفي الأمريكي «بل موِيَرز» تجده على هذا الرابط:
http://www.pbs.org/now/transcript/transcript_armstrong.html.

وأما عن موقفها من الإسلام فهو كموقف غيرها من المستشرقين، فهي تقول في كتابها «تاريخ الرب» – الذي ترجم إلى العربية تحت عنوان «الله والإنسان» – بعد حديثها عن ذكر القرآن لأنبياء بني إسرائيل: «إن المسلمين اليوم يصرون على أن محمداً ﷺ لو كان يعلم عن الهندوس والبوذيين لأضاف [قصص] زعمائهم»[٤]، فهي لم تكتفِ بزعمها أن القرآن من تأليف النبي ﷺ، بل جعلت كفرة الباطنيين من زعماء الهندوس والبوذيين في مقام الأنبياء والمرسلين. وتقول في موضع آخر: «من لطفاء اليهود في المدينة، تعلم محمد ﷺ قصة إسماعيل»[٥]. ولا أدري من أيهما أعجب: من لطف اليهود أم من تعليمهم سيد البشر ﷺ؟

وقد طرحت هذه الكاتبة مبادرة عالمية أسمتها «ميثاق التراحم» Charter for Compassion تستهلها بقولها: «يقع مبدأ التراحم في صميم ما توارثه البشر من تقاليد دينية وأخلاقية وروحية». فهي تسعى إلى توحيد الأديان عن طريق ما يسمى «المشترك الإنساني» الذي لا يعدو كونه ذريعةً لمروِّجي عقيدة الفلسفة الخالدة. مثل هذا ترجمتهم لـ «كلمةٍ سواء» الواردة في سورة آل عمران (٦٤) بـ Common Word وتعني «كلمة مشتركة»؛ مع أن المعنى المقصود في الآية كلمة عَدل هي البراءة من الشرك.

وقد رأيت مؤخراً كتاباً متهافتاً لأحد المنتسبين إلى العربية يزعم فيه أن «براهما» إله الهندوس هو في الحقيقة «إبراهيم» عليه السلام؛ بل أسفار الـ «فيدا» الهندوسية هي صحف إبراهيم عليه السلام، ليبرر بذلك مصطلح «الأديان الإبراهيمية» الباطل. وهو لم يأتِ بهذا القول من تلقاء نفسه، إنما استقاه من بعض الكتاب الغربيين، لكنه بقصد أو بغير قصد لم يبتعد كثيراً عن مذهب «رينيه جينو» الذي رأى في الهندوسية منبعَ الدين الخالد الذي هو بزعمه مَعِين الأديان.

ختاماً: أردت من هذه النبذة الوجيزة أن أبصِّر المسلمين من دعاة وطلاب علم ومفكرين ببعض العقائد الباطنية التي يُروَّج لها بغير اسمها، وبعض الشخصيات التي أُعليت وحقها السُّفل، وهو موضوع غاية في الأهمية ينبغي لطلاب العلم أن يطرقوه فيبيِّنوا ما فيه من باطل؛ حفظاً لجناب التوحيد، وفضحاً لمن حارب الله ورسوله ﷺ.

(4) Karen Armstrong, A History of God (Vintage, 1999), p. 178.

(5) A History of God, p. 180.

مجلة البيان وجميع إصداراتها المتنوعة متوفرة
بمتجر آبل الإلكتروني لأجهزة آيباد وآيفون.
(فقط عليك تحميل تطبيق البيان)

لجمهورنا الكريم، عدد المجلة لشهر رمضان ١٤٣٣هـ

على المتجر

www.albayan.co.uk

مناقضة الديمقراطية للإسلام

إبراهيم بن محمد الحقيل

في حقبة تفوُّق الغرب المادي وقدرته على التسويق لأفكاره ومبادئه، وأثناء غياب العدل في أنظمة الدول العربية والإسلامية؛ دعا كثير من المفكرين المسلمين إلى الديمقراطية، وألبسوها ثياباً إسلامية، واستخرجوا لها ما يسندها من نصوص الكتاب والسنة، زاعمين أن الإسلام سبق الغربيين إلى الديمقراطية التي هي من صميم الإسلام!!

والحقيقة أن الديمقراطية مناقضة للإسلام في أصول عدة، هي:

الأصل الأول: أن الديمقراطية نظام سياسي عَلماني يُعنى بأمور الدنيا ولا يلتفت للآخرة لا من قريب ولا من بعيد، وليس له علاقة بالدين مطلقاً، واعترافه بحق تديُّن الشخص واحترام اختياره لما يدين به ليس احتراماً للدين ذاته، وإنما هو احترام للإنسان الذي يدين به؛ ولذا فإن كل الأديان والمذاهب في الميزان الديمقراطي سواء، إلا ما ينافي الديمقراطية باعتبارها عند القائلين بها حقيقة مطلقة نهائية، فما عارَضها يجب نفيه وعدم الاعتراف بحقه في ذلك.. بينما النظام السياسي في الإسلام يراعي مسألتي الدين والدنيا، ويقدم الدين على الدنيا؛ ولذا كان حفظ الدين أولى الضرورات الخمس التي راعت الشريعة حفظها، وهو أهمها وأعلاها وأصلها، وبقية الضرورات تبعٌ له، بل إن الإسلام يجعل الدنيا مطية للدين، وليس العكس، فكل ما يتعارض مع الشريعة مما يظن فيه مصلحة فهي مصلحة ملغاة لا اعتبار لها، قال السعدي – رحمه الله تعالى: حقيقة المصلحة هي التي تصلح بها أحوال العباد، وتستقيم بها أمورهم الدينية والدنيوية[1].

ولذا يقرن علماء الحضارة والاجتماع والعمران من المسلمين في معالجة الحكم والسياسة وشؤون الدولة؛ بين أمور الدين والدنيا، ويرعون مصالح الدنيا والآخرة، ولا يفصلون بينهما في المعالجة.

قال ابن خلدون – رحمه الله تعالى: والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها؛ إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة[2]. وفي تفسير قول الله تعالى:

(١) تفسير السعدي: ٣٨٩.
(٢) تاريخ ابن خلدون: ١/ ٢٣٩.

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠] قال ابن عاشور – رحمه الله تعالى: تعقيب ذكر خلق الأرض ثم السماوات بذكر إرادته تعالى جعل الخليفة دليلاً على أن جعل الخليفة كان أول الأحوال على الأرض بعد خلقها... فالخليفة آدم وخلفيته قيامه بتنفيذ مراد الله تعالى من تعمير الأرض بالإلهام أو بالوحي، وتلقين ذريته مراد الله من هذا العالم الأرضي، ومما يشمله هذا التصرف تصرف آدم بسنِّ النظام لأهله وأهاليهم على حسب وفرة عددهم واتساع تصرفاتهم، فكانت الآية من هذا الوجه إيماءً إلى حاجة البشر لإقامة خليفة؛ لتنفيذ الفصل بين الناس في منازعاتهم، إذ لا يستقيم نظام يجمع البشر دون ذلك، وقد بعث الله الرسل، وبيَّن الشرائع، فربما اجتمعت الرسالة والخلافة، وربما انفصلتا، بحسب ما أراد الله من شرائعه، إلى أن جاء الإسلام فجمع الرسالة والخلافة؛ لأن دين الإسلام غاية مراد الله تعالى من الشرائع، وهو الشريعة الخاتمة؛ ولأن امتزاج الدين والملك هو أكمل مظاهر الخطتين، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [النساء: ٦٤]، ولهذا أجمع أصحاب رسول الله بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام على إقامة الخليفة؛ لحفظ نظام الأمة، وتنفيذ الشريعة، ولم ينازع في ذلك أحد من الخاصة ولا من العامة إلا الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى من جفاة الأعراب ودعاة الفتنة[1].

الأصل الثاني: اختلاف مفهوم الأمة والشعب بين الفكر الغربي والتقرير الشرعي؛ ففي الفكر الغربي الشعب أو الأمة هم من يعيشون في حدود جغرافية، فهي رابطة عنصرية حادثة، بينما في الإسلام فالأمة هي من تجمعها عقيدة الإسلام وشريعته[2].. هذا هو الأصل، وهو الذي يجب تكريسه في وجدان المسلم أياً كان جنسه أو لونه أو لسانه، وهو المعمول به في أمة الإسلام يوم أن كانت تجمعهم خلافة واحدة إلى سقوط الدولة العثمانية، فحاول الغربيون فصم عرى الرابطة الإيمانية بين المسلمين، وإحلال روابط أخرى كالقومية والوطنية ونحوها على غرار ما حصل في الغرب، فالاستفتاء الشعبي في العملية الديمقراطية يكون للأمة، لكن من هي هذه الأمة؟!

(١) التحرير والتنوير: ١/ ٣٩٩.
(٢) النظريات السياسية الإسلامية، ص: ٣٧٨، د.محمد ضياء الدين الريس، طبعة: القاهرة عام ١٩٥٢.

في الفكر الغربي هي الدولة الوطنية التي تجمعها حدود جغرافية، وأما في مفهوم الإسلام فالأمة مجموعة أفراد تجمعهم رابطة الدين، فكيف يكون الاستفتاء حينئذ على دول مجزَّأة؟!

إضافة إلى أن مفهوم الأمة بالمعنى الشرعي لا يدخل فيه غير المسلم ولو كان من البلد نفسه، وأما مفهوم الأمة بالمعنى الغربي فيدخل غير المسلم فيه، وهو شريك في عملية الاستفتاء بل والترشح للمناصب العليا في الدولة ما دام داخلاً في الحدود الجغرافية للدولة أو يحمل جنسيتها، وهذا يهدم أصلاً في الإمامة العظمى بالمفهوم الشرعي، وهو اشتراط الإسلام والعدالة في الإمام.

وفي بيان حقيقة الأمة، وانتماء الأفراد إليها قال الله تعالى مخاطباً المسلمين ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، وقال أيضاً: ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون: ٥٢]، قال القرطبي – رحمه الله تعالى: وأصل الأمة الجماعة التي هي على مقصد واحد، فجعلت الشريعة أمة واحدة لاجتماع أهلها على مقصد واحد[3].

الأصل الثالث: أن السيادة في النظام السياسي الإسلامي للشريعة الإسلامية، بينما تكون السيادة في النظام الديمقراطي للأمة أو للمجالس التشريعية التي رشحتها الأمة. والأدلة على أن السيادة في الإسلام للشريعة كثيرة جداً، منها قول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء: ٥٩]، قال ابن القيم – رحمه الله تعالى: فأمرَ الله بطاعته وطاعة رسوله، وأعاد الفعل إعلاماً بأن طاعة الرسول تجب استقلالاً من غير عرض ما أمر به على الكتاب، بل إذا أمر وجبت طاعته مطلقاً، سواء كان ما أمر به في الكتاب أو لم يكن فيه؛ فإنه أوتي الكتاب ومثله معه، ولم يأمر بطاعة أولي الأمر استقلالاً، بل حذف الفعل وجعل طاعتهم في ضمن طاعة الرسول؛ إيذاناً بأنهم إنما يطاعون تبعاً لطاعة الرسول، فمن أمر منهم بطاعة الرسول وجبت طاعته، ومن أمر بخلاف ما جاء به الرسول فلا سمع له ولا طاعة[4].

وقال الله تعالى: ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ [النساء: ٦٥]، وقال أيضاً: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ

(٣) تفسير البغوي: ٥/ ٣٥٣.
(٤) إعلام الموقعين: ١/ ٤٨.

الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].. وفي ذم تشريع غيره واتخاذه قانوناً قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، قال السعدي - رحمه الله تعالى: فلا ثَمَّ إلا حكم الله ورسوله أو حكم الجاهلية، فمن أعرض عن الأول ابتلي بالثاني المبني على الجهل والظلم والغي؛ ولهذا أضافه الله للجاهلية. وأما حكم الله تعالى فمبني على العلم والعدل والقسط والنور والهدى[1].

وقال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، نقل المفسرون عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: «أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: يا عدي، اطرح هذا الوثن من عنقك، قال: فطرحته، وانتهيت إليه وهو يقرأ في سورة براءة، فقرأ هذه الآية: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، قال قلت: يا رسول الله، إنا لسنا نعبدهم! فقال: أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟ قال: قلت: بلى! قال: فتلك عبادتهم»[2]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨].

والحقيقة أن موضوع السيادة في الإسلام كان محل تجاذب بين المفكرين المسلمين وفقهاء القانون الوضعي؛ بسبب تأثر كثير منهم بمفهوم السيادة في الغرب ومحاولة تنزيله على شريعة الإسلام[3]، ذلك أن الغرب كان يعمل بنظرية التفويض الإلهي، ومفادها: أن الحاكم يستمد سلطته مباشرة من الله، ويشرِّع للناس قوانينهم وأنظمتهم، وعلى الناس طاعته طاعة مطلقة، وكان هذا الفكر هو الشائع في الغرب قبل الثورة الفرنسية، ثم في الثورة الفرنسية وما أعقبها من ثورات جاءت نظرية العقد الاجتماعي التي تم بموجبها نقل السيادة من الحاكم الذي يدَّعي أنه مفوض من الله تعالى إلى مجموع الأمة في الفكر الديمقراطي الرأسمالي، فنُقلت السيادة من فرد وهو الحاكم إلى مجموعة أفراد وهم الشعب فيما يسمى العملية الديمقراطية[4].

ولم يجترئ أرباب المدرسة العقلية العصرانية من قبل على انتهاك سياج الشريعة لصالح الديمقراطية الغربية ونقل السيادة منها إلى الشعب، إلا ما كان من المتأخرين منهم، ثم من القانونيين الذين يجهلون الشريعة، ثم عمت هذه اللوثة كثيراً من الكتَّاب والمفكرين والصحفيين بسبب علو الغرب واستكباره وفرض قيمه على الأمم بالدعاية الإعلامية الخادعة، وبالضغوط السياسية والاقتصادية، وبالقوة العسكرية إن لزم الأمر، كما في مشروع فرض الديمقراطية في العراق وأفغانستان بالاحتلال والقتل..

وهذا التباين في هذا الأصل الكبير له نتائج كثيرة أخطرها اثنتان:

١

أنه في النظام الديمقراطي تختار الأمة من يحكمها ومن يمثلها في المجالس التشريعية والتنفيذية، بغض النظر عن دينه أو عدالته أو أهليته، فمن الممكن أن يحكم الكافر والمرأة والفاسق ما دام أنه حصد أكثر الأصوات، وتؤثر الدعاية ورجال المال والإعلام في تسيير عملية الترشيح لمصلحتهم، وهذا باطل في الإسلام؛ إذ إن لمن يتولى الولاية العظمى أو ما دونها شروط لا بد من توافرها، جاءت بها الشريعة، ورضا الأمة عمن يحكمها أو يمثلها في المجالس الشورية والتنفيذية يكون تالياً لما جاء في الشريعة، إذ لا يجوز أصلاً ترشيح من لا تتوافر فيه الشروط الشرعية ولو رضيه أكثر الناس، فضلاً عن انتخابه أو تنصيبه وتوليته.

٢

أن المجالس التشريعية التي انتخبتها الأمة لها الحق في التشريع للناس من دون الله تعالى، بمعنى أن الواجبات والمحرمات تخضع لعملية التصويت: فالواجب والمشروع قد يمنع الإنسان منه ويعاقب عليه إذا فعله، كما لو صوتت الأغلبية بمنع الحجاب للمرأة، وحظر التعدد في الزواج، ورتبت عقوبات على ذلك؛ صار ممنوعاً قانوناً، ويعاقب فاعله، مع أن الشريعة شرعته أو أوجبته.. وفي المحرم قد يباح الخمر والزنا وعمل قوم لوط وغير ذلك إذا كانت الأغلبية تؤيد حله، وتنتقل من كونها محرمات تقام الحدود على من يفعلها إلى مباحات يحمي القانون فاعليها، وترعاها الدولة.

(١) تفسير السعدي: ٢٣٥.
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره: ١٤/ ٢١٠، وابن أبي حاتم في تفسيره: ٦/ ١٧٨٤.
(٣) ينظر: الحريات العامة في الفكر والنظام السياسي في الإسلام، ص: ٢٠٧-٢٠٨، د.عبد الحكيم حسن العيلي، دار الفكر العربي، ١٤٠٣هـ.
(٤) ينظر: النظرية السياسية في الإسلام: ٧٠-٧١.

وهذا في الواقع يهدم الشـــريعة من أركانها، ويحول الناس من عبوديتهم لله تعالى إلى عبودية أهوائهم وشـــهواتهم، والله تعالى يقـــول: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَـوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، ونهى ســـبحانه عن اتبـــاع الهوى في آيات كثيـــرة فقال ﴿فَـلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى﴾ [النســـاء: ١٣٥]، وقال: ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّـاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَـوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَـبِيلِ اللَّـهِ﴾ [ص: ٢٦]، فالحق هو ما جاء به الإســـلام لا من اختارته أغلبية الناس، بـــل إن الله تعالى نهى عن طاعة أهل الهوى؛ لأنهم ســـبب في ضلال الناس وهلاكهم وصدهم عن دين الله، فقال ســـبحانه ﴿وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال أيضاً: ﴿فَلا يَصُدَّنَّـكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ [طه: ١٦]، وبيَّن أن أهـــل الأهواء هم أضل الناس فقال تعالى: ﴿وَمَـنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

ومع الأسف، فإن بعض المفكرين المسلمين انزلقوا في هذه الهوة فزعموا أن الســـيادة للأمة على غـــرار ما أوجبه النظام الديمقراطي، مستدلين بالآيات التي يتوجه فيها الخطاب للأمة نحو: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا﴾، و﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، باعتبار أن الأمة هي المتلقية للأوامر الربانية المنفذة لها، وهذا غلط فاحش يدل على عدم فهم فكرة الســـيادة في الفكر الديمقراطي، كما يدل على عدم التفريق بين مشرِّع القانون ومنفِّذه.

فالســـيادة في الفكـــر الديمقراطي هي الســـلطة الدائمة المطلقة، وصاحب الســـيادة هو من يملك قـــدرة تحديد فكرة القانون الصحيحة في الجماعة، وقد يكون شخصاً كالملك، وقد يكون طبقة كما في النظم الأرستقراطية، وقد يكون الأمة كلها كما في الديمقراطية.. والســـيادة لا تقبـــل التنازل عنها، لكن ممارستها يمكن أن تعهد بها الأمة إلى فرد أو مجموعة أفراد، كمـــا أنها لا تقبل التقييد، فهي إمـــا أن توجد كاملة دون قيد، وإما أن لا توجد، وليس هناك أمر وســـط بين الحالتين، وتقييد السيادة يعني هدمها[1].

وفي الفكر الديمقراطي مصدر التشريع ومنفذه كلهم بشر، أما في الإسلام فمصدر التشريع الكتاب والسنة، والحاكم منفذ للشريعة، والأمة رقيبة عليه في تنفيذها؛ ولذا لو بدلها أو حاد عنها وجب رده إليها، أو عزله عن إمامة المسلمين.

وفي جواب للدكتور يوسف القرضاوي عن أدلة من رفضوا الديمقراطية بأنها حكم الشـــعب للشعب، والحاكمية إنما يجب

(١) الحريات العامة في الفكر والنظام السياسي في الإسلام: ٢٠٢-٢٠٣.

أن تكون لله تعالى، قال القرضاوي: هو قول غير مســـلَّم، فليس يلزم من المناداة بالديمقراطية رفض حاكمية الله للبشر، فأكثر الذين ينـــادون بالديمقراطية لا يخطر هذا ببالهم، وإنما الذي يعنونه ويحرصون عليه هو رفض الدكتاتورية المتسلطة، ورفض حكم المستبدين بأمر الشعوب من سلاطين الجور والجبروت... إلى أن قال: والمســـلم الذي يدعو إلى الديمقراطية إنما يدعو إليها باعتبارها شـــكلاً للحكم يجسد مبادئ الإسلام السياسية في اختيار الحاكم، وإقرار الشورى والنصيحة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومقاومة الجور، ورفض المعصية، وخصوصاً إذا وصلت إلى كفر بواح فيه من الله برهان[2].

وقال القرضاوي: ويمكن إضافة مادة في الدستور صريحة واضحة: إن كل قانون أو نظام يخالف قطعيات الشرع فهو باطل وهو في الواقع تأكيد لا تأسيس[3].

قلـــت: هذا جواب لا إقناع فيـــه؛ إذ إن الديمقراطية نظام للحكم يقوم على منح الســـيادة للأمـــة أو لممثلين عنها، وهذا ركنها الأســـاس، فســـلبها هذا الركن - وهو ســـيادة الشعب - يخرجها عن كونها ديمقراطية إلى شيء آخر، ودعوى أن المسلم الذي ينادي بالديمقراطية لا يخطر بباله تحويل سلب الشريعة سيادتها - على فرض التسليم به - هو بسبب أن بعض المفكرين المســـلمين حشروها في الإسلام، واســـتدلوا لها بأدلة شرعية، فانطلـــى ذلك على من يقول بها وهو لا يعلم حقيقتها من عامة الناس، فظنوا أنها من الإسلام بسبب التلبيس عليهم.

وأمـــا مقترح إضافة مادة في الدســـتور مفادها: أن كل ما يخالف قطعيات الشـــرع فهو باطـــل؛ كلام غير صحيح عملياً، وعليه مأخذان:

(٢) من فقه الدولة في الإسلام، ص: ١٣٩، د. يوسف القرضاوي، دار الشروق، القاهرة، ١٤١٧هـ، الطبعة الأولى.
(٣) المصدر السابق: ١٤١.

المأخـــذ الأول: أن هـــذا ينافي الديمقراطيـــة أصلاً، فإذا حولت الســـيادة من الشـــعب أو من يمثله إلى الشريعة انتفت الديمقراطية.

المأخذ الثاني: أن الاقتصـــار على القطعيات معناه انتهاك حرمة الشـــرع في غيرهـــا، والقطعيات قليلة في الشـــريعة، وأكثرهـــا على غلبة الظن، والعمل بـــه واجب؛ لأنه يفيد العلم، وفي تفســـير قوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٠] قال جمع من المفسرين: وإنما أجري الظن مجرى العلم لأن الظـــن الغالب يقام مقام العلم في العـــادات والأحكام[١]. وقال التاج الســـبكي - رحمه الله تعالى: فـــكلٌّ من القطعي والظني يُحتج به[٢]. فاقتصار الشيخ القرضاوي على استثناء القطعيات فقط فيه إخراج لظنيات الشريعة وهي الأكثر.

فتبيَّن بذلك أن اعتماد الديمقراطية نظاماً للحكم، والرضا بهـــا، فيه تجويز لتعطيل أحكام الإســـلام كلها أو بعضها، فهذا يلزم من قال بالديمقراطيـــة، وإن حاول بعضهم التخلص منه، كالشـــيخ القرضاوي، الذي قال للخروج من هذا المأزق: لا يلزم إذن مـــن الدعوة إلى الديمقراطية اعتبار حكم الشـــعب بديلاً عـــن حكم اللـــه؛ إذ لا تناقض بينهما، ولـــو كان ذلك لازماً من لوازم الديمقراطية فالقـــول الصحيح لدى المحققين من علماء الإســـلام أن لازم المذهب ليس بمذهب، وأنه لا يجوز أن يكفر الناس أو يفســـقوا أخذاً لهم بلوازم مذاهبهم، فقد لا يلتزمون بهـــذه اللوازم، بل قد لا يفكرون فيها بالمـــرة. اهـ[٣]. والحقيقة أن اســـتدلاله بقاعدة (لازم المذهب ليـــس بمذهب) بعدم لزوم لوازم الديمقراطية لمن يقول بها؛ غريب جداً؛ لأن العلماء حينما قرروا هذه القاعدة أرادوا الاعتـــذار لمن جهل لوازم مذهبه أو قوله التي قد تكون كفراً وهو يجهل ذلك، فعذروه بالجهل، لكنهم لم يصححوا المذهب الـــذي لازمه خطأ حتى يحتج القرضاوي بقاعدتهـــم على أن ما في الديمقراطية مما يناقض الإســـلام لا يلـــزم القائلـــين بالديمقراطية من المســـلمين، وهي زلة في الاستدلال تُستكثر على مثله.

قال الشـــاطبي - رحمه الله تعالـــى: ولازم المذهب هل هو مذهب أم لا؟ مسألة مختلف فيها بين أهل الأصول، والذي كان يقول به شيوخنا البجائيون والمغربيون ويرون أنه رأي المحققين

(١) الكشاف: ٤/ ٨٩، والتفسير الكبير: ٣٠/ ٩٩، وتفسير النسفي: ٤/ ٢٧٥، وتفسير الخازن: ٧/ ١٤٥.
(٢) رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب: ٢/ ٢٠٧.
(٣) من فقه الدولة في الإسلام: ١٤١.

أيضـــاً، أن لازم المذهـــب ليس بمذهب؛ فلذلـــك إذا قُرر على الخصم أنكره غاية الإنكار[٤].

فقوله: إذا قرر على الخصم أنكره غاية الإنكار يدل على أنه لا يقر بما هو لازم مذهبه جهلا منه بذلك.

أما القائلـــون بالديمقراطية فإنهم يعلمـــون لوازمها التي تناقض الشـــريعة ولا يجهلونها في الغالـــب، لكنهم يقولون: لا تلزمنا لوازمها، فنقضوها من حيث أقروا بها، وهذا تناقض.

ومن يجهل لوازم الديمقراطية مما هو مناقض للإســـلام، فإنـــه يُعذَر بجهلـــه، لكن لا يصحح قوله، والشـــيخ القرضاوي يستدل بهذه القاعدة على تصحيح قوله، وهذا باطل.

ويجلي شـــيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - هذا المعنى بقوله: فلازم قول الإنسان نوعان:

أحدهما: لازم قوله الحق؛ فهذا مما يجب عليه أن يلتزمه، فإن لازم الحق حق، ويجوز أن يضاف إليه إذا علم من حاله أنه لا يمتنع مـــن التزامه بعد ظهوره، وكثير مما يضيفه الناس إلى مذهب الأئمة من هذا الباب.

والثانـــي: لازم قوله الذي ليس بحق، فهذا لا يجب التزامه؛ إذ أكثر ما فيه أنه قد تناقض... ثم إن عرف من حاله أنه يلتزمه بعد ظهوره لـــه فقد يضاف إليه، وإلا فلا يجوز أن يضاف إليه قول لو ظهر له فساده لم يلتزمه؛ كونه قد قال ما يلزمه وهو لم يشعر بفساد ذلك القول[٥].

(٤) الاعتصام: ٢/ ٦٤، وينظر: الفروق: ٤/ ٣٥٧.
(٥) القواعد النورانية: ١٢٨.

الأصل الرابع: أن أساس الاختيار في النظم الديمقراطية يعتمد على الأكثرية، فمن حصد أصواتاً أكثر رُشِّح لما تم التصويت عليه، بغض النظر عن أهليته، بينما كان أساس الاختيار في الإسلام هو الأصلح.

والأكثرية ليست ميزاناً صحيحاً حتى يعتمد عليه، وقد جاءت الأكثرية في القرآن محل ذم في كثير من الآيات، قال تعالى: ﴿ **وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ** ﴾ [**الأنعام** : ١١٦]، وقال أيضاً: ﴿ **وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ** ﴾ [**يوسف** : ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ** ﴾ [**البقرة** : ٢٤٣]، وقال: ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [**الأعراف** : ١٨٧].

والسبب هو ميل العامة إلى ما تهواه أنفسهم، وفي النظم الديمقراطية يجتهد السياسيون ومن وراءهم من رجال المال والأعمال والإعلام في صياغة الرأي العام وتشكيله بحسب ما يحقق مصالح المتنفذين، فلا يساق العامة في التصويت للأصلح، بل يساقون إلى من يخدم الرأسماليين والإعلاميين، وفي التصويت للرئيس الأمريكي أوباما صوت له كثير من النساء والفتيات؛ لأنه وسيم وجذاب!!

وفي ظل هذا النظام في الانتخاب ينتشر الكذب والفضائح ومحاولة الإيقاع بين المتنافسين على الاقتراع، فبعضهم يكيد لبعض، بينما في النظام الإسلامي يكون الاختيار للأتقى لله والأصلح للناس، ودليل ذلك حديث أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: إذا ضُيِّعَتْ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرْ السَّاعَةَ، قال: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قال: إذا وُسِّدَ الْأَمْرُ إلى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرْ السَّاعَةَ[1].. قال ابن الجوزي – رحمه الله تعالى: أي أسندت الإمارة والولاية[2].

وقال عمر رضي الله عنه: من ولي من أمر المسلمين شيئاً فولى رجلاً لمودة أو قرابة بينهما فقد خان الله ورسوله والمسلمين[3].

هذا فيما يتعلق بالترشيح والاختيار، أما ما يتعلق بالدستور والتشريع؛ فإن الأكثرية قد تختار إسقاط واجب أو إباحة محرم لغلبة الهوى، أو انتشار الجهل، وحينئذ يقر ما يخالف الشريعة الربانية، وتنتهك سيادتها باختيار الأكثرية.

(١) أخرجه البخاري، رقم (٥٩).
(٢) غريب الحديث: ٢/٤٦٧.
(٣) حسن السلوك الحافظ دولة الملوك: ٨٢.

وقد أجاب الشيخ القرضاوي عن رفض الديمقراطية بسبب اعتمادها على رأي الأكثرية، مع أن الأكثرية مذمومة في القرآن، فقال: وهذا الكلام مردود على قائله، وهو قائم على الغلط أو المغالطة؛ فالمفروض أننا نتحدث عن الديمقراطية في مجتمع مسلم أكثره ممن يعلمون ويعقلون ويؤمنون ويشكرون، ولسنا نتحدث عن مجتمع الجاحدين أو الضالين عن سبيل الله، ثم إن هناك أموراً لا تدخل مجال التصويت ولا تعرض لأخذ الأصوات عليها؛ لأنها من الثوابت التي لا تقبل التغيير إلا إذا تغير المجتمع ذاته ولم يعد مسلماً، فلا مجال للتصويت في قطعيات الشرع وأساسيات الدين وما علم منه بالضرورة، وإنما يكون التصويت في الأمور الاجتهادية التي تحتمل أكثر من رأي ومن شأن الناس أن يختلفوا فيها[4].

والحقيقة أن جوابه هذا ينطوي على مغالطتين:

الأولى: أن الموافقة على عقد يصوت فيه على الشريعة هي موافقة على انتهاكها ولو لم يقع ذلك الانتهاك، والذي يبيح الزنا أو الربا أو الخمر ولو لم يفعلها أشد إثماً ممن فعلها وهو يقول بتحريمها، فإذا وافق المسلمون على عقد الديمقراطية لزمهم الموافقة على مقتضى العقد، ومقتضاه أن الشريعة خاضعة لتصويت الجمهور.

الثانية: أن ادعاء كون العملية الديمقراطية تتم في مجتمع مسلم يعلمون ويعقلون ويشكرون، دعوى باطلة من جهات عدة:

أ – ففي بعض بلاد المسلمين، بل في أكثرها، طوائف من غير المسلمين، سواء كانوا كتابيين أم باطنيين، وفيهم أيضا عَلمانيون ويساريون، فإذا شكلوا تحالفات بينهم مع أهل الأهواء من المسلمين كانوا أكثرية تؤثر في مجرى التصويت ضد الشريعة أو شيء منها.

ب – أن أكثر المسلمين من العامة الذين تؤثر فيهم الدعاية المضللة، وما على من أرادوا إسقاط واجب أو إباحة محرم إلا شراء مشايخ ممن يشترون بعَهد الله تعالى وأيمانهم ثمناً قليلاً ليبيحوا لهم ما أرادوا، مع بث دعايات مغرضة ضد أهل الحق؛ ليتحول الرأي العام إلى رأي من يحركونه.

ج – أن كثيراً من المسلمين ينساقون خلف شهواتهم وأهوائهم فيصوتون لإباحة محرم بدافع الشهوة والهوى.

(٤) من فقه الدولة في الإسلام: ١٤٢.

الربيع المصري.. طاهر أم طهور؟

أحمـــــد فـهـمـي
afahmee@hotmail.com
@ahmdfahmee

أثبتت التجارب الثورية في مختلف بقاع العالم أن الثورات التي تعجز عن ممارسة التطهير هي ثورات فاشلة تتلاشى آثارها سريعاً بالتزامن مع إعادة بناء النظام القديم، وهذا يعني أن التطهير ليس ممارسة انتقامية أو ترفاً ثورياً، بل هو ضرورة لازمة لنجاح الثورة، بل هو الثورة نفسها، وإنما يأتي الخلل عندما تسود القناعة لدى الثوار – وبالتبعية لدى جموع الشعب – بأن العمل الثوري ينتهي مع سقوط رأس النظام، وهنا فكرة لا بد من توضيحها.

الأصل أن الحاكم يستمدُّ سلطته في الأنظمة الوضعية من الشعب، لكن عندما يتحول الحاكم إلى ديكتاتور، فإنه يستمدُّ سلطته من النخبة الفاسدة التي تحيط به وتدعمه وتتولى نيابة عنه وبناءً على أوامره قمع الشعب وإجباره على الإذعان.

فعندما تندلع الثورة فإنها تستهدف أولاً رأس النظام الذي يملك السلطة، بينما يتغافل الثوار عن النخبة الفاسدة التي هي مصدر السلطة، ومن ثم عندما يسقط من يملك السلطة يبقى مصدر السلطة قائماً.

وهنا يختلف سيناريو ما بعد سقوط رأس النظام من ثورة إلى أخرى، ويمكن ملاحظة ٣ اتجاهات رئيسة:

- يستخدم الثوار الشرعية الثورية التي تلغي تماماً أي سلطة للنخبة القديمة.

- يكتفي الثوار بإزاحة رؤوس النخبة القديمة، بينما يبقى جسدها - المتغلغل في بنية النظام - تحت قيادة الصف الثاني.

- يكتفي الثوار بإزاحة الديكتاتور، بينما تبقى النخبة القديمة متماسكة صلبة مسيطرة.

في الحالة الأولى تتلاشى النخبة كمصدر للسلطة، وتعود الأمور إلى نصابها الأول، ليصبح الشعب مصدر السلطات.

في الحالة الثانية تتمكَّن بقايا النخبة المسيطرة على مفاصل النظام من تجميع نفسها، لتتحول مع الوقت إلى مصدر جزئي للسلطة وَفق مفهوم الأمر الواقع.

في الحالة الثالثة تبقى النخبة هي المصدر الرئيس للسلطة.

إذن المسار الصحيح لأي ثورة لا بد أن يتركب من ثلاث مراحل لإتمام عملية التحول السياسي بصورة ناجحة:

١ - مرحلة انهيار رؤوس النظام القديم.

٢ - المرحلة الانتقالية التي يتم فيها تطهير النظام من البقايا وإعادة بناء النظام وتطوير المجتمع.

٣ - مرحلة رسوخ النظام، وذلك عندما تكتمل عمليات التطهير، والبناء، والتغيير.

الربيع المصري..

عنوان المقال مقتبسٌ من التعريفات الفقهية للماء، فالماء الذي يجوز استخدامه إما أن يكون طاهراً أو طهوراً..

فالماء الطاهر: طاهر في نفسه ليس مطهراً لغيره.

والماء الطهور: طاهر في نفسه مطهر لغيره.

لو أسقطنا هذا التعريف - مجازاً - على الثورات، يمكن القول إنها تنقسم إلى قسمين: ثورة طاهرة، وطهور.

فالثورة الطاهرة: هي التي تعجز عن تطهير النظام السياسي من النخبة الفاسدة القديمة.

الثورة الطهور: هي القادرة على تطهير النظام السياسي من النخبة الفاسدة القديمة.

إذن، ماذا بشأن الثورة المصرية.. هل هي طاهرة أم طهور؟

يمكن تقسيم مرحلة ما بعد ثورة يناير إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: يمتد من ١١ فبراير ٢٠١١م إلى ٢٣ يناير ٢٠١٢م تاريخ عقد أول جلسة لمجلس الشعب.

في هذه المرحلة تولى المجلس العسكري بصفة أساسية إدارة المشهد السياسي في ظل امتلاكه سلطات وصلاحيات مطلقة، وهنا اتبع العسكري السيناريو رقم ٢، أي الاكتفاء بإزاحة بعض رؤوس النخبة مع الإبقاء التام على جسدها دون أي تغيير، بل يمكن القول إن هدف تمكين النخبة القديمة من مفاصل النظام كان واضحاً بشدة في قرارات العزل والتعيين الصادرة عن العسكري في تلك الفترة.

القسم الثاني: يمتد من ٢٣ يناير ٢٠١٢م إلى ١٤ يونيو ٢٠١٢م تاريخ حل مجلس الشعب.

في هذه المرحلة كان متوقعاً أن يبدأ البرلمان دعم سياسة التطهير واتخاذ ما يلزم لهدم مراكز نفوذ النخبة القديمة، لكن ما حدث أن البرلمان اكتفى بإثارة هذه القضايا في بداية جلساته، ثم تراجع عن اتخاذ خطوات جدية مؤثرة، وحتى قانون العزل لرموز النظام القديم فقد صدر عن المجلس في سياق رد الفعل على إشكالات الترشح للرئاسة، ولذلك فقد صدر القانون دون إجماع حقيقي أو إحكام في صياغته، وهو ما ترتب عليه إصدار المحكمة الدستورية حكماً بعدم دستوريته.

باءت جميع محاولات البرلمان لسحب الثقة من حكومة الجنزوري بالفشل التام.

القسم الثالث: يمتد من ٣٠ يونيو تاريخ تسلم الرئيس د. محمد مرسي مهام منصبه بصفة رسمية.

لم ينقضِ على فترة الرئاسة حتى تاريخ كتابة هذا المقال إلا أيام قليلة، وهي غير كافية للحكم على مدى اتّباع الرئيس سياسات تطهير فاعلة في المرحلة القادمة، لكن المؤشرات التي رشحت عن تلك الفترة لا توحي بالاطمئنان، وعبَّر كثير من المراقبين عن قلقهم من إصرار الرئيس على استخدام خطاب المصالحة أكثر من اللازم، كذلك تكريمه في إجراء روتيني قضاة اعتبروا من رموز النظام السابق، مثل: عبد المعز إبراهيم رئيس لجنة انتخابات مجلس الشعب وعضو لجنة الانتخابات الرئاسية، وكذلك رئيسها المستشار فاروق سلطان، وهو أيضا رئيس المحكمة الدستورية، وكانت مناسبة التكريم بلوغهما سن التقاعد.

أيضاً عبَّر الرئيس في لقاء له مع وزير الداخلية عن رفضه مصطلح «التطهير»، رغم اتفاق القوى الوطنية على أن وزارة الداخلية من أهم المؤسسات التي تفتقر إلى التطهير بالفعل، بل إن حزب الحرية والعدالة – وكان د. مرسي رئيسه – أعلن في بداية الدورة البرلمانية السابقة عن مشروع شامل لإعادة هيكلة وزارة الداخلية، لكنه لم يرَ النور.

إذن يبقى الموقف من تفعيل سياسات التطهير غامضاً حتى الآن، خاصة في ظل الضغوط التي تمارسها النخب القديمة على الأصعدة كافة، الإعلامية والسياسية.

التطهير عنوان المرحلة

خلاصة ما يحدث في مصر حالياً أن هناك نخبة قديمة لا تريد أن تترك الحكم، ونخبة أخرى جديدة تسعى إلى استلام الحكم.

يعني هو صراع بين التطهير والبقاء، هذا الصراع في حد ذاته مضمون عملية التحول السياسي التي هي في التعريف الاصطلاحي «عملية تغير بين النظم»، وهذا التغير يجب أن يشمل ثلاثة أبعاد رئيسية في النظام، هي: البُعد الثقافي، والبُعد الهيكلي، والسياسات.

أي قصور في تنفيذ التغيّرات بأبعادها الثلاثة يعني قصوراً في التحول وبقاء النظام القديم على ما هو عليه، أو خروج نظام مشوَّه إلى العلن ممتلئ بالتناقضات، إذن هو مرة أخرى صراع بين التطهير والبقاء.

ويمكن من خلال الملاحظة الدقيقة لأداء القوى الفلولية في الأسابيع الماضية بالتزامن مع انتخابات الرئاسة؛ تلمس ٣ استراتيجيات متَّبعة لتحقيق هدف البقاء في منظومة الحكم، وهي:

أولاً: الحرب الإعلامية الشاملة

الجديد في هذه الحرب أنها أصبحت شاملة لكل المجالات، فهي موجهة للإخوان والسلفيين معاً، وهي تتعلق بالأداء السياسي والديني، وهي تشمل الفضائيات الخاصة والحكومية والصحف الورقية والمواقع الإخبارية، وهي من دون خطوط حمراء، فالرئيس نفسه يتعرض لأبشع الاتهامات التي لا أساس لها من الصحة، مع قدرة هائلة على اختلاق الأكاذيب بدرجة غير مسبوقة، حتى في عهد مبارك، وهي كذلك شاملة من حيث تضافر جهات أمنية وإعلامية وسياسية على دعم هذه الحرب وإدارتها.

ثانياً: اتهام الإخوان بالسعي للسيطرة على الدولة

التناقض الواضح في المشهد هو أن الإخوان تقريباً دون صلاحيات، حتى الرئيس مرسي اضطر للاستقالة من رئاسة الحزب، بل يطالبه بعضهم بالاستقالة من عضويته أيضاً، وهو يشكو من تقلص صلاحياته كثيراً، كما أن البرلمان في حكم المنحل، ومجلس الشورى في طريقه، وقد تعهد حزب الحرية والعدالة بأنه لن يحصل على أغلبية في تشكيل الحكومة ولن يتولى رئاستها؛ ومع ذلك كله يُتهم الإخوان بالسعي إلى السيطرة أو كما يزعم بعضهم «أخونة الدولة».

وقد تأثرت فئات كثيرة من الشعب بهذه الأكاذيب التي يلحّ عليها الإعلام بتكرار ممل، حتى أصبح الكثيرون يقرنون دون وعي بين كلمة «الإخوان» وكلمات مثل: «السيطرة»، «عودة الحزب الوطني»، «التكويش»، و«الأخونة»... إلخ.

وهكذا أصبح الإخوان يتحركون سياسياً وكأنهم محاطون بسياج كهربائي من الجهات كافة، وهذا السياج ينكمش إلى الداخل مع مرور الوقت واشتداد الحملات الإعلامية، ومع الأسف تأثر بهذه الأفكار بعض الإسلاميين فأصبحوا يشاركون دون قصد في الترويج لها.

ثالثاً: دعاوى استقلال المؤسسات

هذا هو خط الدفاع الأخير للفلول، فقد بدأوا في الترويج لاستقلالية بعض المؤسسات ذات الطابع الخاص، مثل: الإعلام، القضاء، والأزهر.

وهذه الفكرة تتماشى ظاهرياً مع مفاهيم الدولة الحديثة وتوزيع السلطة، لكنها تهدف باطنياً إلى إبقاء سيطرتهم على تلك المؤسسات بعيداً عن التطهير، ومن ثم فإن دعوة الاستقلال لا يمكن قبولها أو طرحها إلا بعد بلوغ مرحلة رسوخ النظام، وما زلنا بعيدين تماماً عن هذه المرحلة، لذلك لا مجال للحديث عن استقلال مؤسسي في ظل سيطرة الفلول.

كيف يحدث التطهير؟

يوجد طريقان لتنفيذ سياسة تطهير فاعلة، الطريق الأول: مباشر، سريع الأثر، لكن يصعب استخدامه على نطاق واسع.

الطريق الثاني: بطيء نسبياً، لكن يمكن استخدامه على نطاق واسع.

الطريق الأول: استخدام صلاحية العزل والتعيين

وهي صلاحية مملوكة بالأساس لكل رئيس مؤسسة بدءاً من مؤسسة الرئاسة، فالرئيس يمكن أن يتخذ سلسلة قرارات عزل وتعيين يتخلص بها من أكبر عدد ممكن من رموز النظام القديم، مع استبدالهم بشخصيات وطنية مؤيدة للثورة.

الميزة الأساسية لهذه الطريقة أنها تؤثر مباشرة بإبعاد قيادي فاسد، كما تؤثر بصورة غير مباشرة في أقرانه ممَّن تعذر استبعادهم، فيمتنعون عن ممارساتهم السابقة تخوفاً من العزل، وبذلك يتمدد نطاق تأثيرها ليشمل عدداً أكبر من الخاضعين للعزل.

لكن يعيب هذه الطريقة العجز عن استخدامها ضد عدد كبير من القياديين، وذلك عندما تكون النخبة ممتدة ومتجذرة في بنية النظام، كما قد ينتج عنها ردود أفعال احتجاجية تتسبَّب في تعطل عمل المؤسسة وإثارة الرأي العام.

الطريق الثاني: إعادة هيكلة مؤسسات الدولة

التغيير الهيكلي يقصد به تنفيذ عملية إعادة تصميم وترتيب مؤسسات الدولة والعلاقات بينها، ونطاق صلاحياتها، وآلية اتخاذ القرارات، وكيفية تفويض السلطة داخل المؤسسة، ومستوى المركزية واللامركزية في اتخاذ القرار؛ على أن يتم كل ذلك بما يتوافق مع الرؤية الجديدة ويتضاد تماماً مع الرؤية السابقة التي تقوم على النزعة الشمولية وتحور مؤسسات الدولة لخدمة شخص الحاكم أو النخبة المحيطة به.

هذا التغيير المؤسسي لا بد أن يشمل ثلاثة أنواع من المؤسسات: مؤسسات مستمرة من النظام القديم، ومؤسسات مستحدثة بالكامل، ومؤسسات معدَّلة.

المؤسسات القديمة عادة ما تكون تلك المرتبطة بالإدارة اليومية لشؤون الدولة، وإن تغيَّرت بعض المضامين أو الأسماء المرتبطة بفلسفة عملها القديمة، مثل المؤسسة التعليمية.

أما المؤسسات المعدَّلة، فهي مؤسسات موروثة من النظام القديم لكن تتعرض لتعديلات، إما من حيث الوظائف المنوطة بها أو حدودها، وإما من حيث عضويتها أو من حيث انتشارها، مثل مؤسسات الجيش والشرطة والقضاء، وهذه التعديلات من شأنها أن تقلص قدرة الفلول على التحكم والسيطرة، وتسمح للنظام الجديد بفرض إرادته.

وهناك مؤسسات مستحدثة بالكامل، وهي التي ينشئها النظام الجديد بغرض تثبيت دعائم حكمه ونشر فلسفته التي يفترض أنها تدعم عملية التحول، مثل إنشاء هيئة لمكافحة الفساد.

كما يمكن للنظام الجديد أن ينشئ مؤسسات موازية لمؤسسات قائمة، لكنها خارجة عن نطاق التطهير، مثل: إنشاء مؤسسة للرقابة الإدارية موازية للمؤسسات القديمة، أو مؤسسات صحفية جديدة تتبنى فكر النظام الجديد وتعادل تلك المؤسسات المستعصية على التغيير.

من المعتاد في حالتي «المؤسسات القديمة، والمعدَّلة» أن تكون هناك صعوبات كثيرة في طريق التغيير، فمنظومة القيم التي تطرحها الثورة الباعثة على التحول تتعارض أو تتناقض جزئياً أو كلياً مع القيم وأساليب العمل التي تبنّاها النظام القديم، ومع احتمال تعرض قيادات هذه المؤسسات للملاحقة القضائية بسبب الفساد، فإن أداءهم يتسم عادة بالسعي لعرقلة عملية التحول، كما أنه في كثير من الأحيان تكون قدراتهم الثقافية والتعليمية ذات مستوى متواضع نتيجة عدم اعتماد النظام السابق مبدأ الكفاءة في اختيار شاغلي المناصب العليا في الدولة.

الخلاصة..

يمكن القول إن المكاسب السياسية التي تتحقق إثر النجاح الأولي للثورة، هي مكاسب معلقة، مؤقتة، لا يمكن لها أن تصبح ثابتة وراسخة إلا بعد إتمام عملية التطهير، فإذا تعرقل التطهير، أو تأخر، فإن الثورة تعود إلى الخلف، والمكاسب تتآكل، وتعود القوى الثورية إلى المربع الأول..

لا يوجد حل وسط هنا، فهو صراع على القوة بين نظامين، قديم وجديد، والنظام الجديد يبدو الإسلاميون في قمته، وهذا يعني توفر أسباب إضافية لإبعاد الثورة وتقليص مكاسبها، وهذا يعني كذلك أنه لا بديل أمام الإسلاميين عن اتباع سياسة تطهير فاعلة للنخبة القديمة..

إنه صراع صفري بامتياز، وفي هذا النوع من الصراعات لا يصلح الاستغراق في مواقف ملتبسة وقرارات غامضة، كما لا يصلح تشتيت الرأي العام بتصريحات وأقوال تخلط بين العدو والصديق، بين الخصم والرفيق..

يجب أن يتحوّل الربيع المصري من كونه طاهراً في نفسه، إلى مطهر لغيره من بقايا النظام السابق.

عَلمانيةُ ما قبل الأسلمة!

فهد بن صالح العجلان
Fsalehajlan@gmail.com
@alajlan_f

يُعدُّ كتاب (الإسلام وأصول الحكم) أولَ دراسة شرعية تؤسِّس للفكرة العَلمانية داخل الوسط الإسلامي، وقد نشره الشيخ القاضي علي عبد الرازق عام ١٩٢٥م بعد عامٍ من القضاء رسمياً على مسمى الخلافة العثمانية، أحدث به معركة ثقافية وسياسية ضخمة.

تقوم فكرة الكتاب المركزية على تفسير (الدين الإسلامي) بما يتفق مع التصور الغربي للدين، فرسالة النبي ﷺ ما هي إلا رسالة روحية ليس فيها إلا البلاغ لوجود (آيات متظافرة على أن عمله السماوي لم يتجاوز حدود البلاغ المجرد من كل معاني السلطان)[١].

فهي رسالة لا تتضمن سلطة حكم، حيث كان النبي ﷺ: (رسولاً لدعوة دينية خالصة للدين لا تشوبها نزعة ملك ولا دعوة لدولة)[٢]، وإنما أحدث ذلك المسلمون من بعده، وكانت الحكومة التي أقامها الصحابة من بعده حكومة دنيوية ليست من أحكام الإسلام[٣].

شذوذ هذا الرأي ونكارته أحدثا ردة فعلٍ صارمة شديدة ضده، فأصدرت هيئة كبار العلماء في مصر بتوقيع (٢٤) عالماً، بياناً ذكروا فيه أخطاء الكتاب البارزة، وحصروها في ٧ مخالفات ظاهرة[٤]، ثم توالت الردود العلمية، فكتب الشيخ محمد الخضر حسين: (نقض الإسلام وأصول الحكم)، وكتب الطاهر بن عاشور: (نقد علمي لكتاب الإسلام وأصول الحكم)، وألَّف محمد بخيت المطيعي رسالته: (حقيقة الإسلام وأصول الحكم)، وأرَّخ الدكتور محمد ضياء الدين الريس للتفاصيل السياسية المتعلقة بصدور الكتاب في رسالته: (الإسلام

(١) الإسلام وأصول الحكم، ص ٨٧.
(٢) الإسلام وأصول الحكم، ص ٨٢.
(٣) انظر: الإسلام وأصول الحكم، ص ١٠٥.
(٤) هذه الأخطاء هي: جعله الإسلام رسالة روحية لا علاقة لها بالحاكم وأمور الدنيا، ومهمة الرسول مهمة بلاغ مجردة عن الحكم والتنفيذ، وأن الدين لا يمنع أن جهاد الرسول ﷺ كان لأجل الملك، وأن نظام الحكم في عهد الرسول كان موضع غموض، وإنكار أن القضاء وظيفة شرعية، وإنكار إجماع الصحابة على وجوب نصب إمام للأمة، وأن حكومة أبي بكر كانت حكومة لا دينية.. انظر: حكم هيئة كبار العلماء ٥ – ٦ من مطبوعات المكتبة السلفية.

والخلافة)؛ فكانت سبباً في سقوط الكتاب سقوطاً مريعاً في جانبه العلمي، وكشفت عن أخطائه وسوء تصوّراته، حتى أصبحت قيمة الكتاب في حدثه التاريخي وليس في القيمة العلمية الضعيفة والمتناقضة في تقريراته.

لم يتوقف الأمر عند هذا، بل أصبح مبحث الإسلام (دين ودولة) من المباحث المركزية في الفكر الإسلامي المعاصر، فتوالت الدراسات والبحوث المؤصلة لهذا المفهوم، والمجيبة عن جميع الإشكالات والشبهات التي يثيرها أصحاب الاتجاه العَلماني، وحدَّدت الدوافع لتبني مثل هذا التفسير العَلماني للإسلام، وشارك فيها أهل العلم من جميع التخصصات المختلفة.

عامة الدراسات المعاصرة التي تبحث الجانب السياسي في الإسلام في أي مجالٍ من مجالاته، كالدراسات عن النظام السياسي أو القانون الدستوري أو نظام الدولة أو الخلافة أو البيعة؛ لا بد أن تعرّج على رأي عبد الرازق بالنقض تفصيلاً، وتزيده نقضاً بحديثها المسهب عن جميع القضايا السياسية من منظور شرعي.

كان لهذه الجهود العلمية الحثيثة أثر ظاهر في كسر العمود الفقري للعَلمانية، وفي قطع الطريق عن أي أمل لمحاولة إنعاش هذه الفكرة، حتى أصبح كثير من العَلمانيين يتحاشى الانتساب لها، وصار اسم علي عبد الرازق مشوّهاً ومثيراً للنقد والامتعاض لما أحدثه من هذه السنة السيئة، بل إن بعض المفكرين الذين تأثروا بمدِّ العَلمانية سرعان ما عادوا وأعلنوا توبتهم كما فعل الشيخ خالد محمد خالد حين أسَّس للعَلمانية في رسالته الأولى (من هنا نبدأ) التي نشرها عام ١٩٥٠م، ثم عاد فنقضها في رسالته الأخيرة (الدولة في الإسلام) والتي قرر فيها أنه كان في تصوره لمفهوم الدين متأثراً بطبيعة الأنظمة المستبدة في أوروبا، وخاضعاً لتأثير ما كان يُنسب إلى بعض الإسلاميين من أخطاء، فأدى به ذلك لاعتناق العَلمانية.. يعترف بعدها أنه أخطأ حين جعل أخطاء بعض الإسلاميين مصدراً للتفكير وليس موضوعاً للتفكير، فدفعه هذا الشحن النفسي إلى الابتعاد عن الحقيقة وتبني مقدمات غير مستقلة فكرياً[١].

كان لهذه الحملات العلمية والشعبية أثر عميق يعبِّر عنه أحد المؤلفين العَلمانيين بقوله: (كانت لهذه الحملة على العَلمانية عموماً، وعلى طه حسين وعلي عبد الرازق بوجه الخصوص، نتائج كثيرة، كانت اثنتان منها على قدر كبير من الأهمية، وهما: ضمور الإصلاحية الإسلامية وجمودها على بعض لحظات بدايتها والتآكل الداخلي في مواقف بعض العَلمانيين الليبراليين المصريين)[٢].

حتى أصبح اسم (علي عبد الرازق) مشوّهاً إلى حدٍ امتعض منه هذا المؤلف قائلاً: (بل اضطر حتى بعض القائلين بمَدَنية السلطة إلى ممارسة طقس رفض كتاب عبد الرازق)[٣].

هذا التشويه للعَلمانية دفع كثيراً من المتأثرين بالفكر العَلماني للبحث عن جذور إسلامية يمكن استنبات المضامين العَلمانية فيها، بحيث تقدَّم الفكرة العَلمانية كفكرة إسلامية تراثية لتخطي مصادمة الجمهور، وهي دعوة رائجة لدى عدد من المفكرين المعاصرين المستشعرين لحالة النفور الشعبي من العَلمانية، وهو ما تذمر منه بعض العَلمانيين واعتبروه انهزاماً أمام الفكر الإسلامي وتخلياً عن أساس الفكرة العَلمانية وعلامة تراجع وانتكاس لها: (الأخطر من كل هذا والأكثر تدليلاً على تراجع الفكر العَلماني عندنا: ما نشهده من محاولات حثيثة من قبل المفكرين العَلمانيين لدعم موقفهم عن طريق اللجوء إلى القرآن والسنة، غير مدركين أنهم يقدِّمون بهذا أكبر التنازلات للحركات المناوئة للعَلمانية)[٤].

يدفعنا هذا للتساؤل عن حظوظ العَلمانيين في إمكانية إعادة بناء الرؤية العَلمانية التي قدمها علي عبد الرازق:

فهل يمكن لهذه الفكرة أن يعود وهجها وحضورها الشعبي؟

وهل يمكن حدوث معارك ثقافية معاصرة تجدد الدماء في هذه القضية؟

ربما يكون لدينا عشرات الإجابات لهذا السؤال نظراً لاختلاف الزاوية التي ينظر منها كل شخص، وأرى أن فكرة عبد الرازق تحتوي على جانبين:

الجانب الأول: تفسير الإسلام تفسيراً عَلمانياً بحيث يكون مجرد رسالة روحية ليس لها أي علاقة بالجانب الدنيوي، إنما تكون علاقة المسلم بالدين محصورةً في الشأن الخاص، وأما الشؤون الدنيوية كافة فهي خارجة عن المجال الديني.

(١) انظر: الدولة في الإسلام، ٩ – ١٦.

(٢) العلمانية من منظور مختلف، لعزيز العظمة، ٢٣٥.

(٣) العلمانية من منظور مختلف، ٢٩٣.

(٤) الأسس الفلسفية للعلمانية، عادل ضاهر.

هذه الرؤية ليس لها أي حضور يُذكر في الوسط المسلم، وحين تكدُّ بصرك في البحث عن آثار أهلها لن تجدهم إلا في أوساط الحداثيين وبعض المفكرين في مؤلفاتهم وصالوناتهم ذات التأثير المحدود، ربما تنتشر بعض آرائهم عند الناس شتماً وعيباً ليس إلا.

الجانب الثاني: علمنة النظام السياسي في الإسلام بإبعاد الأحكام الدينية عن السياسة، فيكون الجانب السياسي جانباً دنيوياً مصلحياً لا يستند فيه إلى أحكام شرعية ملزمة.

هذا الجانب لا يلغي أن الدين في الإسلام يشمل جوانب حياتية كثيرة، لكن يرفض أن يكون للدين حضور في النظام السياسي الملزم.

هل يمكن إعادة ترميم هذه الرؤية من جديد؟

ثم سؤال آخر لا بد من الإجابة عنه لأنه مدخل مهم للإجابة عن هذا السؤال، وهو:

لماذا يرفض العَلمانيون حضور الدين في الجانب السياسي؟

فالدافع لعَلمانية الحكم هو ما يثيره حضور الدين في النظام من إشكالات، فليس لديهم إشكال مع الدين في الجانب الخاص، ولا إشكال مع الدين في قضايا الدنيا الأخرى، إنما وجود الدين في النظام له عدد من السلبيات هي التي دفعتهم لتبني هذه العلمنة.

فتأثير الدين على النظام السياسي والقوانين غير مقبول في العقلية العَلمانية لمرتكزين أساسين:

الأول: عدم إيمانهم أساساً بوجود رؤية دينية قطعية صحيحة، وإنما هي كلها اجتهادات نسبية، ووجهات نظر خاصة، وفرض الدين يعني فرض رؤية خاصة، ما يعني استبداداً باسم الدين، وعدواناً على الآخرين بسبب فهم ضيق للدين، ولذا فهم يعتمدون على مرجعية أخرى مختلفة.

ثانياً: أن الدولة المعاصرة دولة مدنية تعتمد على أسس من العقل والتجربة والخبرة مستقلة تماماً عن الدين، فخضوعها للدين سيكون انتهاكاً للحريات وحقوق الأقليات والمرأة والمساواة وغيرها من منجزات الدولة المعاصرة، ويستحضرون في هذا عدداً من التجارب التاريخية والحديثة التي يرونها ملازمة للحكم بالدين.

إذا استحضرنا هذين الدافعين اللذين يدفعان نحو (علمنة النظام السياسي) بإبعاد الدين عنه، يسهل علينا أن نجيب عن سؤال:

هل يمكن لهذه العلمانية أن يكون لها شيوع وانتشار في المرحلة الحالية؟

الواقع يجيب بوضوح: نعم، وما يؤهلها للانتشار أكثر هو أن هذه العَلمانية بدأت تتسلل إلى تفكير بعض الإسلاميين، وصار (المضمون العَلماني) هذا يعبَّأ في أوعية إسلامية، فأصبح النموذج العَلماني نموذجاً متسقاً مع المفهوم الإسلامي ولا يصادم الأحكام الشرعية، بل ويُقدِّم له عدداً من النصوص والدلائل الشرعية التي تدعمه وتؤيده كما تقرِّر ذلك بعض الدراسات والمؤتمرات والمحاضرات المعاصرة.

فالذي حصل أن إشكاليَّتي التفكير العَلماني في نفي (وجود رؤية دينية قطعية) بما يعني فرض رؤية استبدادية، و(طبيعة الدولة الحديثة التي لا تعتمد على الدين) بما يثير عدداً من الإشكالات؛ قد تسرَّبت إلى عقول بعض الإسلاميين، فأصبحت هذه الإشكالات حاضرة في تفكيرهم بدرجات متفاوتة، وبالتأكيد حضورها لن يكون كما هو لدى العَلمانيين، فثم اختلاف كبير في التصورات بينهما، لكن الإشكال ذاته موجود بدرجة معينة وقد يزيد ويضعف بحسب عوامل كثيرة، هذا كله يسهم في أن تعود العَلمانية في جانبها السياسي من خلال بعض الإسلاميين أنفسهم.

كيف يمكن ذلك؟

الواقع أن (بعض الإسلاميين) صار يقدم عدداً من الرؤى التجديدية في الفكر الإسلامي يفسر بها النظام السياسي الإسلامي تجعلها متقاربة لحد كبير – إن لم تكن متطابقة – مع الرؤية العَلمانية للنظام السياسي، فالنتيجة بين الطرفين واحدة وإن اختلفا في الطريق الموصل إليها.

فتكثيف العَلمانيين للدوافع التي تخوف الناس من الحكم الإسلامي، مع وجود بعض الرؤى التجديدية المنسوبة إلى الإسلام؛ يعطي فرصة كبيرة لمفهوم (علمنة النظام السياسي) أن يكون له حضور في المرحلة القادمة.

في العدد القادم – بإذن الله – سنستعرض عدداً من هذه الرؤى التجديدية التي يقدمها بعض الإسلاميين ونقارنها بالمفهوم العَلماني، لنبحث عن أوجه الاتفاق والاختلاف، ونتمعّن بعدها في (قصة العَلمانية المؤسلمة) وما الذي تجاوزته من (عَلمانية ما قبل الأسلمة)!

رمضان وصناعة التغيير

رمضان هذا العام يأتي في عالمنا الإسلامي في أحوال سياسية واجتماعية مختلفة؛ فالشعب السوري البطل مستمر في مواجهته للنظام القمعي القاتل، وشعب أراكان المسلم يُذبح بكل وحشية من النظام البورمي البوذي، والشعب اليمني يقاسي آلام الجوع والفقر، والمسلمون في الصومال وتشاد والنيجر يعانون آثار المجاعة التي تضرب بجذورها في عمق ديارهم، وشعوب الثورات العربية ما زالت تصارع في عملية التحول السياسي للمحافظة على هويتها وقيمها.

إنَّ هذا الواقع يؤكد تأكيداً جازماً أن المخرج من هذه الأزمات لا يكون إلا بالرجوع الصادق إلى الله - عزَّ وجل، والعناية بتربية الأمة على كتاب الله تعالى وسنَّة النبي المصطفى ﷺ. وهذا الشهر العظيم فرصة كبيرة لصناعة التغيير في الأمة، ولن يتحقق ذلك إلا بالتقوى، والصيام هو سبيل ذلك. ومن واجب العلماء والروَّاد أن يستثمروا إقبال الناس على الخير لإعادة البناء وتجديد الإيمان في قلوبهم، وقد ثبت في الحديث الصحيح: (إِنَّ الْإِيمَانَ لَيَخْلَقُ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ فَاسْأَلُوا اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُجَدِّدَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ).

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

الصوم من أفضل العبادات وأجلِّ الطاعات، وجاءت بفضله الآثار، ونُقلت فيه بين الناس الأخبار.

فمن فضائله، بل على رأسها، كونه سبباً لتحصيل التقوى، وهو بذلك عبادة عظيمة لا غنى عن التعبد بها لله، ومن ثم كتبه الله - جل وعلا - على جميع الأمم وفرضه عليهم.

يقول الحق تبارك وتعالى في كتابه العزيز: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٣]، فالصيام عبادة قديمة فرضها الله على الأمم من قبلنا، وذلك أنه يؤدي إلى تقوى الله جل وعلا، وهو شيء يحتاج إليه جميع الناس في جميع العصور.

د. هشام عقدة(*)

(*) عضو الهيئة الشرعية للحقوق والإصلاح – مصر.

قال الحسن البصري – رحمه الله – في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾: نعم والله، لقد كُتب الصيام على كل أمة قد خلت.

وقد روي عن معاذ وابن مسعود وابن عباس وعطاء وقتادة والضحاك أن الصيام الذي كانت عليه الأمم قبلنا من كل شهر ثلاثة أيام، وزاد الضحاك: لم يزل هذا مشروعاً من زمان نوح إلى أن نسخ الله ذلك بصيام شهر رمضان. وقال ابن كثير – رحمه الله: وقد كان هذا في ابتداء الإسلام، يصومون من كل شهر ثلاثة أيام، ثم نسخ ذلك بصوم شهر رمضان.

وقال ابن عمر – رضي الله عنهما – في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾: كتب عليهم إذا صلى أحدهم العتمة ونام حرم عليه الطعام والشراب والنساء إلى مثلها. وروي مثل هذا عن ابن عباس – رضي الله عنهما – وكثير من التابعين.

وإنما فرض الله – جل وعلا – الصيام على جميع الأمم لما فيه من زكاة النفوس وطهارتها وتنقيتها من الأخلاط الرديئة والأخلاق الرذيلة.. ولهذا جعله المصطفى ﷺ وقاية من الوقوع في الفاحشة، فقال ﷺ: (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء).

ولهذا قال الله تبارك وتعالى مبيِّناً حكمة مشروعية الصوم وثمرته: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾، فهي غاية عظيمة كريمة من أجلها فرضه الله علينا، ألا وهي تحقيق تقوى الله عز وجل.

وقد ربط بعض العلماء ذلك بأن الصيام يضيق مجرى الدم، وإذا ضاق مجرى الدم قلَّ تسلُّط الشيطان على الإنسان؛ لأن المصطفى ﷺ يقول: (إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم)، ومن ثم فالصيام يعين على تقوى الله عز وجل، وتقوى الله عز وجل وإن كانت تتحقق أو تتم بفعل الأوامر واجتناب النواهي، إلا أن أصلها وأساسها وجذورها في القلب.. خشية.. حساسية... مراقبة لله عز وجل.. فإن الابتعاد عن المعصية يبدأ من اشمئزاز القلب منها ونفوره منها ورهبته من اقترافها؛ إجلالاً لله تبارك وتعالى الذي يراقبه، وفعل الأوامر يبدأ كذلك من تشوق القلب لها ورغبته فيها واهتمامه بها وحرصه عليها، ومن ثم قال ﷺ: (التقوى ها هنا) ويشير إلى صدره ثلاث مرات.

فالقلب التقي قلب يقظ حي إذا ذكر الله حدث له وجلٌ وخوف.. قال ابن كثير – رحمه الله: وهذه صفة المؤمن حق الإيمان، الذي إذا ذكر الله وجل قلبه، أي خاف منه، ففعل أوامره وترك زواجره.. وقال سفيان الثوري: سمعت السدي يقول في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٢]: هو الرجل يريد أن يظلم، أو قال: يهم بمعصية، فيقال له: اتق الله، فيجل قلبه أي يخاف فيبتعد عن ذلك.. فهذا من علامات تقوى القلوب ودلائلها، فإن تقوى القلب تجعل صاحبه يكره ما حرمه الله ويبتعد عما نهى عنه، كما أنه يشتاق إلى ما أمر الله به، ويعظم حرمات الله وشعائر الدين ولا يتهاون بشيء من ذلك، ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾ [الحج: ٣٠]، ﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ [الحج: ٣٢].

فأصل التقوى كما ذكرنا في القلب.. ووجود أهل التقوى في القلب هو الذي يدفع العبد إلى أخذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، ومن ثم يصلح حال العبد ظاهراً وباطناً، ولهذا قال الرسول ﷺ: (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب)، ولذلك اقتصر الله – جل وعلا – على ذكر سلامة القلب حين وعد بالفلاح فقال: ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ۝٨٨ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٨ – ٨٩]، وذلك لأنه إذا كان القلب سليماً صالحاً فلا بد أن تكون الجوارح كلها سليمة صالحة كما أخبر المصطفى ﷺ في الحديث.

إذن فأعظم التقوى وأصل التقوى في القلوب.

والله – جل وعلا – أراد أن يكون صيامنا طريقاً لتحقيق هذه التقوى وتحصيلها، وكذلك أخبر الرسول ﷺ بضياع ثواب الصيام في الأحوال التي تدل على ضياع التقوى، وذلك لأن الصوم حينئذ لم يحقق غايته التي شرعه الله لها، ولم يتطهر به القلب، ولم تصفُ به النفس، ولم ترتبط بالله فتخشاه وتراقبه.. ولهذا قال ﷺ: (من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه).. وقال ﷺ: (رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر).. وفي استقبال هذا الشهر المبارك أوصيكم ونفسي بتقوى الله عز وجل، التي لا يقبل غيرها، ولا يرحم إلا أهلها، ولا يثيب إلا عليها، فإن الواعظين بها كثير، والعاملين بها قليل، جعلني الله وإياكم من المتقين.

قال معاذ بن جبل – رضي الله عنه: ينادى يوم القيامة أين المتقون؟ فيقومون في كنف من الرحمن، لا يحتجب منهم ولا يستتر..

فالتقوى شرف العبد في الدنيا والآخرة، ولذا كانت وصية الله للأولين والآخرين، وكانت وصية نبينا محمد ﷺ لآله وصحبه أجمعين، وما زال الصحابة والتابعون والسلف الأولون يوصي بعضهم بعضاً بتقوى الله – جل وعلا.

﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾ [النساء: ١٣١].

فاتقوا الله عباد الله، اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، وتقوى الله حق تقاته كما قال ابن مسعود - رضي الله عنه: أن يُطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفَر.

فاتقوا الله، ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾، ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣١]، ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٢]، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحشر: ١٨]، ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨١].

ومن أجمع وأجمل ما فسرت به التقوى أنها:

(الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرضى بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل).

فأولها: الخوف من الجليل، وثانيها: العمل بالتنزيل، وثالثها: الرضا بالقليل، ورابعها: الاستعداد ليوم الرحيل.

أما الأمر الأول: فهو الخوف من الجليل، الخوف من رب العزة جل جلاله، خشيته - جل وعلا - في السر والعلانية، والخوف من أليم عقابه، وأفضل الخلق وعقلاؤهم هم الذين يخافون الله - جل وعلا، فالأنبياء مقالتهم: ﴿ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأنعام: ١٥]، والملائكة: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل: ٥٠].

وعن أبي ذر - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: (إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطت السماء وحُق لها أن تئط ـ أطت السماء أي أثقلتها الملائكة من كثرتها حتى أطت، والأطيط أصوات الإبل ـ أطت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله)، أي ولخرجتم إلى الطرقات ترفعون أصواتكم وتستغيثون.

فالخوف من الله إخوة الإسلام هو الذي يمنع العبد من المحظورات، ويقمع الشهوات، ويكدر اللذات، وتتأدب به الجوارح، وينصلح به القلب، فيذل ويستكين، ويفارقه العجب والكبر والأفكار الفاسدة والشهوات الآثمة، وينظر في خطر العاقبة ويحذر سوء الخاتمة.

لكن قلوبنا قست وغفلت عن الخوف من الله، وتهاونت في تعظيم حدوده وأوامره ونواهيه؛ لأنها امتلأت بما يفسدها من الأرجاس والأنجاس والباطل واللغو، فأصبحت مرتعاً لكل ما يجلب لها القسوة والفظاظة، فماذا ننتظر من قلوب أعرضت عن ذكر الله وسماع كلامه وأقبلت على كل مضل وكل تافه؟! ماذا ننتظر من قلوب لا نصيب لها في سماع كلامه - جل وعلا - وتلاوة كتابه وانكبَّت على سماع المعازف والألحان وما يصحبه من الفسق والعصيان؟! ماذا ننتظر من قلوب لا حرص لها على تصفّح كتابه تعالى وسنة رسوله ﷺ وصار هواها الانهماك في تصفح أخبار الفن واللهو؟!

ماذا ننتظر من قلوب لم تطلب صحبة أهل العلم والخير وركنت إلى صحبة أهل اللهو واللغو؟!

ماذا ننتظر من قلوب لم تتوجه لسماع كلام الدعاة والعلماء والمصلحين وراحت تتبع كل ناعق أفّاك وتستمع لكلامه في تشويه الدعاة والتنفير من الالتزام بالدين الحق؟! ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [التوبة: ٤٧].. ماذا ننتظر من مثل هذه الأفئدة؟! وهل يبقى فيها مجال للخوف من الله واليوم الآخر؟! يقول - جل وعلا: ﴿ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ ﴾ (أي إلى إفك أهل الباطل وافترائهم) ﴿ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٣].

إذن، فنحن الذين نجلب بأنفسنا لقلوبنا ما يفسدها ويصيبها بالقسوة والجمود، وما يزيل عنها خوفها من خالقها - جل وعلا.

إذن فالخوف من الله - جل وعلا - الركن الأول لتقواه.

أما الأمر الثاني: فهو العمل بالتنزيل، أي العمل بالقرآن والشرع الذي أنزله الله - جل وعلا، وتلك هي القضية الكبرى التي دارت حولها الخصومة العظيمة بيننا وبين من يعادينا أو يخالفنا من أهل الباطل، حيث اجتمعت كلمة الكفر والنفاق في مشارق الأرض ومغاربها على منع أهل الإسلام من العمل بالتنزيل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

كبر عليهم أن نحيا بالإسلام ونعمل بالقرآن، كبر ذلك وعظم على الملحدين وعلى الوثنيين وعلى المشركين وعلى العَلمانيين وعلى المفسدين المائعين.

كبر عليهم أن نقول نريد أن نعمل بالإسلام الذي أنزله الله - جل وعلا، نريد أن نحيا بديننا الإسلام كما أراده الله عز وجل، لا كما تريده أمريكا ولا كما تريده أوروبا ولا كما يريده العَلمانيون الذين يفصلونه عن الحياة، ولا كما يريده المفسدون

المائعون الذين يجرّدونه من كل معنى ومن كل تشـــريع وكل أمر وكل نهي، إنما نريد أن نحيا بالإســـلام الذي أراده الله ورسوله، وأن نعمل بالقرآن الذي أنزله الله عز وجل على رسوله، تلك هي قضيتنا، وذاك مطلبنا، وتلك هي بغيتنا، وهذا هو مقصودنا.

وواهـــمٌ من يظن أن العمل بالتنزيل يمكن أن يتحقق بصورة فردية، فيعمل كل إنسان في نفسه بالتنزيل بعيداً عن الآخرين، كلا والله، ففي الإسلام شـــرائع وأحكام ذات علاقة بأكثر من طـــرف لا يتحكم فيها طرف بمفرده، شـــرائع لمجتمع ونظام لا لشـــخص بمفرده، ومن ثم فلا بد أن يقرر المجتمع جملة العمل بالتنزيل.

إن العمـــل بالتنزيل هو القضية التي من أجلها أُريقت دماء وبُذلت في ســـبيلها الجهود والتضحيات، وها هو رمضان يأتي علـــى أمة الإســـلام والأرض مخضبة بالدماء التي تســـيل من جرح الإســـلام النازف في بقاع شتى من الأرض، وحسبك دماء المســـلمين التي تراق في الشام، ومشـــرّدون لم تلامس قلوبهم فرحة رمضان، وثكالى لن يجدن من بعده طعماً لعيد، ومعذبون لن يعلم بمكانهم عيـــد، والعمل بالتنزيل في ذلك كله هو محور الصراع، ومبعـــث التضحيات ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُـــمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيـــزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].. وتحاك المؤامرات وتســـتمر ولا تنتهي لتركيع المســـلمين لأعدائهم ومحو أي أثر للعمل بالتنزيل في أي بقعة من الأرض.

ومع ثقتنا العميقة بأن هذا الإسلام العظيم الذي أراد الله – جل وعلا – أن يحرر به الإنســـان، كل الإنســـان في كل زمان وفي كل مكان، مع ثقتنا بأنه ســـينتصر بإذن الله وستعلو كلمة اللـــه؛ إلا أن ذلك لا يعفينا من المســـؤولية تجاه هذا الدين؛ من العمل لنصرته والذود عن شـــريعته، فقضية الإسلام وشريعته ليست قضية فلان من الدعاة أو سين من الجماعات، إنما هي قضيتكم جميعاً يا أهل الإسلام.

فالخطب أكبـــر مـــن لهو نقارفه
والأمـــر أكبـــر مـــن دعـــوى نناديها
مـــاذا نـــقـــول لـــربـــي حـــين يسألنا
الـــشـــريـــعـــة لـــم نـــحـــمـــي معاليها
ومـــن يجيب إذا قـــال الحبيب لنا
أذهـــبـــتـــم ســـنـــتـــي والـــلـــه محييها
إن لـــم نـــردهـــا لدين الله عاصفة
سيذهب العرض بعد الأرض نعطيها

إذاً لا تتحقـــق التقوى إخوة الإســـلام التي هي وصية الله للأولين والآخريـــن، إلا بالعمل بالتنزيل، وأن نتبنى جميعاً ـ كل واحد منا ـ هذه القضية ونفكر من أجلها ونسعى في سبيلها.

أمـــا الأمر الثالث الذي تقوم عليه تقوى الله – جل وعلا – فهـــو: الرضا بالقليل، وإنه والله لأمر يصعب علينا حتى لا يكاد يتحقق به أحد، حتى العالم الفاضل والداعية الناصح.

فالقلـــوب – مع الأســـف – يغلب عليهـــا الطمع في المزيد والاســـتكثار من حطام الدنيا، لا لإنفاقه في سبيل الله ونصرة دينه، لكن لمجرد تحقيق شـــهوة امتلاك الكثيـــر ولعدم الرضا بالقليل، وإن تطلعنا إلـــى الكثير لهو الذي يقعدنا عن كثير من البذل والتضحية ومواصلـــة الطريق، ويفقدنا كثيراً من الصبر والثبات، فالدنيا فتنة وبلاء، والسعيد القوي من زهده الله فيها، وإذا أردت أن لا تغتـــم فلا تملك ما به تهتم، فالمؤمن لا يأبه أن تكون الدنيا لغيره إن حصلت له الآخرة.

قال عمر بن الخطاب – رضي الله عنه: دخلت على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على حصير، فجلست، فأدنى عليه إزاره وليـــس عليه غيـــره، وإذا الحصير قد أثر فـــي جنبه، فنظرت ببصري في خزانة رســـول الله ﷺ فإذا أنا بقبضة من شـــعير قال: فابتدرت عيناي ـ أي بالبكاء ـ فقال رســـول الله ﷺ: (ما يبكيك يا ابن الخطاب؟). قال: يا نبي الله وما لي لا أبكي، وهذا الحصير قد أثر في جنبك، وهـــذه خِزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذاك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار، وأنت رسول الله ﷺ وصفوتـــه وهذه خِزانتك. فقال: (يا ابن الخطاب ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟) قلت: بلى.

وهذا ســـلمان – رضي الله عنه – يبكي عند موته ويســـأل عن ذلك فيقول: عهد إلينا رســـول الله ﷺ أن يكون زاد أحدنا كـــزاد الراكب. وحولي كل هـــذه الأزواد. وإنما كان حوله جفنة وإجانة ومطهرة.

فإذا كان هذا حال نبيك وحال صحابته، فمن أنت حتى تريد أن تعيش كالملوك أو الأكاسرة والقياصرة؟ وإذا كان التطلع للكثير وعدم الرضا بالقليل قبيحاً في حق المســـلمين عامة، فهو أقبح وأرذل في حـــق الداعية وطلاب العلم، وتصبح مصيبة إذا ترك الدعاة وطلبة العلـــم التنافس في العلم والعبادة والدعـــوة ونافس بعضهم بعضاً في الاستكثار من الدنيا وحطامها، والإحاطة بزخارفها وفضولها، نســـأل الله السلامة والعافية من فتنة السراء والضراء، ورحم الله الإمام أحمد إذ يقول: من علامة إخلاص العالم في علمه أنه كلما ازداد علماً ازداد في الدنيا زهداً وقلّت أمتعة داره.

ولما مرض الإمام النووي - رحمه الله - مرضه الذي مات فيه ورجع من الشام إلى نوى بلده، لم يجدوا له متاعاً يحملونه إلى أمه سوى العكاز والإبريق.

أما اليوم فتجد أحدنا لا يريد الاجتهاد في عبادة ولا علم ولا طاعة ولا دعوة إلا بعد أن يحصل له من الدنيا كذا ويجد من وسائل الراحة ونعومة العيش كذا وكذا، وكل ذلك من فساد القلوب وقلة التقوى، وأذكر نفسي وإياك أخا الإسلام بقوله ﷺ: (من بات معافى في بدنه آمناً في سربه عنده قوت يومه فقد حيزت له الدنيا بحذافيرها). ومر أحدهم برجل أعمى مقطوع الأطراف يلهج بذكر الله وحده وشكره فعجب من ذلك وسأله فقال: أحمد الله أن وهب لي لساناً ذاكراً وقلباً شاكراً وبدناً على البلاء صابراً.

نسأل الله عز وجل أن يعيننا على شكره والرضا بما يقسمه لنا.

وأما الأمر الأخير الذي تقوم عليه التقوى فهو الاستعداد ليوم الرحيل عن الدنيا إلى الآخرة.

يوم مفارقة هذه الدار والقدوم على الواحد القهار، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، يوم تبلى السرائر، يوم يتذكر الإنسان ما سعى، وبرزت الجحيم لمن يرى.

يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه.

يقول الإنسان يومئذ أين المفر، كلا لا وزر، إلى ربك يومئذ المستقر. يوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً، يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً، لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً. يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال، وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال. فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام. يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار. وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد وسرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار، ليجزي الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب.

يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد.

يوم مشهود، يوم عظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين، يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية.

إنه الاستعداد لهذا اليوم، نقبل عليه من خلال الموت ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

ثم بماذا تستعد ومتى تستعد؟ هل تستعد بالتفريط في جنب الله؟ هل تستعد بجمع حطام الدنيا؟ هل تستعد لذلك اليوم بالاستهزاء بالدين وأهله، بماذا تستعد؟

الجواب معروف لكننا نراوغ ونخدع أنفسنا ونتبع أهواءنا، ومتى تستعد؟ والله لا يضمن أحدنا إذا خرج من بيته أن يرجع إليه، وإذا طلع عليه نهار يوم أن يجن عليه ليله.. فكن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وعدَّ نفسك من أهل القبور، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك، فإنك لا تدري يا عبد الله ما اسمك غداً.

فيا ويح نفس من نهار يقودها
إلى عسكر الموت وليل يذودها
نسير إلى الآجال في كل لحظة
وأيامنا تطوي وهن مراحل
ولم أر مثل الموت حقاً كأنه
إذا ما تخطته الأماني باطل
وما أقبح التفريط في زمن الصبا
فكيف به والشيب للرأس شاملا
ترحل من الدنيا بزاد من التقى
فعمرك أيام وهن قلائل

قال بعض السلف: ما نمت يوماً قط فحدثت نفسي أني أستيقظ منه.

وما أدري وإن أملت عمراً
لعلي حين أصبح لست أمسي
ألم تر أن كل صباح يوم
وعمرك فيه أقصر منه أمس

فكم من مُستقبِل يوماً لا يستكمله، وكم من مؤمل لغد لا يدركه، إنكم لو رأيتم الأجل وسيره لأبغضتم الأمل وغروره، ورحم الله عون بن عبد الله إذ يقول: إن من أنفع أيام المؤمن في الدنيا ما ظن أنه لا يدرك آخره.

تلك إخوة الإسلام الأمور العظام التي تجمع معنى التقوى: الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل.

هذه هي التقوى التي يقودنا لها الصيام، جعلني الله وإياكم من المتقين.

مَعالمُ المتدبِّرين

عبداللطيف بن عبدالله التويجري
A44t@Hotmail.com
@abuomar_twijri

حـــثَّ الله - عزَّ وجلَّ - على تدبّر مواعظ القرآن، وبـــيَّن أنه لا عُذر في ترك التدبر[1]، قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

لكنَّه بيَّن أن هذا التدبر له شروط ومعالم ينبغي للمتدبر أن يحققها ليحصل بها أثر التدبر وثمرته.

ومن خلال التأمل في كتاب الله نجد أن آية سورة (ق) وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّـمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، قد أشارت إلى هذه الشروط إجمالاً[2]، وعلى ذلك سيتمحور الحديث عن هذه الشروط في ضوء هذه الآية الكريمة، ويمكن أن نجعل هذه الشروط تحت هذه المعالم الرئيسة، وهي:

أولاً: أن يكون المتدبر حي القلب.

ثانياً: أن يفعل المتدبر الأسباب المعينة على التدبر.

ثالثاً: أن يجتنب المتدبر الأمور التي تصرف عن التدبر.

(١) تفسير القرطبي: (١٨/ ٤٤).

(٢) ينظر بحث الشيخ الدكتور خالد السبت (شروط تدبر القرآن) منشور في مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية، العدد: (الحادي عشر)، السنة: (السادسة).

وهذه الشروط تندرج تحتها أسباب ولوازم كثيرة، وهي شروط نسبية تتفاوت من شخص إلى آخر تزيد وتنقص؛ بسبب تفاوت العقول والأفهام وفعل الأسباب، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (هذا مع أن الناس متباينون في نفس أن يعقلوا الأشياء من بين كامل وناقص، وفيما يعقلونه من بين قليل وكثير وجليل ودقيق وغير ذلك...)[1]. فبحسب تحقيق هذه الشروط وأسبابها تكون نتيجة التدبر من زيادة أو نقصان، وتفصيل ذلك فيما يلي:

فكون المتدبر حي القلب: فهذا ظاهر من الآية، وقد نصَّ غير واحد من المفسرين كقتادة، ومقاتل بن سليمان، وغيرهما[2]، على أن المراد بالقلب هنا: القلب الحي؛ فالرجل الحيُّ القلب مستعد، فإذا تليت عليه الآيات، أصغى بسمعه، وألقى السمع وأحضر قلبه، ولم يشغله بغير فهم ما يسمعه، فهو شاهد القلب، ملقي السمع، فهذا هو الذي ينتفع بالآيات المتلوة والمشهودة، فإن كان القلب غائباً أو مسافراً في الأماني والشهوات والخيالات؛ فإنه لا يحصل به الانتفاع[3]، ولذلك نجد أن القرآن الكريم أشار إلى أن أقفال القلوب مانع رئيس من التدبر، فقال موبخاً المنافقين: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

قال ابن القيم: (قوله: ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ فهذا هو المحل القابل، والمراد به القلب الحي الذي يعقل عن الله، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ۝٦٩ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٦٩ - ٧٠] أي حي القلب)[4].

ومن لوازم هذا الشرط المهم - حياة القلب وشهوده - أعمال القلب الأخرى: كالإيمان بالله، وإخلاص القصد، واليقين، والإنابة إلى الله، واستشعار عظمة القرآن.. وبالمقابل أيضاً يلزم من ذلك تطهيره من أقفال التدبر: من الشواغل، ومن الغل والحسد والرياء والنفاق.. إلخ.

فإذا حقق المتدبر هذا الشرط وما يلزم منه من اللوازم، بحيث يصبح قلبه حياً شاهداً طاهراً؛ فإنه - بإذن الله - سينتفع بآيات الله المتلوة والمشهودة، ولن يشبع من كلام الله كما ذكره أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه بقوله: (لو طهرت قلوبنا ما شبعت من كلام الله عزوجل)[5].

أمَّا كون المتدبر يفعل الأسباب المعينة على التدبر، فدلالته أخذت من قوله تعالى: ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، فإلقاء السمع من أهم الشروط، ولا يتم التدبر إلا به، كما أن إلقاء السمع ثمرته العمل بما سمعه المرء، وإلا فما فائدة السمع إذن؟!

وقد أمرنا القرآن بالاستماع إلى آياته والإنصات لها بقوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، أي: أصغوا له سمعكم لتتفهموا آياته، وتعتبروا بمواعظه، وأنصتوا إليه لتعقلوه وتتدبروه، ولا تلغوا فيه فلا تعقلوه[6]، ولهذا قال الإمام وهب بن منبه - رحمه الله: (من أدب الاستماع: سكون الجوارح، وغض البصر، والإصغاء بالسمع، وحضور العقل، والعزم على العمل).

قال القرطبي معلقاً: (وذلك هو الاستماع كما يحب الله تعالى، وهو أن يكف العبد جوارحه، ولا يشغلها فيشتغل قلبه عما يسمع، ويغض طرفه فلا يلهو قلبه بما يرى، ويحصر عقله فلا يحدِّث نفسه بشيء سوى ما يستمع إليه، ويعزم على أن يفهم فيعمل بما يفهم)[7].

فإلقاء السمع إذن يستوجب العمل، لكن هذا السمع لن يكون مؤثراً حتى يعقل المتدبر ما يسمع، كما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: (فالذي يَسمَعُ ما جاءت به الرسل سَمعاً يَعقلُ به ما قَالُوهُ يَنجُو. وَإلا فالسَّمعُ بلا عَقلٍ لا يَنفعُهُ.. وكذلك العقلُ بلا سَمعٍ لِمَا جَاءَت به الرسل لا ينفع)[8]. وقال تلميذه ابن القيم: (فجمع سبحانه بين السمع والعقل، وأقام بهما حجته على عباده، فلا ينفك أحدهما عن صاحبه أصلاً، فالكتاب المنزل والعقل المدْرِك حجة الله على خلقه)[9].

قال سفيان بن عيينة - رحمه الله: (أول العلم الاستماع، ثم الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر؛ فإذا استمع العبد إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه - عليه الصلاة والسلام - بنية صادقة على ما يحب الله؛ أفهمه كما يحب، وجعل له في قلبه نوراً)[10].

ولن يعقل هذا المتدبر إلا بقيامه بعمل الأسباب المعينة على عقل هذا المسموع الذي هو القرآن، وأسباب ذلك كثيرة، من

(١) الفتاوى الكبرى: (٩/٣٠٩).
(٢) تفسير مقاتل: (٤/١١٥)؛ وتفسير ابن جرير الطبري: (٢١/٤٦٢).
(٣) ينظر مدارج السالكين للإمام ابن القيم: (١/٤٤٢ - ٤٤٣).
(٤) الفوائد لابن القيم، ص: (٣).
(٥) الزهد للإمام أحمد، ص: (١٨٨).
(٦) تفسير الطبري: (١٠/٦٥٨).
(٧) تفسير القرطبي: (١١/١٧٦).
(٨) مجموع فتاوى ابن تيمية: (١٦/١٨٠- ١٨١).
(٩) الصواعق المرسلة: (٢/٤٥٨).
(١٠) أحكام القرآن للقرطبي: (١١/١٧٦).

أهمها: معرفة اللسان العربي، حيث ذكر العز بن عبد السلام أن تدبر القرآن وفهم معانيه لا يأتي إلا بمعرفة اللغة[1]، ومنها أيضاً: مراعاة الأحوال المناسبة للقراءة والسماع، ومنها البسملة، والاستعاذة من الشيطان، والترتيل؛ لأن ذلك أدعى للعقل والفهم، والترديد للآيات، فهو يزيد الفهم لكلام الله؛ كل على حسب قدرته وتفهمه بشرط العلم الصحيح والفهم الصحيح كما قرَّره العلامة الشنقيطي[2].

فالاستماع السليم هو الذي يورث التلاوة الصحيحة والفهم الصحيح، إذ إن القرآن أخذ بالتلقي، وعندئذٍ يشترك اللسان والعقل والقلب، فحظ اللسان: تصحيح الحروف بالترتيل، وحظ العقل: تفسير المعاني، وحظ القلب: الاتعاظ والتأثر بالانزجار والائتمار؛ فاللسان يرتل، والعقل يترجم، والقلب يتعظ[3].

ومن جميل ما يُستشهد به في هذه المسألة ما قاله ابن بطال معلقاً على حديث قراءة ابن مسعود - رضي الله عنه - وقول ﷺ له: (إني أحب أن أسمعه من غيري)[4].. قال: (يحتمل أن يكون الرسول ﷺ أحب أن يسمعه من غيره ليكون عرض القرآن سنة يُحتذى بها، كما يحتمل أن يكون كي يتدبره ويتفهمه)[5].

أمَّا كون المتدبر يتجنَّب الأمور التي تصرف عن التدبر

وهو ما يعبّر عنه علماء الأصول: بانتفاء الموانع، وهو شرط من الشروط الأصلية، فالأحكام توجد بوجود الشروط، وتنتفي لوجود الموانع[6].

وآية سورة (ص) وهي قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، دالة على ذلك لزوماً، فالقلب الحي، والاستماع السليم، والقلب الشاهد؛ لا توجد إلا بتحقق شروط التدبر وانتفاء موانعه، وعلى ذلك: فكل شيء لا يتم الانتفاع به إلا بتحقيق شروطه وانتفاء موانعه، ومن ذلك تدبر القرآن، وإلا فكيف يكون القلب حياً وهو منكب على الشهوات أو الشبهات؟!

والموانع التي يجب على المتدبر اجتنابها صنوف وأضرب، وهي غالباً ما تندرج تحت سببين رئيسين: إما وقوع المرء بالشبهات مثل الجلوس مع أهل البدع، واتباع المتشابه، وقصر الآيات على أحوال خاصة... إلخ.

أو وقوع المرء في الشهوات: كالإصرار على المعاصي والذنوب، واستماع الغناء، والانشغال بالدنيا، واتباع الهوى... إلخ.

ومن جوامع ابن القيم ما ذكره في كتابه الفوائد وهو يتكلم عن هذه الشروط بكلام مختصر مفيد، حيث يقول: (والمقصود أنك متى ما أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألقِ سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفاً على مؤثر مقتض، ومحل قابل، وشرط لحصول الأثر، وانتفاء المانع الذي يمنع منه، تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه وأدله على المراد.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ إشارة إلى ما تقدم من أول السورة إلى ها هنا، وهذا هو المؤثر.

وقوله: ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾، فهذا هو المحل القابل، والمراد به القلب الحي الذي يعقل عن الله، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٦٩ - ٧٠]، أي: حي القلب.

وقوله: ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾، أي: وجَّه سمعه وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له، وهذا شرط التأثر بالكلام، وقوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾، أي: شاهد القلب حاضر غير غائب.

قال ابن قتيبة - رحمه الله: (استمع كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم، ليس بغافل ولا ساهٍ)، وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير، وهو سهو القلب وغيبته عن تعقل ما يقال له، والنظر فيه وتأمله.

فإذا حصل المؤثر وهو القرآن، والمحل القابل وهو القلب الحي، ووجد الشرط وهو الإصغاء، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر؛ حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكر)[7].

وإني موصيك ونفسي أيها القارئ الكريم، خاصة وأنت مقبل على شهر القرآن؛ بأن تراعي هذه المعالم بصدق وإيمان وقبول تام؛ لتظفر بالتدبّر الأمثل لكتاب الله عز وجل، فإن من أفضل ما يُفنى به العمر ويُقضى فيه الأجل تدبر كتاب الله، إذ به تكمن الغاية الكبرى من إنزاله، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى: (٨/٢٥٢).
(٢) أضواء البيان: (٧/٤٤٥٩).
(٣) ينظر إحياء علوم الدين للغزالي: (١/٢٨٧).
(٤) أخرجه البخاري: (٥٠٥٦)؛ ومسلم: (٨٠٠).
(٥) فتح الباري لابن حجر العسقلاني: (٩/٩٤).
(٦) ينظر روضة الناظر وجنة المناظر، لابن قدامة: (١/٢٤٩). ط: الرشد.
(٧) الفوائد، لابن القيم، ص: (٣).

الصيام

غذاء الأرواح وجُنَّة من العذاب

د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف(*)
www.alabdulltif.net
@dralabdullatif

فرض الله عزَّ وجلَّ صيامَ رمضان لتحقيق التقوى وتحصيلها، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، قال الشيخ محمد رشيد رضا - رحمه الله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، هذا تعليل لكتابة الصيام ببيان فائدته الكبرى، وحكمته العليا، وهو أن يعدَّ نفس الصائم لتقوى الله بترك شهواته الطبيعية المباحة الميسورة، امتثالاً لأمره واحتساباً للأجر عنده...»(١).

ثم إن الصيام يبعث على الإخلاص لله تعالى وحده، ويصحح الإيمان، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «كل عمل ابن آدم له الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله تعالى: إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به، إنه ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجلي..»(٢).

يقول الحافظ ابن رجب في تعليقه على هذا الحديث: «إذا اشتدَّ توقان النفس إلى ما تشتهيه مع قدرتها عليه ثم تركته لله عز وجل في موضع لا يطلع عليه إلا الله؛ كان ذلك دليلاً على صحة الإيمان، فإن الصائم يعلم أنّ له ربًّا يطلع عليه في خلوته، وقد حرَّم عليه أن يتناول شهواته المجبول على الميل إليها في الخلوة، فأطاع ربّه وامتثل أمره، واجتنب نهيه؛ خوفاً من عقابه، ورغبةً في ثوابه، فشكر اللهُ له ذلك...»(٣).

فالحاصل أن الصيام سببٌ متينٌ لتحقيق التقوى، ودليلٌ ظاهرٌ على صحة الإيمان، وسبيلٌ لنيل درجة الإحسان ومراقبة الله في السرِّ والعلن.

❊ إذا تقرَّر أن الصيام يحقق التقوى، وبرهان الإيمان، وطريق الإحسان؛ ففي غمرة المصطلحات الحادثة، والتعبيرات المعاصرة؛ غلب الحديث عن «الصيام والتغيير».. «الصيام غيّرني»... إلخ.

مع أنه لا مشاحة في الاصطلاح، ولا حرج في التعبير عن المعاني الصحيحة بالاصطلاحات الجديدة(٤).

لكن «التعبير عن حقائق الإيمان بعبارات القرآن أولى من التعبير عنها بغيرها، فإن ألفاظ القرآن يجب الإيمان بها، وهي تنزيل من حكيم حميد، وفيها من الحكم والمعاني ما لا تنقضي عجائبه، والألفاظ المحدثة فيها إجمال واشتباه ونزاع»(٥).

فالألفاظ الشرعية كالتقوى والإخلاص والإيمان، فيها من الشفاء والغَنَاء والحرمة ما ليس لغيرها.

ثم إن لفظ «التغيير» لفظ مجمل ومحتمل، فقد يراد به حق أو باطل، بخلاف ألفاظ التقوى والإحسان ونحوها، فإن التغيير -

(*) أستاذ مشارك في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض.

(١) تفسير المنار (٢/ ١٤٥).
(٢) أخرجه البخاري ومسلم.
(٣) لطائف المعارف، ص ١٦١.
(٤) ينظر: الدرء لابن تيمية: (١/ ٢٣٢).
(٥) النبوات لابن تيمية: (٢/ ٨٧٦).

في لغة العرب – بمعنى الاستحالة والتبديل من شيء إلى شيء، والتحـوّل من صفة إلى أخرى..[1]، فلا يختصّ هذا التغيير بما كان محموداً مطلوباً.

فقـد يكون «التغيير» مذموماً، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، قال ابن تيمية: «ومعلوم أنهم كانوا علـى عادتهم المحمودة، يقولون ويفعلون ما هو خير، لم يكونوا قد غيّروا ما بأنفسهم، فإذا انتقلوا عن ذلك فاستبدلوا بقصد الخير قصدَ الشر، وباعتقادهم الحق اعتقادَ الباطل، قيل: قد غيّروا ما بأنفسـهم، مثـل من كان يحبّ الله ورسـوله والدار الآخرة، فتغيّر قلبه وصار لا يحبّ الله ورسوله والدار الآخرة، فهذا قد غيّر ما في نفسه»[2].

إضافة إلى أن الحديث الحاضر عن «التغيير» في رمضان يركز على آثار الصيام السلوكية والأخلاقية في الدنيا، وينهمك في التغيّـرات التي تحصل في جوانـب التعاملات والعلاقات في حياتنا الحاضرة، ويسـتحوذ على جوانب المهارات الذاتية، والنواحي النفسية، وإخضاع ذلك التغيير للتقويم والتطبيق.

فهناك إغراق في آثار الصيام في الحياة المعاصرة، والواقع الدنيوي، وأمـا الحديث عن الصيام وآثـاره الأخروية، وربط الصيام بيوم البعث والنشور، وأنه جُنّة من عذاب الجحيم؛ فهذا الأمر الظاهر الجليل صار مغيّباً خفياً!

يقول النبي ﷺ «الصيام جُنّة»[3]، وجاء في غير رواية «جُنّة من النار»، وفي رواية لأحمد «جُنّة وحصن حصين من النار»[4]، قال الحافظ ابن حجر: «الجُنّة بضم الجيم الوقاية والستر، وقد تبيّن بالروايات متعلق هذا الستر، وأنه من النار، وبهذا جزم ابن عبد البر.. وقال ابن العربي: إنما كان الصوم جُنّة من النار لأنه إمساك عن الشهوات، والنار محفوفة بالشهوات، فالحاصل أنه إذا كفّ نفسـه عن الشهوات في الدنيا، كان ذلك ساتراً له من النار في الآخرة»[5].

وخَفَتَ الحديثُ عن الصيام وكونه سبيلاً إلى جنات النعيم! فعن سـهل بن سعد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة باباً يقال له الريّان، يدخل منه الصائمون لا يدخل منه أحدٌ غيرهم»[6].

وقد كشـف ابن تيمية عن مسلك الذي يقصرون الدين على مصالـح دنيوية محضة فكان مما قاله: «ليـس المقصود بالدين الحق مجرد المصلحة الدنيوية، كما يقوله طوائف من المتفلسـفة، فإذا لـم يكن مقصود الدين إلا جلب المنفعـة في الحياة الدنيا، ودفع المضرة فيها، فليس لهـؤلاء في الآخرة من خلاق.. وهؤلاء المتفلسـفة ومن سلك سـبيلهم يجعلون الشرائع من هذا الجنس لوضـع قانون تتم به مصلحة الحياة الدنيا، ولهذا لا يأمرون فيها بالتوحيد، وهو عبادة الله وحده، ولا بالعمل للدار الآخرة»[7].

وكذا إخضـاع تأثير الصيـام وتغييره للأشـخاص وَفق تقاويم البشر ومشـاهداتهم، وحسب معايير المهتمين بالأحوال النفسانية.. إن ذلك قد لا يتفق ولا يتسق من كون الصيام سرّاً بين العبد وربه لا يطّلـع عليه غيره؛ «لأنه مركب من نية باطنة لا يطّلع عليها إلا الله، وتركٌ لتناول الشـهوات التي يسـتخفى بتناولهـا في العادة، ولذلك قيل: لا تكتبـه الحفظة، وقيل: إن ليس فيه رياء، كذا قال الإمام أحمد وغيره، وكان بعضهم يودّ لو تمكن من عبادة لا تشعر بها الملائكة الحفظة»[8].

إن الصيام وإن كان فيه كسـر للنفس، وقمع لشهواتها، إلا أنه – وسائر العبادات – «غذاء الإنسان وقوته وصلاحه وقوامه، كمـا عليه أهل الإيمان، وكما دلّ عليه القرآن فغالب الشـرائع (؟؟؟؟؟؟) قرة العيون، وسـرور القلـوب، ولذات الأرواح، وكمال النعيم»[9].

يقـول ابن القيم: «من له أدنى تجربة وشـوق يعلم اسـتغناء الجسم بغذاء القلب والروح عن كثير من الغذاء الحيواني، لا سيما المسرور الفرحان الظافر بمطلوبه الذي قرّت عينه بمحبوبه، وتنعّم بقربـه، والرضى به، وألطاف محبوبـه وهداياه.. أفليس في هذا أعظم غذاء لهذا المحبّ؟»[10]. وكان ابن تيمية – رحمه الله – قليل تناول الطعام والشراب، وينشد كثيراً هذا البيت:

لـهـا أحـاديـث مـن ذكـراك تشغلها
عـن الـشـراب وتلهيها عـن الـزاد[11]

ونختم المقال بشيء من فتوحات ابن القيم في هذا الصدد، حيث يقول: «خُلق بدن ابن آدم من الأرض، وروحه من ملكوت السماء، وقُرِن بينهما، فإذا أجاع بدنه وأسـهره وأقامه في الخدمة (العبادة) وَجَدت روحه خفةً وراحةً، فتاقت إلى الموضع الذي خلقت منه، واشتاقت إلى عالمها العلوي؛ وإذا أشبعه ونعّمه ونوّمه، أخلد البدن إلى الموضع الذي خُلِق منه فانجذبت الروح معه فصارت في السجن..»[12].

(١) ينظر الدرء: (١/١١٢)، (٢/١٨٥)، (٤/٧٢)، (١٠/١٨٥).
(٢) جامع الرسائل: (٢/٤٥).
(٣) أخرجه البخاري.
(٤) ينظر: فتح الباري لابن حجر (٤/١٠٤).
(٥) فتح الباري (٤/١٠٤).
(٦) أخرجه البخاري وغيره.
(٧) جامع الرسائل، (٢/٢٣١ – ٢٣٣) باختصار.
(٨) لطائف المعارف، ص ١٦٢.
(٩) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١/٥٦).
(١٠) زاد المعاد (٢/٣٣).
(١١) الآداب الشرعية لابن مفلح (٢/٤٩٧).
(١٢) الفوائد ص ١٨٧.

أحكام القنوت في رمضان

د. أحمد محمد ذي النورين

الحمد لله الذي سهَّل سبيل الهداية، وأحاط السنة بما يناسبها من عناية، والصلاة والسلام على من بعثه الله للعالمين بشيراً ونذيراً، ورتب النجاة على طاعته واتباع هديه والتزام سنته أولاً وأخيراً، وبعد:

فإن للدعاء شأناً عظيماً ومكانة عالية نوه بها القرآن الكريم وصدحت بها السنة المطهرة؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، كما صح عن النبي ﷺ أنه قال: «الدعاء هو العبادة»[1]، وهذا اللفظ يطول دعاء المسألة والطلب، ودعاء الثناء والحمد.

ونظراً لإقبال أنفس المسلمين على الطاعات في شهر رمضان المبارك أكثر من غيره، واتسامهم فيه بالجأر إلى الله سبحانه والتزامهم بالقنوت خاصة؛ فإن هذا المقال ستدور محاوره حول القنوت في رمضان، وسيكون استهلاله بتعريفه:

(١) أخرجه أبو داود في باب الدعاء/ ح (١٤٧٩)؛ والترمذي في باب ومن سورة البقرة/ ح (٢٩٦٩) وقال: (حديث حسن صحيح)؛ وابن ماجه في باب فضل الدعاء/ ح (٣٨٢٨) وصححه الألباني؛ وأخرجه الإمام أحمد (١٨٣٥٢) في مسند النعمان بن بشير رضي الله عنهما وصحح إسناده محققوه.

تعريف القنوت:

القنوت في اللغة: يتمحور معناه حول الطاعة والخير في دين؛ يقول ابن فارس: (القاف والنون والتاء أصل صحيح يدل على طاعة وخير في دين، لا يعدو هذا الباب.

والأصل فيه الطاعة، يقال: قنت يقنت قنوتاً، ثم سمي كل استقامة في طريق الدين قنوتاً، وقيل لطول القيام في الصلاة قنوت، وسمي السكوت في الصلاة والإقبال عليها قنوتاً؛ قال الله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨][١]).

وقد جاء القنوت بمعانٍ لم يخرج فيها عن معنى الاستقامة على الدين والانقياد لأمر الله تعالى، ومن ذلك:

- القنوت: بمعنى لزوم الطاعة مع الخضوع، كما جاء في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

- القنوت بمعنى طول القيام في الصلاة، ومنه ما جاء في حديث جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَفْضَلُ الصَّلَاةِ طُولُ الْقُنُوتِ»[٢].

- القنوت بمعنى الانكباب على العبادة، قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾ [النحل: ١٢٠].

وقد نظم المعاني التي يأتي بها لفظ (القنوت) زين الدين العراقي – رحمه الله – بقوله:

وَلَفْظ الْقُنُوت أُعْدُدْ مَعَانِيَهُ تَجِد
مَزِيدًا عَلَى عَشْر مَعَانِي مَرْضِيَّهْ
دُعَاءٌ، خُشُوعٌ، وَالْعِبَادَة، طَاعَةٌ،
إِقَامَتهَا، إِقْرَاره بِالْعُبُودِيَّهْ
سُكُوتٌ، صَلَاةٌ، وَالْقِيَام، وَطُولهَ
كَذَاك دَوَام الطَّاعَة الرَّابِح النِيَهْ[٣]

فاتضح تعدُّد المعاني اللغوية للقنوت وإن لم تخرج كلها عن الخيرية والفضل والطاعة.

أما القنوت في الاصطلاح الشرعي فيعني الدعاء حال القيام في الصلاة؛ وذلك لأن الدعاء عامةً أجلُّ الطاعات وأخير العبادات – أحرى إذا كان في الصلاة، وقيل: لأنه يكون في القيام قبل الركوع أو بعده فسمي باسم لازمه وهو القيام[٤].. فالقنوت إذاً الدعاء في محل مخصوص من القيام في الصلاة[٥].

ومن تيسير الله تعالى لأمر القنوت وتبيينه لمعالم منهجه، أن جعل في القرآن الكريم والسنة المطهرة من جوامع الدعاء ما فيه مؤتسى للمتبع وغنية للداعي غير المبتدع، فالأولى معرفة تلك الجوامع وامتثالها حتى لا يسقط الداعي في مهوى مخالفة السنة، ويقع في الإثم من حيث أراد الطاعة.

(١) معجم مقاييس اللغة، (٥/٣١).
(٢) أخرجه مسلم في باب أفضل الصلاة طول القنوت/ ح (٧٥٦).
(٣) انظر: تاج العروس من جواهر القاموس، (٥/٤٧).
(٤) المرجع نفسه.
(٥) انظر: القاموس الفقهي، ص: ٣٠٩.

ومن أبرز مخالفات القنوت في رمضان:

• **التطويل المخل في الدعاء**، والتنافس فيه، وتكلف الإبداع في مقاطعه، مع أن أدعية القنوت المروية عن النبي ﷺ وصحابته رضي الله عنهم، كلها أدعية مختصرة جامعة؛ ولهذا سعى بعض علماء السلف إلى تحديد مقدار القنوت، ومن ذلك ما ذكره علاء الدين السمرقندي حين عدَّد أحكام القنوت قائلا: وَمِنْهَا مِقْدَار الْقُنُوت ذكر فِي الْكتاب [أنه] مِقْدَار سُورَة: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١] أَو ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١][٦]. وقال علاء الدين الكاساني: (وَأَمَّا مِقْدَارُ الْقُنُوتِ فَقَدْ ذَكَرَ الْكَرْخِيُّ أَنَّ مِقْدَارَ الْقِيَامِ فِي الْقُنُوتِ مِقْدَارُ سُورَةِ ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]، وَكَذَا ذُكِرَ فِي الْأَصْلِ؛ لِمَا رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ «كَانَ يَقْرَأُ فِي الْقُنُوتِ اللَّهُمَّ إنَّا نَسْتَعِينُكَ، اللَّهُمَّ اهْدِنَا فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَكِلَاهُمَا عَلَى مِقْدَارِ هَذِهِ السُّورَةِ». وَرُوِيَ أَنَّهُ ﷺ «كَانَ لَا يُطَوِّلُ فِي دُعَاءِ الْقُنُوتِ»)[٧].

وعليه فإن الإمام يمنع من التطويل الذي يشق على المأمومين.

ومن أبرز أدعية القنوت ما جاء عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: (علَّمني رسول الله ﷺ كلمات أقولهن في قنوت الوتر: «اللهم اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت، وقني شرَّ ما قضيت، فإنك تقضي ولا يقضى عليك، إنه لا يذل من واليت، تباركت ربنا وتعاليت»)[٨].

إن تطويل دعاء القنوت يؤدي إلى غفلة كثير من الداعين عن مقاصد الدعاء؛ لما ينتابهم من السآمة والإعياء لطول القيام واستمرار رفع الأيدي.

(٦) تحفة الفقهاء. (١/٢٠٣).
(٧) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع. (١/٢٧٣).
(٨) أخرجه أحمد (١/١٩٩)؛ وأبو داود، كتاب الصلاة، باب القنوت في الوتر، رقم (١٤٢٥)؛ والترمذي، كتاب الصلاة، باب ما جاء في القنوت في الوتر، رقم (٤٦٤)؛ والنسائي، كتاب قيام الليل، باب الدعاء في الوتر، رقم (١٧٤٥)؛ وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة، باب ما جاء في القنوت في الوتر، رقم (١١٧٨).

• **الإعراض عن الأدعية المأثورة في القرآن وصحيح السنة** والاعتياض عنها بأدعية مخترعة؛ لا شك أنه آلت للثواب لما في التزام السنة ومهيع السلف من البركة والخيرية، ذلك أن عدم التزام الأدعية النبوية وتجشم ابتكار أدعية غير معروفة، ينافي ما نص عليه كثير من أهل العلم من أن قنوت الوتر في رمضان لا يزاد فيه على ما ورد في السنة النبوية، يقول الإمام النووي: (السنة في لفظ القنوت: «اللهم اهدني فيمن هديت وعافني فيمن عافيت وتولني فيمن توليت وبارك لي فيما أعطيت وقني شر ما قضيت فإنك تقضي ولا يقضى عليك وإنه لا يذل من واليت تباركت ربنا وتعاليت». هذا لفظه في الحديث الصحيح بإثبات الفاء في «فإنك» والواو في «وإنه لا يذل»).

إلى أن قال: (فإن ألفاظ الأذكار يحافظ فيها على الثابت عن النبي ﷺ)[1].

ثم عرض الخلاف حول الزيادة على المأثور في الدعاء قائلا: (واعلم أن القنوت لا يتعين فيه دعاء على المذهب المختار، فأي دعاء دعا به حصل القنوت، ولو قنت بآية أو آيات من القرآن العزيز وهي مشتملة على الدعاء حصل القنوت[2]، ولكن الأفضل ما جاءت به السنة[3].

ولو قنت بالمنقول عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كان حسناً، فقد روي أنه قنت في الصبح بعد الركوع فقال: «اللهم اغفر لنا وللمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات وألّف بين قلوبهم وأصلح ذات بينهم وانصرهم على عدوك وعدوهم. اللهم العن كفرة أهل الكتاب الذين يصدون عن سبيلك ويكذبون رسلك ويقاتلون أولياءك، اللهم خالف بين كلمتهم وزلزل أقدامهم وأنزل بهم بأسك الذي لا ترده عن القوم المجرمين. بسم الله الرحمن الرحيم اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ونثني عليك ولا نكفرك ونخلع ونترك من يفجرك. بسم الله الرحمن الرحيم اللهم إياك نعبد ولك نصلي ونسجد وإليك نسعى ونحفد ونخشى عذابك ونرجو رحمتك إن عذابك الجد بالكفار ملحق»)[4]. قال النووي: (وقوله: «اللهم عذب كفرة أهل الكتاب»؛ إنما اقتصر على أهل الكتاب لأنهم الذين كانوا يقاتلون المسلمين في ذلك العصر، وأما الآن فالمختار أن يقال: (عذب الكفرة) ليعم أهل الكتاب وغيرهم من الكفار، فإن الحاجة إلى الدعاء على غيرهم أكثر والله أعلم. قال أصحابنا: - والكلام للنووي - يستحب الجمع بين قنوت عمر رضي الله عنه وبين ما سبق، فإن جمع بينهما فالأصح تأخير قنوت عمر، وفي وجه يستحب تقديمه. وإن اقتصر فليقتصر على الأول، وإنما يستحب الجمع بينهما إذا كان منفرداً أو إمامَ محصورين يرضون بالتطويل)[5].

كما أن التنكيب عن مهيع السلف في القنوت وغيره مفض إلى الغفلة والتردد، قائد إلى الشك في الاستجابة، خلافاً لما دأب عليه السلف من اليقين على تحققها، تجسيداً لأمر النبي ﷺ: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافل»[6]. وما كانوا عليه من الرغبة في جوامع الدعاء تأسياً بالمصطفى ﷺ؛ كما قالت عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ يستحب الجوامع من الدعاء ويدع ما سوى ذلك»[7].

وقد أثر عنهم النكير الشديد على المعتدين في الدعاء؛ لمنافاة عملهم صريح القرآن وصحيح السنة؛ قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]، وقال النبي ﷺ: «سيكون قوم يعتدون في الدعاء»[8]. ولما سمع سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ابنه يقول في دعائه: (اللهم إني أسألك الجنة ونعيمها وبهجتها وكذا وكذا..، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها وكذا وكذا.. قال: «يا بني، إني سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «سيكون قوم يعتدون في الدعاء»، فإياك أن تكون منهم، إنك إن أعطيت الجنة أعطيتها وما فيها من الخير، وإن أعذت من النار أعذت منها، وما فيها من الشر»)[9]. وسمع ابن مغفل رضي الله عنه ابنه يقول: (اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها، فقال: أي بني، سل الله الجنة، وتعوذ به من النار، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطهور والدعاء»)[10].

يقول ابن تيمية: (والمشروع للإنسان أن يدعو بالأدعية المأثورة، فإن الدعاء من أفضل العبادات، وقد نهانا الله عن الاعتداء فيه. فينبغي لنا أن نتبع فيه ما شرع وسنَّ، كما أنه ينبغي

(١) المجموع، (٣/ ٤٩٥).
(٢) المجموع شرح المهذب، (٣/ ٤٩٧).
(٣) الأذكار للنووي ص: ٨٨؛ وانظر: روضة الطالبين (١/ ٢٥٤).
(٤) المرجع نفسه، (٣/ ٤٩٨).
(٥) المرجع نفسه، (٣/ ٤٩٨).
(٦) أخرجه الترمذي/ ح (٣٤٧٩) وحسنه الألباني؛ وأخرجه الإمام أحمد في مسنده (٦٦٥٥) وضعف إسناده محققوه.
(٧) أخرجه أبو داود/ ح (١٤٨٢).
(٨) أخرجه أبو داود/ ح (١٤٨٠).
(٩) سبق تخريجه.
(١٠) أخرجه أبو داود في باب الإسراف في الماء/ ح ٩٦، وصححه الألباني.

لنا ذلك في غيره من العبادات. والذي يعدل عن الدعاء المشروع إلى غيره – وإن كان من أحزاب المشايخ – الأحسن له أن لا يفوته الأكمل الأفضل، وهي الأدعية النبوية، فإنها أفضل وأكمل باتفاق المسلمين من الأدعية التي ليست كذلك، وإن قالها الشيوخ... ومن أشد الناس عيباً من يتخذ حزباً ليس بمأثور عن النبي ﷺ، وإن كان حزباً لبعض المشايخ، ويدع الأحزاب النبوية التي كان يقولها سيد بني آدم وإمام الخلق وحجة الله على عباده)[1].

وقال في موضع آخر: (المنصوص المشهور عن الإمام أحمد أنه لا يدعو في الصلاة إلا بالأدعية المشروعة المأثورة، كما قال الأثرم: قلت لأحمد بماذا أدعو بعد التشهد؟ قال: بما جاء في الخبر. قلت له: أوليس قال رسول الله ﷺ: «ثم ليتخير من الدعاء ما شاء»[2]؟ قال: يتخير مما جاء في الخبر. فعاودته فقال: ما في الخبر.....)[3].

● **تكلُّف السجع**، وقد كرهه السلف ونهوا عنه، خاصة ما كان منه على غير سجية، وقد جاء قول ابن عباس رضي الله عنهما لمولاه عكرمة في النهي عن ذلك صريحاً: «انظر السجع من الدعاء فاجتنبه، فإني عهدت رسول الله ﷺ وأصحابه لا يفعلون إلا ذلك الاجتناب»[4]. وقال الغزالي: (المراد بالسجع هو المتكلَّف من الكلام، لأن ذلك لا يلائم الضراعة والذلة، وإلا ففي الأدعية المأثورة عن النبي ﷺ كلمات متوازنة غير متكلفة)[5].

وقد يكون التكلف في السجع من موانع الاستجابة كما قال الإمام القرطبي – عند ذكره أنواع الاعتداء في الدعاء: (ومنها أن يدعو بما ليس في الكتاب والسنة فيتخير ألفاظاً مفقرة وكلمات مسجعة قد وجدها في كراريس لا أصل لها ولا معول عليها، فيجعلها شعاره ويترك ما دعا به رسول الله ﷺ، وكل هذا يمنع من استجابة الدعاء)[6]. ويقول ابن حجر: (الاعتداء في الدعاء يقع بزيادة الرفع فوق الحاجة، أو بطلب ما يستحيل حصوله شرعاً، أو بطلب معصية، أو يدعو بما لم يؤثر خصوصاً ما وردت كراهته كالسجع المتكلف وترك المأمور)[7]. يقول ابن تيمية: (ينبغي للداعي إذا لم تكن عادته الإعراب أن لا يتكلف الإعراب. قال بعض السلف: إذا جاء الإعراب ذهب الخشوع، وهذا كما يكره تكلف السجع في الدعاء، فإذا وقع بغير تكلف فلا بأس به، فإن أصل الدعاء من القلب، واللسان تابع للقلب. ومن جعل همته في الدعاء تقويم لسانه أضعف توجه قلبه....)[8].

● **تلحين الدعاء**، وتطريب الصوت به، والمبالغة في ترتيله حتى يؤدَّى على هيئة قراءة القرآن، وذلك ممقوت؛ لما ينطوي عليه من التكلف المنافي لطابع هذه الشريعة المباركة؛ قال تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦] . قال الكمال بن الهمام: (مما تعارفه الناس في هذه الأزمان من التمطيط والمبالغة في الصياح والاشتهار لتحريرات النغم إظهاراً للصناعة النغمية لا إقامة للعبودية، فإنه لا يقتضي الإجابة، بل هو من مقتضيات الرد؛ فاستبان أن ذلك من مقتضيات الخيبة والحرمان)[9].

وقال: (ولا أرى أن تحرير النغم في الدعاء كما يفعله القراء في هذا الزمان يصدر ممن يفهم معنى الدعاء والسؤال، وما ذاك إلا نوع لعب، فإنه لو قدر في الشاهد سائل حاجة من ملك أدى سؤاله وطلبه بتحرير النغم فيه من الخفض والرفع والتطريب والترجيع كالتغني نسب ألبتة إلى قصد السخرية واللعب؛ إذ مقام طلب الحاجة التضرع لا التغني)[10]. وقال بكر أبو زيد: (فتسمع في دعاء القنوت عند بعض الأئمة في رمضان الجهر الشديد وخفض الصوت ورفعه في الأداء حسب مواضع الدعاء، والمبالغة في الترنم، والتطريب والتجويد، والترتيل، حتى لكأنه يقرأ سورة من كتاب الله – تعالى – ويستدعي بذلك عواطف المأمومين؛ ليجهشوا بالبكاء)[11].

فالمشروع للداعي أن يدعو بجوامع الدعاء من غير تكلف لسجع، ولا تمطيط لتلحين.

فالمبالغة في رفع الصوت بالدعاء تخالف توجيه القرآن العظيم، وسمت الهدي النبوي؛ يقول ربنا عز وجل: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ١١٠]، قال الإمام البخاري معلقاً على هذه الآية: (أسمعهم ولا تجهر، حتى يأخذوا عنك القرآن)[12]. وقال ابن جريج – رحمه الله: (يكره رفع

(١) الفتاوى (٢٢/ ٥٢٥).
(٢) أخرجه النسائي في باب تخيير الدعاء بعد الصلاة على النبي/ ح (١٢٩٨)، وصححه الألباني.
(٣) الفتاوى (٢٢/ ٤٧٤).
(٤) أخرجه البخاري في باب ما يكره من السجع في الدعاء/ ح (٦٣٣٧).
(٥) النشر في القراءات العشر (٢/ ٤٦٠).
(٦) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٢٢٦).
(٧) فتح الباري، (٨/ ١٤٨).
(٨) الفتاوى، (٢٢/ ٤٨٩).
(٩) فيض القدير، (١/ ٢٢٩).
(١٠) المرجع السابق نفسه.
(١١) انظر: تصحيح الدعاء للشيخ بكر أبو زيد ص ٨٣.
(١٢) صحيح البخاري في باب قول الله تعالى: ﴿أنزله بعلمه﴾/ ح (٧٤٩٠).

الصوت والنداء والصياح بالدعاء، ويؤمر بالتضرع والاستكانة)[1].

وقال الألوسي: (وترى كثيراً من أهل زمانك يعتمدون الصراخ في الدعاء خصوصاً في الجوامع حتى يعظم اللغط ويشتد وتستك المسامع وتشتد ولا يدرون أنهم جمعوا بين بدعتين، رفع الصوت في الدعاء وكون ذلك في المسجد)[2].

وقد أنكر النبي ﷺ على صحابته رضي الله عنهم رفعهم أصواتهم بالتكبير، فقال لهم: «اربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً بصيراً، وهو معكم، والذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»[3].

• **تحويل القنوت إلى خطب ومواعظ** بل ومنابر للتزلف للأمراء والرؤساء والكبراء، وهذا من الابتداع والتعدي في الدعاء؛ إذ لم ينقل مثله عن السلف، وإن ورد عن بعضهم جوازه في خطب الجمعة لا في قنوت الوتر، الذي هو داخل الصلاة، ذلك أن الأصل إتيان الإمام في دعاء القنوت بالأدعية التي لها صفة العموم، وصيغة الجمع، إلا إذا خص طائفة من المؤمنين واقعين في كرب عظيم، أو طائفة من المجرمين لشدة عداوتهم وقوة محاربتهم للإسلام، فهذا مشروع بلا خلاف؛ لما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «اللهم أنج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، والمستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف»[4]. ولما جاء عن عمر – رضي الله عنه – أنه كان يقول: « .. اللهم العن كفرة أهل الكتاب الذين يكذبون رسلك ويقاتلون أولياءك، اللهم خالف بين كلمتهم وزلزل أقدامهم، وأنزل بهم بأسك الذي لا ترده عن القوم المجرمين»[5]. وقد عقد ابن أبي شيبة في مصنفه: «باب في تسمية الرجل في القنوت». وقال العراقي في سرده لفوائد حديث أبي هريرة – رضي الله عنه: (فيه حجة على أبي حنيفة في منعه أن يدعى لمعين أو على معين في الصلاة، وخالفه الجمهور فجوَّزوا ذلك لهذا الحديث وغيره من الأحاديث الصحيحة)[6]. وإذا خص الإمام مأموميه بالدعاء فلا بأس، لكن الأولى تعميم الدعاء.

(١) تفسير الطبري، (١٠/٢٤٩).
(٢) في روح المعاني، (٨/١٣٩).
(٣) أخرجه البخاري في باب ما يكره من رفع الصوت في التكبير/ ح(٢٩٩٢)؛ ومسلم في باب استحباب خفض الصوت بالذكر/ ح (٢٧٠٤).
(٤) أخرجه البخاري في باب يهوي بالتكبير حين يسجد/ ح (٨٠٤)؛ ومسلم في باب استحباب القنوت في جميع الصلاة/ ح (٦٧٥).
(٥) أخرجه عبد الرزاق في المصنف، (٤٩٦٩).
(٦) طرح التثريب في شرح التقريب، (٢/٢٩١).

وأياً كان القول في التخصيص فإن ذلك لا ينبغي أن يُتخذ سنة مستمرأة في الصلاة[7].

وقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله قائلاً: (أما بعد، فإن ناساً من الناس قد التمسوا الدنيا بعمل الآخرة، وإن من القصاص قد أحدثوا في الصلاة على خلفائهم وأمرائهم عدل صلاتهم على النبي ﷺ، فإذا جاءك كتابي فمرهم أن تكون صلاتهم على النبيين ودعاؤهم على المسلمين عامة ويدَعوا ما سوى ذلك)[8].

قال صاحب المهذب: (وأما الدعاء للسلطان فلا يستحب، لما روي أنه سئل عطاء عن ذلك فقال إنه محدث، وإنما كانت الخطبة تذكيراً)[9].

قال النووي شارحاً لذلك: (وأما الدعاء للسلطان فاتفق أصحابنا على أنه لا يجب ولا يستحب، وظاهر كلام المصنف وغيره أنه بدعة، إما مكروه وإما خلاف الأولى، هذا إذا دعا له بعينه، فأما الدعاء لأئمة المسلمين وولاة أمورهم بالصلاح والإعانة على الحق والقيام بالعدل ونحو ذلك، ولجيوش الإسلام، فمستحب بالاتفاق. والمختار أنه لا بأس بالدعاء للسلطان بعينه إذا لم يكن مجازفة في وصفه ونحوها)[10].

قال ابن حجر: (وقد استثني من الإنصات في الخطبة ما إذا انتهى الخطيب إلى كل ما لم يشرع، مثل الدعاء للسلطان مثلاً. بل جزم صاحب التهذيب بأن الدعاء للسلطان مكروه. وقال النووي: محله إذا جازف، وإلا فالدعاء لولاة الأمر مطلوب. ومحل الترك إذا لم يخف الضرر، وإلا فيباح للخطيب إذا خشي على نفسه)[11].

• **الحرص المفرط على حضور الختمة** والدعاء المزعوم لختم القرآن، وهي بدعة فشت بين الناس.. وقد اختلف العلماء في حكم التنادي لختم القرآن على قولين:

– قول بمشروعية الدعاء لختم القرآن في صلاة التراويح أو الوتر؛ وقد روي عن الإمام أحمد، كما نقله عنه ابن قدامة قائلاً: (قال الفضل بن زياد: سألت أبا عبد الله فقلت: أختم القرآن، أجعله في الوتر أو في التراويح؟ قال: اجعله في

(٧) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية، (٢٣/١٠٩).
(٨) لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، (١/٥٥).
(٩) المجموع، (٤/٥٢١).
(١٠) المرجع نفسه.
(١١) الفتح (٢/٤١٥).

التراويح حتى يكون لنا دعاء بين اثنين، قلت كيف أصنع؟ قال: إذا فرغت من آخر القرآن فارفع يديك قبل أن تركع، وادع بنا ونحن في الصلاة وأطل القيام، قلت: بم أدعو؟ قال: بما شئت، قال: ففعلت بما أمرني وهو خلفي يدعو قائماً ويرفع يديه.

وقال حنبل: سمعت أحمد يقول في ختم القرآن: إذا فرغت من قراءة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١] فارفع يديك في الدعاء قبل الركوع، قلت: إلى أي شيء تذهب في هذا؟ قال: رأيت أهل مكة يفعلونه، وكان سفيان بن عيينة يفعله معهم بمكة. قال العباس بن عبد العظيم: وكذلك أدركنا الناس بالبصرة وبمكة، ويروي أهل المدينة في هذا شيئاً، وذكر عن عثمان بن عفان)[١].

- قول بمشروعية دعاء الختمة، لكن بعد الفراغ من الصلاة، لا داخلها، وهذا لا إشكال فيه؛ لأنه دعاء إثر قربة من أعظم القرب، ولما ورد عن أنس - رضي الله عنه: (أنه كان إذا ختم القرآن جمع أهله ودعا)[٢].

يقول بكر أبو زيد في مقدمة بحثه النفيس (مرويات دعاء ختم القرآن): (وقد عهد من مدارك الشرع أن أمور العباد التعبدية توقيفية لا تشرع إلا بنص نصبه الله على حكمه مسلَّم الثبوت والدلالة..). ثم طفق ينتقد ما روي في شأن بالختمة وضعفه كله، سوى قول مجاهد (الرحمة تنزل عند ختم القرآن)[٣].

وما ذكر عن أنس رضي الله عنه أنه كان إذا أراد أن يختم جمع أهله ودعا[٤]. ثم نقل رحمه الله قول الإمام مالك حين سئل عن الدعاء بعد ختم القرآن؟: (ما سمعت أنه يدعو عند ختم القرآن وما هو من عمل الناس)[٥]. وأتبع ذلك بقول ابن رشد شارحاً لكلام مالك نفسه: (الدعاء حسن، لكنه كره ابتداع القيام له عند تمام القرآن، وقيام الرجل مع أصحابه لذلك عند انصرافهم من صلاتهم واجتماعهم لذلك عند خاتمة القرآن كنحو ما يفعل بعض الأئمة عندنا من الخطبة على الناس عند الختمة في رمضان والدعاء فيها وتأمين الناس على دعائه؛ وهي كلها بدع محدثات لم يكن عليها السلف)[٦].

وقد كان الأئمة يكرهون ما لم يشرع من البدع، سواء تمحضت أو كانت إضافية؛ ولهذا نجد مالكاً يجيب عندما سئل عن قيام الرجل بعد فراغه من الصلاة يدعو قائلاً: (ليس هذا بصواب ولا أحب لأحد أن يفعله)[٧].

زمن القنوت:

من أهل العلم من ذهب إلى استحباب قنوت الوتر في النصف الثاني من رمضان، وهو مذهب الشافعي ورواية عن مالك وأحمد - رحمهم الله تعالى، ومنهم من رأى أنه مسنون في السنة كلها، كما هو مذهب الحنابلة والحنفية. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (وأما القنوت في الوتر فجائز وليس بلازم، فمن أصحابه - أي النبي ﷺ - من لم يقنت، ومنهم من قنت في النصف الأخير من رمضان، ومنهم من قنت السنة كلها، والعلماء منهم من يستحب الأول كمالك، ومنهم من يستحب الثاني كالشافعي وأحمد في رواية، ومنهم من يستحب الثالث كأبي حنيفة والإمام أحمد في رواية. والجميع جائز، فمن فعل شيئاً من ذلك فلا لوم عليه)[٨].

وفي حديث أبي رضي الله عنه أن النبي ﷺ: «كان يوتر فيقنت قبل الركوع»[٩]. وقد تقدمت وصاته ﷺ لسبطه الحسن بن علي رضي الله عنهما.

يقول ابن تيمية: (وحقيقة الأمر أن قنوت الوتر من جنس الدعاء السائغ في الصلاة، من شاء فعله ومن شاء تركه.. وإذا صلى بهم قيام رمضان، فإن قنت في جميع الشهر، فقد أحسن، وإن قنت في النصف الأخير، فقد أحسن، وإن لم يقنت بحال، فقد أحسن)[١٠].

ورغم أن العلماء اتفقوا على مشروعية القنوت عند النوازل في صلاة الفجر[١١]، إلا أنهم اختلفوا في مشروعيته في الوتر

(١) المغني (٢/ ٦٠٨).
(٢) أخرجه الدارمي في السنن في كتاب فضائل القرآن، باب في ختم القرآن، (٢/ ٤٦٩).
(٣) تفسير القرطبي، (١/ ٣١).
(٤) أخرجه الدارمي، (٢/ ٣٣٦)، ونسبه في منتخب كنز العمال (١/ ٣٩٢) لابن النجار.
(٥) مرويات ختم القرآن ص: ٤٨؛ والمدخل لابن الحاج (٢/ ٢٩٩).
(٦) البيان والتحصيل، (١/ ٣٦٢).
(٧) البيان والتحصيل، (١/ ٣٦٢).
(٨) الفتاوى الكبرى، (٢/ ٢٤٥).
(٩) أخرجه ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها باب ما جاء في القنوت قبل الركوع وبعده/ ح (١١٨٢)، وصححه الشيخ الألباني في إرواء الغليل (٢/ ١٦٧، حديث رقم ٤٢٦).
(١٠) الفتاوى الكبرى، (٢/ ٢٧١).
(١١) انظر: أسهل المدارك للكشناوي، (١/ ٣٠١).

على ثلاثة مذاهب كما صرح بذلك ابن تيمية، وبعضهم على أربع، وهو الذي اعتمدته:

١ - كراهية القنوت في الوتر: وهو القول المشتهر عند المالكية، قال الإمام مالك: (وليس العمل على القنوت في رمضان؛ لا في أوله، ولا في آخره، ولا في نافلة، ولا في الوتر أصلاً)[١]. وحجتهم عدم ثبات دليل في ذلك، وقد ذكر ابن تيمية هذا، فقال: (وأما قنوت الوتر فللعلماء فيه ثلاثة أقوال: قيل: لا يستحب بحال، لأنه لم يثبت عن النبي ﷺ أنه قنت في الوتر)[٢]، وذكر باقي الأقوال. قال ابن حجر: (قال الخلال عن أحمد: لا يصح فيه شيء عن النبي ﷺ ولكن عمر كان يقنت)[٣]. وقال ابن خزيمة: (ولست أحفظ خبراً ثابتاً عن النبي ﷺ في القنوت في الوتر)[٤].

٢ - سنية القنوت في النصف الأخير من رمضان: وقد روي عن علي وأبي بن كعب[٥]، والزهري[٦]. يقول ابن تيمية: (وقيل: بل يقنت في النصف الأخير من رمضان كما كان أبي بن كعب يفعل)[٧]. وروى ابن وهب وابن حبيب عن مالك: (أن ذلك مستحب في النصف الآخر من رمضان، فيقنت الإمام؛ يلعن الكفرة، ويؤمن من خلفه)[٨]. وهو قول ابن نافع من المالكية[٩]. والمشهور عند الشافعية[١٠].

وقد نص عليه الإمام أحمد حين سأله أبو داود: (القنوت في السنة كلها؟ قال: إن شئت. قال: فما تختار؟ قال: أما أنا فلا أقنت إلا في النصف الباقي، إلا أن أصلي خلف الإمام فيقنت فأقنت معه)[١١]. واستدلوا بما ورد في ذلك عن ابن عمر رضي الله عنهما[١٢].

٣ - سنية القنوت في رمضان: وهذا قول للمالكية، حيث نقل محمد بن يحيى عن مالك قوله: (يلعن الكفرة في رمضان إذا أوتر الناس، فصلى الركعتين، ثم قام في الثالثة، فركع، فإذا رفع رأسه من الركوع وقف يدعو على الكفرة ويلعنهم ويستنصر للمسلمين، ويدعو مع ذلك بشيء خفيف غير كثير...)[١٣]. وهو قول للشافعية[١٤].

٤ - سنية القنوت في الوتر على مدار السنة: وهذا قول ابن مسعود رضي الله عنه، وإبراهيم النخعي[١٥]. وقال أبو حنيفة وأحمد: (يستحب القنوت في الوتر في جميع السنة)[١٦]. يقول ابن تيمية: (وقيل: بل يستحب في جميع السنة، كما ينقل عن ابن مسعود وغيره، ولأن في السنن أن النبي ﷺ علم الحسن بن علي - رضي الله عنهما - دعاء يدعو به في قنوت الوتر)[١٧].

وقال الشافعي: (يستحب في النصف الآخر من شهر رمضان)[١٨]. وحجتهم في ذلك وصاة النبي ﷺ لسبطه المتقدمة. وحديث أبي بن كعب رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ قنت في الوتر»[١٩]، فضلاً عمَّا سبق ذكره من قنوت عمر وغيره من الصحابة رضي الله عنهم.

موضع القنوت من الركوع:

لقد اختلف العلماء في موضع القنوت على ثلاثة أقوال:

١ - القنوت قبل الركوع: وقد روي عن عمر وعلي وابن مسعود وأبي موسى والبراء بن عازب وابن عمر وابن عباس وأنس وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهم أجمعين[٢٠]. وهو قول المالكية والحنفية[٢١]. واستدلوا بما رواه عبد الرحمن بن أبزى قال: (صليت خلف عمر بن الخطاب صلاة الصبح فسمعته يقول بعد القراءة قبل الركوع: «اللهم إياك نعبد..»)[٢٢]. وكذلك بقول علقمة: (إن ابن مسعود وأصحاب النبي ﷺ كانوا يقنتون في الوتر قبل الركوع)[٢٣]. كما احتجوا بأحاديث كلها ضعيفة[٢٤].

٢ - القنوت بعد الركوع: وهذا القول يعضده حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «إن النبي ﷺ كان إذا أراد أن يدعو على

(١) الحوادث والبدع للطرطوشي، ص:٦١.
(٢) الفتاوى الكبرى، (٢٢/ ٢٧١).
(٣) التلخيص الحبير، (٢/ ١٨).
(٤) صحيح ابن خزيمة، (٢/ ١٥١).
(٥) المغني، (١/ ٨٢٠).
(٦) أخرجه عبد الرزاق في المصنف، (٣/ ١٢١).
(٧) الفتاوى الكبرى، (٢٢/ ٢٧١).
(٨) الحوادث والبدع للطرطوشي؛ وانظر: الاستذكار لابن عبد البر، (٥/ ١٦٦).
(٩) انظر: أسهل المدارك للكشناوي، (١/ ٣٠٣).
(١٠) انظر: المجموع للنووي، (٤/ ١٥).
(١١) مسائل أحمد لأبي داود، ٦٦.
(١٢) أخرجه ابن أبي شيبة بسند صحيح، (المصنف ٢/ ٩٨).

(١٣) الحوادث والبدع، ص:٦١.
(١٤) المجموع، (٤/ ١٥).
(١٥) المغني، (١/ ٨٢٠).
(١٦) الحوادث والبدع، ص: ٦١؛ وانظر: بدائع الصنائع، (١/ ٢٧٣)؛ والإنصاف للمرداوي (٢/ ٢٧٠).
(١٧) الفتاوى الكبرى، (٢٢/ ٢٧١).
(١٨) الحوادث والبدع، ص: ٦١؛ والمجموع (٤/ ١٥).
(١٩) أخرجه أبو داود برقم (١٤٢٧)؛ والنسائي (١/ ١٤٨)؛ وابن ماجه برقم (١١٨٢)؛ وحسنه الألباني في الإرواء (٢/ ١٦٧).
(٢٠) انظر: المجموع، (٤/ ٢٤)؛ والمغني، (١/ ٨٢١).
(٢١) المغني، (١/ ٨٢١).
(٢٢) أخرجه البيهقي، (٢/ ٢١٠) وصححه الألباني في الإرواء (٢/ ٢٧١).
(٢٣) مصنف ابن أبي شيبة/ في القنوت قبل الركوع أو بعده/ ٦٩١١، (٢/ ٩٧). قال الحافظ في الدراية (ص ١١٥): (إسناده حسن).
(٢٤) انظر: المجموع، (٢/ ٢٤).

أحد، أو يدعو لأحد، قنت بعد الركوع»[1]. وحكاه ابن المنذر عن أبي بكر وعمر وعلي وأبي - رضي الله عنهم - وسعيد بن جبير، وهو الصحيح من مذهب الشافعية[2]. وكذلك وجه عند الحنابلة[3].

٣ - استنانه بعد الركوع وجوازه قبله، وقد قال بهذا القول أيوب السختياني[4]، وهو الصحيح من مذهب الحنابلة[5]. وقد ثبت أن النبي ﷺ قنت قبل الركوع[6]، كما ثبت أنه ﷺ قنت بعد الركوع[7]، فإذا قنت قبل الركوع ابتدأ به بعد الفراغ من القراءة بلا تكبير[8].

وإن كان الشيخ الألباني رجح كونه قبل الركوع؛ حيث قال: (والخلاصة أن الصحيح الثابت عن الصحابة هو القنوت قبل الركوع في الوتر)[9].

افتتاح القنوت:

هل يُفتتح القنوت بالثناء والحمد والصلاة على النبي ﷺ أم لا؟

١ - قول بعدم سنية افتتاح القنوت بالحمد والثناء، ودليله حديث الحسن المتقدم، إذ لم يرد فيه الثناء والحمد ولا الصلاة على النبي ﷺ وإن ذكر بعض العلماء اختتامه بالصلاة على النبي ﷺ كما سيأتي. وكون الدعاء عبادة والعبادات توقيفية، إضافة إلى أنه لم يثبت نقل دال على افتتاح القنوت بغير دعائه. وهذا قول الشيخ ابن باز[10].

٢ - قول بسنية ابتداء القنوت بالثناء والحمد والصلاة على النبي ﷺ، وهو مذهب الحنابلة، ودليله حديث فضالة أن النبي ﷺ سمع رجلاً يدعو في صلاته فلم يحمد الله ولم يصلِ على النبي ﷺ، فقال: عجل هذا، ثم قال: «إذا دعا أحدكم فليبدأ بتحميد ربه والثناء عليه ثم يصلي على النبي ثم يدعو بما شاء»[11]. وبما ذكر من قنوت عمر - رضي الله عنه - في صلاة الصبح[12]. يقول الإمام أحمد: (يدعو بدعاء عمر: «اللهم إنا نستعينك...» وبدعاء الحسن: «اللهم اهدنا فيمن هديت...»)[13] - ولأن الأصل في الدعاء ابتداؤه بالحمد والثناء والصلاة على النبي ﷺ.

يقول النفراوي في إطار تعداده لآداب الدعاء: (وَمِنْهَا: ابْتِدَاؤُهُ بِالْحَمْدِ وَالصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ)[14]. وقال الصاوي: (ويندب ابتداؤه بالحمد والصلاة على النبي)[15]. وقد رجح الإمام النووي استحباب اختتام القنوت بالصلاة على النبي ﷺ؛ لما ورد في آخر حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما من قوله: «وصلى الله على النبي»[16].

صفة التأمين:

من السنة التأمين على الدعاء، وهو قول آمين، أي اللهم استجب، فينبغي أن يفرق المؤمن بين مواضع التأمين والتقديس والاستعاذة والتنزيه والدعاء والخبر، قال معاذ القاري - رضي الله عنه - في قنوته ذات مرة: «اللهم قحط المطر»، فقالوا: «آمين»، فلما فرغ من صلاته قال: «قلت: اللهم قحط المطر فقلتم: آمين، ألا تسمعون ما أقول ثم تقولون: آمين»[17]. والتأمين على الدعاء في الصلاة يكون سراً في غير الفاتحة؛ إذ نصت الأحاديث على الجهر بالتأمين بعد قراءتها جهراً، كما في حديث وائل بن حجر - رضي الله عنه - قال: «سمعت رسول الله ﷺ قرأ ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]، فقال: «آمين» ورفع بها صوته»[18]. والأصل في الدعاء خفض الصوت والاستكانة والتضرع؛ لقول الله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥].

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

---

(١) أخرجه البخاري في باب ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾/ ح (٤٥٦٠).
(٢) انظر: المغني، (١/ ٨٢١)؛ والمجموع (٤/ ٢٤).
(٣) انظر: الفروع، (٢/ ١٧١).
(٤) انظر: المجموع، (٤/ ٢٤).
(٥) انظر: الفروع، (٢/ ١٧١)؛ المغني (١/ ٨٢١).
(٦) أخرجه أبو داود في الصلاة باب القنوت في الوتر (١٤٢٧)؛ والنسائي (١/ ١٤٨)؛ وابن ماجه في إقامة الصلاة باب ما جاء في القنوت قبل الركوع (١١٨٢)؛ والبيهقي (٢/ ٣٩) عن أبي بن كعب - رضي الله عنه؛ وصححه الألباني (الإرواء ٢/ ١٦٧).
(٧) أخرجه البخاري في المغازي باب غزوة الرجيع (٤٠٨٩)؛ ومسلم في المساجد باب استحباب القنوت في جميع الصلاة (٦٧٧) (٦٠٤) عن أنس رضي الله عنه.
(٨) الممتع لابن عثيمين، (٤/ ٢٦).
(٩) الإرواء، (٢/ ١٦٦).
(١٠) فتاوى ابن باز، (٤/ ٢٩٣).
(١١) أخرجه أبو داود في باب الدعاء/ ح (١٤٨١)؛ والترمذي/ ح (٣٤٧٧)؛ وصححه الألباني في تعليقه عليهما؛ وكذلك أخرجه الإمام أحمد (٢٣٩٣٧) وصحح إسناده محققوه.
(١٢) أخرجه البيهقي، وضعفه الألباني في الإرواء (٢/ ٢٧١).
(١٣) الإنصاف للمرداوي، (٢/ ١٧١).
(١٤) الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، (٢/ ٣٣٠).
(١٥) حاشية الصاوي على الشرح الصغير، (٢/ ٥٦).
(١٦) حاشية الصاوي على الشرح الصغير، (٢/ ٥٦).
(١٧) مصنف عبد الرزاق في باب قيام رمضان/ ح (٧٧٢٤).
(١٨) سنن أبي داود باب التأمين وراء الإمام/ ح (٩٣٢)، وصححه الألباني في تعليقه عليه.

عملياً..
كيف نربي أبناءنا في رمضان؟

سحر شعير

بقدر فرحتنا الكبيرة واشراق نفوسنا لقدوم شهر رمضان، علينا ألا ننسى ولا للحظة واحدة واجباتنا التربوية تجاه أبنائنا في هذا الشهر المبارك، حيث يُعدُّ شهر رمضان الكريم بحق غنيمةً للمربين، قال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٥ – ١٨٦].

مهمة التربية وبناء النفوس الصالحة ليست مهمة سهلة، بل تحتاج إلى جهد كبير ويقظة تربوية تجعل المربي لا يفوّت موقفاً أو حدثاً أو مناسبة تمرّ به وبأبنائه، إلا أحسن استغلالها لمصلحة تربيتهم؛ فالكلمة تفعل في النفس وقت الحدث ما لا تفعله في غيره من الأوقات، وتؤدي إلى ترسيخ المعاني التربوية والعبادات المرتبطة بهذه المناسبة حتى تعود هيئةً راسخةً في نفس الطفل يشبّ عليها ولا يتركها طوال حياته.

وفي رحاب هذا الشهر الكريم ننهل من عطاياه التربوية من خلال عدة محاور يجب أن يركز عليها المربي في هذا الشهر الكريم.

أهميـة تدريب الطفل علـى أداء العبـادات مبكراً

مرحلة الطفولة هي المرحلة الذهبية لتعليم الطفل والتأثير فيـــه، لذلك نجد الإســـلام يوجّه الآباء والأمهـــات إلى تدريب أطفالهـــم على امتثال الطاعـــات وأداء الفرائض في طفولتهم، كالصـــلاة والصيام والحجـــاب - للبنات، حتى إذا بلغوا ســـن التمييز واظبوا عليها بســـهولة ويسر، حيث ألفوا وتعودوا على أدائها بانتظام وأصبحت جزءاً من كيانهم.

وقـــد جاء عـــن المربـــي الأعظـــم ﷺ توجيـــه الصحابة والصحابيات إلى تدريب الصغـــار على عبادة الصيام، وإعداد الأمهات لِلُعبٍ يلهّونهم بها إذا بكوا جوعاً، فعن الربيع بنت معوذ قالت: «كنا نَصُومُ ونُصـــوِّم صبياننا الصغار منهم، ونذهب إلى المســـجد، فنجعل لهم اللعبة من العهن (أي الصوف)، فإذا بكى أحدهم من الطعام أعطيناه إياه، حتى يكون عند الإفطار» (أي أعطيناه هذا الصوف يتلهى به حتى يحين موعد الإفطار)[1].

مراعاة الرفق والتدرُّج أثناء تعويد الأطفال على الصيام

- فنبدأ مع الطفل بالصوم الجزئي بأن يتعود الإمساك إلى منتصـــف النهار أو إلى العصر، حتى إذا قوي على ذلك واعتاده انتقل إلى مرحلة تالية، كذلك يمكن أن يصوم الطفل يوماً كاملاً ثم يفطر أياماً ليستريح ويزيد في عدد الأيام بعد ذلك تدريجياً.

- نجنّب الطفل الصوم في الأيام شـــديدة الحرّ، وكذلك يمنع من الإفراط في النشاط الحركي والرياضة أثناء الصوم، وفي حالة إحساس الطفل بالجوع الشديد ينصح بالإفطار وعدم المكابرة.

- ومما يعين الطفل على الصيام أن يلتزم بوجبة الســـحور مع الكبار، على أن نشـــرح له - ببساطة - أهمية السحور من حيث اتباع ســـنة الرســـول ﷺ، وما فيه مـــن البركة، وأنه من الأسباب التي تقوِّي أجسادنا على الصيام.

- ومما يعينه كذلك أن نحكي له عن صوم الكائنات الأخرى غير الإنسان، كصوم العناكب، وصوم أسماك السلمون، وبإمكان المربي العثور على الكثيـــر من هذه المعلومات من خلال البحث على شبكة الإنترنت.

- دوام تشـــجيع الطفل ومكافأته عند اجتيازه فترة الصوم المحـــددة بنجاح، بزيادة مصروفه مثلاً، أو الثناء عليه، أو منحه الألقاب الحسنة.

(١) أخرجه البخاري، باب: صوم الصبيان، ج/ ٣، ص: ٨٢.

غرس معاني العطاء والتكافل في نفس الصغير

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ رَسُـــولُ اللَّهِ ﷺ أجود الناس وَكَانَ أجـــود مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُـــهُ الْقُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ أجود بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ»[2].

يُعدُّ شـــهر رمضان من أحســـن المناسبات التي يتعلم فيهـــا الطفل معنى التكافل، والشـــعور بالمســـؤولية نحو الفقير والمســـكين، وقلـــوب الصغار رقيقة لينة شـــديدة التأثر بالبيئة الأسرية وسلوك الكبار أمامهم، فعندما يرى الأطفال آباءهم وهـــم يُخرجون صدقاتهم وزكاة فطرهم ويشاركونهم هذا العمل؛ فسيتعلمون منهم حب الصدقة، والرحمة بالفقـــراء، ويدركون معنى التكافل وبُغض الأثرة والأنانية.. وتدريب الصغار على الممارســـة العلمية للبذل ورعاية الفقراء هدي الســـلف الصالـــح رضي الله عنهم أجمعـــين، «فقد ورد عن ابن عمر رضـــي الله عنهما أنه جاءه سائل يريد صدقة، فقال لابنه: أعطه ديناراً، واجعله في يده!» تدريباً له على ذلك[3].

(٢) أخرجه البخاري.

(٣) التمهيد لابن عبد البر، ٤/ ٢٥٦.

التربية على المعنى الكامل لتعظيم شعائر الله

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]. ورد في معنى «شعائر الله» أنها: المعالم الظاهرة من دينه التي جعل الله تبارك وتعالى بعضها مكانياً، وجعل بعضها زمانياً، ومن ذلك الأشهر الحرم وشهر رمضان الذي شرّفه الله تعالى بنزول القرآن وفرض الصيام فيه.

وتعظيم الشعائر لا يكون بالإقبال على الطاعات والاستزادة منها فقط، فهذا المعنى مبتور، ولا يكتمل تعظيم الشعائر إلا بتجنب ما حرم الله تعالى، وأن يرى المسلم أن ارتكاب المعصية في الأيام الفاضلة أشد قبحاً وأعظم جرماً منه في غيرها.

ولا يخفى على أحد تلك الحرب المعلنة من الآلة الإعلامية بهدف إفساد الشعائر لا تعظيمها في شهر رمضان المعظم، وتحويل الشهر الكريم من موسم يزداد فيه المؤمن إيماناً إلى أكبر سوق يروج فيه أهل الباطل (الفن) لبضاعتهم، الأمر الذي يختزل معنى تعظيم الشهر الكريم في أذهان الكثيرين في صورة أداء الطاعات دون أن يتلازم معها الانتهاء عن المحرمات.. ولذلك لا نبالغ إذا قلنا إن المواد الإعلامية الفاسدة التي تبثها الشاشة الصغيرة داخل البيوت تُعدُّ التحديَ الأكبر الذي يواجهه المربي في رمضان من كل عام، فالمربي المسؤولُ الأول عن وقاية أبنائه من النار بمنع تعرضهم لأسباب دخولها، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيرها: (اعملوا بطاعة الله، واتقوا معاصي الله، ومروا أهليكم بالذكر ينجيكم الله من النار)[١].

وليعلم المربي أن مواجهة هذه الفتنة لن تأتي أبداً بإصدار الأوامر والفرمانات، أو نزع الأسلاك والكابلات، لكن تأتي أولاً: بالقدوة الحسنة التي تتمثل في موقف الوالدين الواضح من هذه البرامج موقفاً حازماً لا يعتريه تذبذب أو رَوَغَان.

ثانياً: تربية الأبناء على المراقبة لله تعالى، وتذكيرهم بالآيات والأحاديث التي تدعم هذا الجانب، مثل قول الله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء: ٣٦]، ومعناه التحذير من أن تسمع ما لا يحل لك، أو تنظر إلى ما لا يحل لك، أو تعتقد ما لا يحل لك، ويردد المربي على أسماعهم الأحاديث ما يزكي معنى المراقبة، مثل قول النبي ﷺ: «احفظ الله يحفظك»، وقوله النبي ﷺ: «اتق الله حيثما كنت»، وذلك بنبرة واضحة مع الأداء الصوتي الضاغط على كل حرف وكلمة من هذه الكلمات العظيمة، يصاحبها تركيز النظر في عيني الطفل، مع ابتسامة حانية.

ثالثاً: لا بد من تصحيح وبناء فكر سليم لدى الأطفال تجاه الإعلام، وأنه ليس كل ما يُعرض فيه يرضي الله تعالى أو يصلح للمشاهدة.. لذلك لا بد أن يكون تعامل المؤمن معه انتقائياً، فلا يشاهد إلا ما يرضي ربه ويزيد في حسناته.

كنوز العشر الأواخر

وأهمها: تعويد الأبناء على تحرّي ليلة القدر، والحرص على موافقتها بالقيام والتهجد، وتعليمهم الدعاء الخاص بها، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ وَافَقْتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، مَا أَقُولُ فِيهَا؟ قَالَ: قُولِي: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي».

– ومن كنوز العشر الأواخر أيضاً تربية الطفل على المثابرة على الطاعة، مع التنبيه على الإخلاص في أدائها، وعدم الإعجاب بكثرتها؛ فقد تعتري نفس الصغير آفة العجب كما تعتري نفس الكبير إن لم يُوجَّه ويُنَبَّه لذلك، ولقد حذرنا النبي ﷺ من الوقوع في تلك الآفة عقب رمضان، فقال ﷺ: «لا يقولنّ أحدكم: صُمت رمضان كلّه، ولا قُمت رمضان كلّه»[٢].

ولكن نعلمهم أن يردّوا الفضل دائماً لله تعالى فيما وُفِّقُوا إليه من الطاعات، فعن أبي عمران الشيباني أنه قال: قال موسى يوم الطور: يا رب.. إن أنا صليت فمن قِبلك، وإن أنا تصدقت فمن قِبلك، وإن أنا بلّغت رسالاتك فمن قِبلك، فكيف أشكرك؟ فقال الله تعالى لموسى: الآن شكرتني..!».

وأخيراً.. أعزائي المربين

إن قوة الحدث الإيماني في شهر رمضان المبارك تسهّل على المربي مهمته في تربية أبنائه وإصلاح نفوسهم على الوجه الذي يرضاه الله تعالى؛ فلنكن إيجابيين في استثمار هذه الفرصة التربوية العظيمة.. على قدر شرف الزمان الذي نستقبله.. على مستوى شهر رمضان الكريم.

المراجع

– بناء الأجيال: د. عبد الكريم بكار.

– التربية الإيجابية من خلال إشباع الحاجات النفسية للطفل: د. مصطفى أبو سعد.

(١) تفسير الطبري، ج: ٢٣، ص: ٤٩١.

(٢) أخرجه أبو داود: ٢٤١٥، وضعفه الألباني: ٢٠٦٢.

احتفاء الشعراء بشهر رمضان الكريم

عبدالرزاق دياربكرلي(*)

الشعراء، كغيرهم من محبِّي هذا الشهر الكريم، يستقبلونه بحبهم وفرحتهم، لكنهم يزيدون عليهم بمشاعرهم الدفاقة الوجدانية الفياضة، وبروحهم الطفولية البريئة، فهم يفهمون رمضان بقلوبهم، ويتعاملون معه بأحاسيسهم، ويعايشونه بأشواقهم وأحلامهم وآمالهم، ويحادثونه محادثة المحبِّ لحبيبه، والوالِهِ للمولَّه به.

الفرحة بقدوم رمضان:

فالشاعر يس الفيل، من مصر، في قصيدته (نَغَمُ اليقين)[1] يقول مرحِّباً به:

رمضان يا نغم السماء ويا مدى
بالحبِّ يخطر بيننا بسَّاما
شهرَ الصيام تحيةً من شاعرٍ
عن كلِّ ما يؤذي المشاعر صاما

والشاعر ناصر بن علي عليان، من السعودية، في قصيدته (بوابة الغفران)[2]؛ وجد في رمضان الريَّ من الظمأ شوقاً وفرحةً بلقاء هذا الحبيب، يقول:

تاقت الأنفس الظماء لريَّاك
فشدت للأفق قلباً وناظِرْ
تتراءى هلالك الباسم الثغر
يحيي سناه بادٍ وحاضِرْ
بسناك الدفاق يجلو ظلام اليأس
تهدي إلى الهدى كلَّ حائِرْ
ذاك نبضٌ من الفؤاد تسامى
في اشتياق إليك من روح شاعِرْ

(*) باحث تربوي وناقد أدبي.
(١) مجلة الأدب الإسلامي، العدد ٣٨، عام ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص ١٥.
(٢) مجلة الأدب الإسلامي، العدد ٣٨، عام ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص ٥٣.

والشـــاعر محمود محمد كلزي، من ســـورية، في قصيدته (هلال رمضان)[1]، رحَّب بهلال رمضان، فقد اســـتقبله الكون بفرح وطرب وبشائر، حيث يقول:

هـــلَّ الـهـــلالُ يفيض بالبشـرِ
مـتـهـاديـاً فـــي زهـــوة العمـــرِ
الـكـون هـلَّـــل ضـاحـكـاً فـرحـــاً
مـتـــلألئـــاً مـتـبسِّـــمَ الـثـغـرِ
حـتـى الـنـسـائـم هـيـنـمـتْ طـرباً
تـزجـي الـبـشـائـر أيـنـمـا تـسـري

ذكريات النصر وآلام الضعف والفُرقة:

وإن إقبال رمضان يثير في نفوس المسلمين عامة، والشعراء منهم خاصة، معانيَ القوة التي كانوا عليها والضعف الذي صاروا فيه، ومعانيَ النصر الذي حققوه والهزيمة التي يعايشونها، ففيه ســـجلوا أعظم الانتصارات التاريخية، وبعزيمة الصيام تفتَّحت لهم أبواب النجاحات التي لا تنســـى، لكـــن واقعهم يثير فيهم الحسرة والألم لما يرونه من فُرقة، وضعف، وهوان على الناس.

فالشـــاعر ناصـــر بن علي عليـــان، في قصيدتـــه (بوابة الغفران)[2] يقول:

فيك خبَّ الأُلى إلى النصر سلُّوا
كل سيفٍ، وأسرجوا كلَّ ضـامِرْ
فانتشـت منهـم البـطـولات
والتاريخ أهـوى يخطُّ أزكـى المآثِرْ

أما الشـــاعر ســـلمان بن زيد الجربوع، من السعودية، في قصيدتـــه (عندما يغرب الجلال)[3]؛ فيشـــير بحزن عميق إلى واقع الحال المتردي الذي عليه المسلمون اليوم، فيقول:

الأمـــة الـثـكـلـى تـعـانـق دمعها
لا نضرة ترك الأسـى.. لا رونقـا
فـي كـل نـاحـيـة نـــواحٌ ضـائـعٌ
ومطامـعٌ تـذر الجميـع مفـرقـا

ويقول الشاعر ناصر بن علي عليان، في قصيدته (بوابة الغفران)[4]:

ألف واخجلتاه من أمسنا الزاهي
ومـــن يـومـنـا ومـمـــا نـحـــاذِرْ
قـد كـبَـتْ خيلنا وزلَّـــت خطانا
ورمـانـــا بـكـيـــده كـــل فـاجِـرْ

الأمل بعودةٍ قوية للإسلام والمسلمين:

لكن الأمل بعودة رمضان وأمة الإســـلام أكثر قوة وأحسن حالاً، فنجده لدى الشعراء أملاً باقياً في النفوس حينما تستعيد الأمة الإســـلامية مجدها، ووحدتهـــا، وقوتها، وتضع بصماتها الإيمانية من جديد على جبين الإنسانية.

فالشـــاعر حســـين أحمد الرفاعي، من الإمارات العربية المتحدة، في قصيدته (رمضان عذراً)[5]، يأمل في عودة رمضان والأمة قد أخذت مكانها تحت الشمس مجداً وعزةً، فيقول:

أملـي كبيـر أن تجـيء وأمتـي
قـد أنجبـت للعـالم الأبطـالا
تـأتي وقـد سُـدنا البسيطـة كلها
وتبـدلـت أحـوالنـا أحـــوالا

ليلة القدر في رمضان:

وفي رمضان ليلة هي خيرٌ من ألف شـــهر مما ســـواه من الشـــهور، إنها ليلة القدر التي يتشوَّق كل مسلم في العالم لنيل الغفران فيها، والشعراء منهم كذلك.

فالشـــاعر حيدر الغديـــر، من الســـعودية، في قصيدته (في ليلة القدر)[6] بعـــد أن أحيا ليلة القدر بالصلاة والقرآن والدعاء والذكر، يتخيل نفسه وقد فاز بالغفران في ليلة القدر تلك، فيقول:

ظفـرتُ بها وغشاني أمـــانُ
وقـرَّبهـا ضميـري والجنـانُ
وحيتنـــي عوارفهـــا اللواتـــي
بسَـمْنَ كـأنهنَّ الأقحـــوانُ

ويســـبح مع وجدانه وخياله وأحلامه البريئة ليصل إلى يوم الحشر مغفورَ الذنوب لا لـه ولا عليه، فيقول:

وجئتُ الحشرَ قد غُـفِرتْ ذنوبي
طـلـيـقـــاً، لا أُديـــن ولا أُدانُ
أنـــادي قـد ظـفـــرتُ فيالسعدي
وجُـــودُ الله والثقـــةُ الضمانُ

وليلة القدر عند الشـــاعر جابر قميحـــة، من مصـر، في قصيدته (لا .. يا أمير الشعراء)[7]؛ هي من مفاخر هذا الشهر

(١) ديوانه (إسراء لوادٍ غير ذي زرع)، ص ٣٣، كما نشرت القصيدة في مجلة المنتدى الإماراتية، العدد ١٠٤، شعبان ١٤١٢هـ.
(٢) مجلة الأدب الإسلامي، العدد ٣٨، عام ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص ٥٣.
(٣) مجلة الأدب الإسلامي، العدد ٣٨، عام ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص ٣٥.
(٤) مجلة الأدب الإسلامي، العدد ٣٨، عام ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص ٥٣.
(٥) مجلة الأدب الإسلامي، العدد ٣٨، عام ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص ٥٢.
(٦) مجلة الأدب الإسلامي، العدد ٣٨، عام ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ٢٩.
(٧) ديوان (حديث عصري إلى أبي أيوب الأنصاري)، مكتبة العبيكان، ط ١، الرياض، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص ٢٧.

الكريم، وهي من أجمل ما يتصف به، فيقول:

ولِلَيلةِ القدر العظيمة فضلُها
عن ألفِ شهرٍ بالهدى الدفاقِ
فيها الملائكُ والأمينُ تنزلوا
حتى مطالع فجرها الألأقِ

وداع رمضان:

أما وداع رمضان فله شأن آخر عند الشعراء؛ فهو وداعٌ ممزوج بالدموع، مترعٌ بعبق الأمل، إنهم يودِّعونه وهم من لحظة وداعه يستشرفون عودته أعواماً أُخر.

فالشاعر سلمان بن زيد الجربوع، في قصيدته (عندما يغرب الجلال)[1]، يتصدى لهلال العيد لا يريده أن يطلع، فيقول:

قف ياهلال العيد، لا تطلع فما
دربٌ تلقفنا، ولا دمعٌ رقا
هلا رحمت سهادنا ببشارة
قبل الرحيل، فقد عزَّ الملتقى

منازلة ضدَّ الشاعر أحمد شوقي دفاعاً عن رمضان:

لقد وضع الشاعر أحمد شوقي نفسه في موضع لا يحسد عليه، وذلك بقوله في قصيدته التي مطلعها:

رمضان ولَّى.. هاتها يا صاح
مشتاقةً تسعى إلى مشتاقِ

فقد انبرى له الشاعر جابر قميحة متصدياً لهذا الشعور العجيب من أحمد شوقي، وهاجمه هجوماً عنيفاً، وذلك في قصيدته المشار إليها آنفاً (لا.. يا أمير الشعراء)[2]، حيث يقول له:

لا.. «يا أمير الشعر» ما ولَّى الذي
آثاره في أعمق الأعماقِ

(١) مجلة الأدب الإسلامي، العدد ٣٨، عام ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص ٣٥.
(٢) ديوانه (حديث عصري إلى أبي أيوب الأنصاري)، نفس المصدر السابق، ص ٢٧.

وقسا عليه أكثر، بل أخرج من الملة كل مَنْ يقول مثلَ هذا القول، فقال مخاطباً إياه:

لا .. «يا أمير الشعر» ليس بمسلمٍ
مَنْ صام في رمضان صومَ نفاقِ
فإذا انتهت أيامه بصيامها
نادى وصفَّق: (هاتها يا ساقي)

وليس الشاعر جابر قميحة وحده مَنْ تصدى للشاعر أحمد شوقي في مقولته الشعرية تلك، بل هناك شعراء آخرون عرّضوا به ونقضوا كلامه، ومنهم الشاعر محمود محمد كلزي في قصيدته (طوبى لمدرسة الصيام)[3]، حيث يقول:

رمضان أقبل هاتها يا صاح
راحاً من الراح بلا أقداح
راحاً تهيم بها الملائك والورى
فتحلِّق الأرواح دون جناح

لكن الشاعر جابر قميحة ما يلبث أن يعود ويبقي باب الغفران مشرعاً فيقبس من أحمد شوقي قوله:

(الله غفار الذنوب جميعها
إن كان ثَمَّ من الذنوب بواقي)[4]

وهكذا فقد تلاحم الشعر والشعراء في الاحتفاء بهذا الشهر الكريم، ورسموا بأحرفهم على جدرانه أصدق المشاعر، وأنبل الأحاسيس، وقابلوه بكل معاني الود والرحمة والأمل.

نسأل الله الكريم أن يقبل أعمالنا، ويغفر ذنوبنا، ويبارك علينا هذا الشهر الكريم، ويرزقنا والقراء الكرام عودته علينا أعواماً عديدة وسنين مديدة، اللهم آمين. والحمد لله رب العالمين.

(٣) ديوانه (إسراء لوادٍ غير ذي زرعٍ)، مكتبة العبيكان، ط١، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ص ٤٦، كما نشرت هذه القصيدة في مجلة المنتدى الإماراتية، العدد ١٦٢، شعبان ١٤١٧، وهي معارضة لقصيدة أحمد شوقي المشهورة.
(٤) هذا البيت من قصيدة شوقي نفسها.

[المسلمون.. والعالم]

المشروع السُنِّي.. أين.. وإلى أين..؟
د. عبد العزيز كامل

خطوات ما بعد نجاح الثورة
محمد بن شاكر الشريف

الانتخابات المصرية.. تحوُّل ديمقراطي بأفق إسلامي
طلعت رميح

هليكوست جديد في أراكان
مجلة البيان

مرصد الأحداث
جلال سعد الشايب

المشروع السُّنِّي..

أين.. وإلى أين..؟

د. عبد العزيز كامل
d.amk@hotmail.com

يشهد العالم تطورات متلاحقة تسير في اتجاه التمايز والفصل بين الناس في سباق يبدو محموماً نحو مرحلة الفرز الاعتقادي التي قد تكون - خاصة في بلاد المسلمين - مقدِّمة للزمان الذي أخبر عنه النبي ﷺ، والذي (يصبح الرجل فيه مؤمناً ويمسي كافراً حتى يصير الناس إلى فسطاطين، فسطاط إيمان لا نفاق فيه، وفسطاط نفاق لا إيمان فيه)[1]. ومن الواضح أن تتابع التحديات وتراكمها سيفرض على المسلمين المنتسبين لمذهب أهل السنَّة - خاصتهم وعامتهم؛ أن تكون لهم وجهتهم وطريقتهم الخاصة بهم في مشروع يميِّزهم عن بقية أصحاب المشاريع، سواء على المستويات العالمية أو الإقليمية أو المحلية.. وإذا كان الخطاب الدعوي فيما مضى قد ركز على استمرار الصراع بين الإسلام وغيره من الملل حتى أصبح ذلك معلوماً مشهوراً؛ فإن ما لم يُعلم عند الكثيرين أو يشتهر هو الصراع بين أهل السنة وأهل الأهواء والنحل، وكلا الصراعين يمثلان صورةً من النزال بين الدين الحق الذي خُتمت به الرسالات، وبين الباطل المخترع في الأهواء والخيالات.

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٩/ ٢٤) وصححه أحمد شاكر؛ وأخرجه أبو داود في سننه وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤١٩٤).

تثبت الأحداث أن المشروعات المنسوبة للدين تحت مسمى (المشروع الإسلامي)، تحتاج إلى فرز يُنتخب فيه الأصيل من الدخيل، حيث إن هناك مشروعات أو طرائق منسوبة للإسلام أو محسوبة عليه وما هي منه في شيء؛ كمشروع الإسلام الشيعي، أو الإسلام المدني الديمقراطي، أو الإسلام الليبرالي، أو إسلام المدرسة العقلية، أو العصرانية، أو إسلام التوجه القومي العروبي، أو الصوفي.. ونحو ذلك.

لقد تعمَّدْتُ التعبير بـ (المشروع السُّنِّي) تخصيصاً من عموم (المشروع الإسلامي)؛ لأن جملة كبيرة من المشاريع المعادية قد نصَّبت نفسها في مواجهة مشروع أهل السنة على وجه الخصوص، رغم أنهم لم يتأهلوا بعد جيداً للقيام به، فضلاً عن الدفاع عنه.

لا ينبغي هنا أن نستنكف عن الانتساب للسنَّة تجنباً للاتهام بأننا طائفيون، فالحقيقة أنه مثلما أننا أصحاب دين حق بين أديان باطل، فنحن طائفة في مواجهة طوائف، شئنا أم أبينا، غير أن أهل السنة يمثلون الطائفة المنصورة التي قال النبي ﷺ عنها: (لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس)[1]، وفي رواية (لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة حتى يأتي أمر الله)[2]، والتي أخبر عليه الصلاة والسلام أنها هي الناجية من بين ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة (قيل يا رسول الله من هم. قال: الجماعة)[3].

من أغرب الأمور، أننا - وبعد أكثر من ثلاثين عاماً من بَدء ظاهرة (الصحوة الإسلامية) مع بدايات القرن الهجري الخامس عشر؛ لم تتبلور لنا رؤية لمشروع سني واضح له أبعاده وخططه وإمكاناته وأهدافه والجهة القائمة على إنفاذه، مثلما هو الشأن مع (المشروع الصهيوني) المكتمل الرؤى والأهداف والمراحل منذ أكثر من قرن، و(المشروع الصليبي التغريبي) النشط على أرضنا منذ عدة قرون، و(المشروع الشيعي) المدفوع بالطموح والجموح منذ عدة عقود، بل حتى هذا الاسم: «المشروع السني».. لا يزال غريباً على الأسماع، نادراً على الألسنة.

المشروع السنِّي - في حال اكتماله وتكامله - هو في جوهره مشروع لإعلاء كلمة الله على منهاج رسول الله بما يقتضيه ذلك ويستدعيه من نهوض سياسي واقتصادي وعسكري واجتماعي وعلمي وتعليمي وإعلامي وثقافي، فلا شكَّ أن تلك المجالات صارت ميادين تنافس، ومنصات اختراق، يحاول بها أصحاب كل مشروع منازلة الآخر ومصاولته في مضمار سباق كثيراً ما يتحول إلى ميدان صراع، خاصة بعد أن تتضح الحقائق، وتتمايز الصفوف.. فالحق والباطل بعد التمايز لا يتعايشان، بل يتنافسان، ثم يتصارعان، ويتغالبان، لكن العاقبة دائماً للحق وأهله كما نطق الكتاب المبين في قوله تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

(١) أخرجه مسلم برقم (١٠٣٧).
(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في مسند عمر (٢/ ٨١٤) وقال إسناده صحيح.
(٣) أخرجه ابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه برقم (٣٢٤١).

المشروع السُّنِّي وضروراته

تفكيك الإسلام الصحيح وإضعاف أهله هو الهدف المشترك للمشروعات المناقضة للسنة والمناهضة لها، سواءً أكانت تلك المشروعات المناوئة ذات طبيعة كفرية أم بدعية (قديمة أو عصرية)، فكل تلك المشروعات - في حال سيطرتها وقوتها - تأتي على المنهجية الإسلامية الصحيحة فتنقصها من أطرافها، أو تنقضها من أسسها، لتبني على ركامها دعائم مغايرة من العقائد والطرائق والمفاهيم، فإذا كان كل مشروع وراءه فكرة للتغيير، أو سبيل إلى بديل، فإن محل ذلك التغيير أو التبديل هو الإنسان في عقيدته وعبادته وسلوكه وطريقته في التفكير. لذلك فإن المشروع السنِّي ضرورة لحفظ الإنسان المسلم بالإسلام الصحيح في حياة إسلامية حتى لا تتبدل عقيدته، أو تزيف عبادته، أو ينحرف سلوكه ويشوه فكره، فهو ليس مشروعَ تدبير معيشي حياتي فقط، بل هو ارتفاع بالحق ودفاع عنه ضد الباطل، الذي لا يستهدف غزو الأراضي والأوطان فقط، بل يرمي إلى غزو القلوب والعقول.

لنأخذ المشروع الشيعي الإيراني مثالاً في الضرر والخطر إذا حلت أو استفحلت أفكاره في ساحة سُنية مستباحة، كما حدث في العراق، ويحدث في البحرين ولبنان، وكما يراد حصوله في اليمن وإمارات الخليج وفلسطين.. إن ذلك المشروع يحاول اختطاف الإسلام فيقدِّم نفسه في منظومة فكرية بديلة قائمة على الأساطير، لكنها مدجَّجة بالأساطيل؛ منظومة تنتظم أمور الدنيا والآخرة لتقول للناس: هذا سبيل النجاة والنجاح. فعند الشيعة: الآخرة لهم.. وصحة الديانة وقف عليهم.. والعاقبة في الدنيا لطائفتهم.. وغايات الرسالة لا تُحمى إلا بهم.. وحُرمات أهل البيت من اختصاصهم.. وحماية

المقدسات موكولة إليهم.. ورعاية (مشاريع المقاومة) من أهم غاياتهم.. بل إن فهم أسرار القرآن ومقاصد الإسلام منحة إلهية لم تمنح لغيرهم!! هكذا يدَّعون.. وهكذا يروجون.. ولهذا ينشطون في الهدم والبناء.. الهدم عندنا، والبناء عندهم!

ماذا يبقى من قواعد الإسلام الصحيح وأصوله وفروعه حينما يُمكَّن لمشروع أعداء الصحابة في البلدان التي فتحها الصحابة؟!.. ولماذا لا يقوم أحفاد هؤلاء الصحابة وأتباعهم بما قام به أجدادهم من الاجتماع على السنة التي أوصى بها رسولهم ﷺ عندما قال بلفظ صريح فصيح: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ)[1].. وقال: (تركت فيكم أمرين، لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة نبيه)[2].. إن السُنة هنا ليست مرادفة للنافلة أو التطوع، بل هي مكافئة للحق المبين والطريق المستقيم.

لنأخذ مثالاً آخر لمشروع آخر يتعاظم خطره ويتفاقم ضرره كلما تمكَّن في بلاد المسلمين في غياب المشروع الإسلامي السنِّي؛ إنه المشروع الليبرالي، سواءً بقي على وصفه الغربي ذي النشأة النصرانية والنزعة اليهودية، أو بالغ في الخداع فكساه أصحابه بلبوس إسلامية. لنتأمل حجم التفتيت وكمَّ التفكيك في مفاهيم الإسلام الصحيح وأصوله إذا ذاعت ثم شاعت مفاهيم تلك الليبرالية التدميرية، ولننظر في تلك السلسلة المتواصلة من عوامل الهدم المنهجي لقواعد الإسلام وأصوله عندما تحل المفاهيم العَلمانية الليبرالية محله:

- وحدانية الإله وتفرُّده بالخلق والأمر ليست هي الحقيقة الأخيرة عند الليبراليين العَلمانيين، فالله الذي له الخلق والأمر ليس له عندهم إلا الخلق، أما الأمر والتشريع فمن حق البشر وحدهم بلا شريك! وهذا الإله – عندهم – يقبل أي دين من أي إنسان، فكل البشر عنده سواء، في جنبات الأرض أو في ملكوت السماء، سواء كانوا مؤمنين أو كافرين!

- عصمة النبوة وكمال الرسالة غير مسلَّم بها عندهم، فمحمد ﷺ أُرسل إلى قوم قدامى بما ناسبهم، فتلك أمة قد خلت.. ولذلك؛ فرسالة الرسول عندهم لا تصلح لكل زمان ومكان، وليست شاملة ولا كاملة، ولا مكان لها في الدساتير إلا من قبيل «الديكور»!

- الالتزام بـ (العبودية لله) عندهم أمرٌ مفزع، ويمثل ردةً عن التقدم والمدنية، والبديل أن يكون الإنسان هو القائد القائم بنفسه لنفسه، بل هو مركز الكون، ومنشأ التشريع، ومصدر الإبداع، ومنه وإليه ترجع أسباب السعادة ومعايير الصواب والخطأ، بل الحق والباطل!

- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر – كما يصرِّحون – موروث ثقافي قاصر مستورد من بيئات متحجرة غير متحررة! وإطلاق الحريات الشخصية؛ الاعتقادية منها والسلوكية، هو المعروف الأكبر في ظل إعمال القوانين الوضعية البشرية التي تمثل عندهم البديل الحضاري المعاصر للشرائع الإلهية؛ ولو كانت تلك القوانين الوضعية أمراً بالمنكر ونهياً عن المعروف!

- الاستقامة الأخلاقية والسلوكية قضية شخصية ترجع إلى ضمير كل فرد، ولكل إنسان الحرية المطلقة في اختيار السلوكيات التي تناسبه وتناسب أسرته ما لم تتعارض مع حريات الآخرين، أما إذا تعارضت مع قيم الدين القيِّم فلا يهم، فهي ليست ملزمة له ولا للآخرين!

- المبدأ (المدني) – بمعنى اللاديني – هو البديل الوحيد المقبول لكل ما هو (ديني)، فلا مكان لما كان يُسمى (المجتمع الإسلامي)، بل المقبول هو (المجتمع المدني) الذي لا مكان فيه للشريعة.. فالمجتمع المدني لا يحكمه إلا القانون المدني الذي لا صلة له بالوحي ولا بالرسالة، وحتى تشريعات الأحوال الشخصية، وعلى رأسها تشريعات الزواج والطلاق؛ لا بدَّ أن تؤول – مع تبنِّي الليبرالية – إلى قوانين «مدنية» تقوم على (الزواج المدني) الذي يبيح زواج المسلمة بغير المسلم، وزواج المسلم بالمشركات الوثنيات، والذي أوصل في الغرب إلى مرحلة إجراء عقود الزواج «الرسمية» بين الرجال والرجال وبين النساء والنساء!!

- رابطة الإسلام لا قيمة لها عند الليبراليين، والبديل عنها في ملَّتهم رابطة (المواطنة)، «فالمواطن» مهما كان كافراً أو فاجراً أو مرتداً، له كل الحقوق في موطنه الذي ولد فيه بمنطق «الانتماء الطيني». أما الانتماء الديني فلا يُعطى «غير المواطن» به – مهما علا كعبه في العلم والإيمان – إلا الفتات وربما الرفات من الحقوق.

- في المنظومة الليبرالية يجرى اختيار الحاكم وفق المعايير المنصوصة في الدساتير الوضعية العَلمانية، حيث لا علاقة لها بالشروط المعتبرة في الإسلام لولي الأمر.. وهذه الدساتير التي تشترط «المواطنة» حتى في والدي الحاكم؛ لا تشترط فيه الديانة ولا العدالة ولا حتى

(١) أخرجه الترمذي وأبو داود وابن ماجه وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه رقم (٤٠).
(٢) أخرجه مالك في الموطأ (١٣٩٥) والحاكم وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٧٦١).

الرجولـــة، فيمكن أن يكون أنثى أو خنثـــى أو كافراً أو فاجراً!!

● من يختـــارون الحاكم من الشـــعب هم عموم العامة والدهمـــاء، ويدخل معهم «عددياً» المفكرون والعباقرة والعلماء - وهم في الاختيار على حدٍّ سواء، فلكل شخص من الشعب «صوت» يســـتوي في ذلك الســـكير العربيد الجاهل مع العالم الزاهـــد المجاهد، فـ «كثـــرة العدد» هي البديل عن أهل الحل والعقد!

هكذا تفعـــل الليبرالية بمفاهيمها و«قيمها» في ثوابت الإســـلام عندما يتمكَّن مشروعها في بلاد الإســـلام، فماذا يبقى للدين الصحيح في بلاد السنَّة إذا غاب أو غُيِّب حكم القرآن والسنَّة؟

إن الضمانة الوحيدة لحفظ حياة المســـلمين في أوطانهم على نظام الإســـلام، هي اقتران السلطان بالقرآن، ولذلك خوَّف النبـــي ﷺ من زمان ينفصل فيه السلطان عن القرآن، لأنه إذا لم يكن الكتاب هو المنهاج في الحكم؛ فإن محكمات الدين تنحل وتتحلل رويداً رويداً، بدءاً من السياســـة وانتهاءً بالشـــعائر؛ لهذا ربط ﷺ بين إقامة الحكم وإقامة الصلاة فقال: (لتنقضن عرى الإســـلام عروة عروة، فكلما نقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها، فأولهن نقضاً الحكم، وآخرهن الصـــلاة)[1]. وقد جاء الربط قبل ذلك في القرآن، حيث قال الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [الحج: ٤١]. ودعا الله المؤمنين كلهم أن يدخلوا في الإسلام كله، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨].

لقد حذَّر الله تعالى رســـوله ﷺ من التفريط في شيء - أي شيء - ممَّا أنزله إليه من الشرائع نزولاً على آراء أصحاب الأهواء، وسمَّى ذلك فتنة فقال: ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّـهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩].

(١) أخرجه البوصيري في إتحاف المهرة (٨/ ٣٥) وقال سنده صحيح وله شاهد، وصححه الألباني في صحيح الترغيب برقم (٥٧٢).

مـــعـــالـــمُ فـــي مـــشـــروعـــنـــا الـــعـــالـــمـــي

المشروع الســـني إذاً - في جانبه المنهجي - مشروعُ هداية للحق وحماية مـــن الباطل، ولذلك فإن هناك أمـــوراً مهمة لا بدَّ مـــن تأصيلها نظرياً، ثم تفصيلهـــا عملياً، عند الإقبال على إطلاق ذلك المشـــروع الذي لم تعد أحوال الأمة تحتمل المزيد من تأخيره وتعطيله:

أولاً: إذا كان مصطلح (المشروع الإسلامي السُّنِّي) يفيد معنى إعلاء كلمة اللـــه، فالتعبير القرآني الأقرب لذلك المصطلح هو (إقامة الدين)، ولذلك فهو مشروع أكبر من الساســـة ومن السياسة، فلا يتوقف عمله على قبول رسمي لحـــزب أو جماعة، ولا ينتظر فوزاً في انتخابات برلمانية أو رئاســـية، أو مدد حكم مفتوحة أو مؤقتة، ولا يحتاج في شرعية اعتماده إلى دساتير أو مراسيم أو فرمانات. و(المشـــروع السني)، أو مشروع إقامة الدين الحق، لا يخاطَب به إلا أهل الحق، كما قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]، لذلك فإن تفاصيل معاني «إقامة الدين» هي تفاصيل مباني ذلك المشروع.

ثانياً: المشـــروع السني - في شـــقه الاعتقادي - يعتمد منهاجاً لا يحتاج إلى زيادة أو نقصان، فهو المنهج القائم على الكتاب والسنة والمتلقى عن القرون الثلاثـــة المفضَّلة من الصحابة والتابعين وتابعيهم.. وتثبيت هذا المنهج واعتماده مرجعيةً للمشـــروع يمثل ضمانةً لعدم الانحراف عنه أو الاحتيال فيه، لأنه في النهاية يمثل الشريعة بمعناها العام المرادف للدين، كما في قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨].

ثالثاً: المشـــروع الســـنِّي ليس مقصوراً على الأمور الحياتية، بل إن الجانب الديني والأخروي أصيلٌ فيه بل أصل له، لكن شقه الدنيوي لا يجافي شقه الديني؛ لأنه مشـــروع إصلاح للدنيا بالدين، وتقويم للحياة بشـــرع الله، لإسعاد الناس في معاشـــهم وربط دنياهم بآخرتهم: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

رابعاً: المشـــروع السُّنِّي ليس مشروع شخص ولا جماعة ولا حزب، بل ولا دولة، لكنه مشـــروع أمة هي خير أمة أُخرجت للناس، ولذلك فإن جماعته هي (الجماعـــة الأم) بمعناها الكبير الرحب الذي تنضوي تحت لوائه كل التيارات والفصائل والجماعات المنتســـبة بحق إلى طائفة الحق. ورغم عدم افتقار هذا المشـــروع إلى مشروعية من حزب أو جماعة أو دولة؛ فإنه يحتاج للقيام به إلى قوة تحميه، ســـواء كانت دولة أو عدة دول - كما هو حاصل في المشـــروعات

الأخـــرى، فإن لم توجد هذه القوة الحامية؛ فإن الضرورة تقضي بـــأن تتبنّاه - ببُعديه الديني والدنيوي - جماعات كبرى ذات تيار عظيم في الأمة يقوم به وينافح عنه، وبخاصة في ظروف التحدي وعلو المســـتكبرين، وقد قال النبي ﷺ وهـــو في مكة عندما كان مقبلاً على الخروج للعالـــم بدعوته: (من ينصرني ويؤويني حتى أبلغ رسالات ربي وله الجنة)[1].

خامساً: لأن المشروعَ السُّنِّي مشروعُ أمة الإجابة؛ فهو مشروعُ كل الجماعات والتجمّعات السُّنِّية على اختلاف أدوارها ووظائفها وتخصُّصاتها، لأنها كلها توزعت عليها الفروض العينية والكفائية، لذلك فهو يحتـــاج إلى جهود كل هذه الجماعـــات لتأدية كل تلك الفروض: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

سادساً: ليس من أولويات المشـــروع السُّنِّي في مراحل انطلاقه ونهوضه الصـــدام أو المواجهة مع المناوئين لـــه، إلا إذا فرضت عليه المواجهة، فأمامه مشوار طويل من البناء وتثبيت الأقدام والتسلح بكل أســـباب القوة المعنوية والمادية، وبخاصة ضلعيها (القوة الاقتصادية) و(القوة السياسية) المحميتين بالقوة العسكرية.. فالإعداد المبكر بمعناه الشامل هو السبيل الأوحد - بعد الاستعانة بالله - لتفادي سياسات «الإجهاض المبكر»: ﴿وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]. ومن التسطيح للأمور الناشئة عن الجهل بسنن الله، التوهم بأن مشروع إقامة الدين مســـتغنٍ عن الإعداد والجهاد، وأنه سيمضي في طريق «سلمية» إلى النهاية فيتســـلم رايات التمكين للدين تحت هتافات المظاهرات فقط، أو يأتيه نصر الله والفتح بفتح صناديق الانتخابات فحسب، لذلك فلا مناص للمشـــروع من يدين عاملتين، إحداهما للبناء والأخرى للفداء: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

سابعاً: الحرب المنهجية (حرب الأفكار) في مواجهة السنة وأهلها ليست بأقل خطراً من الحروب الميدانية المفتوحة ضدهم في كل مكان منذ زمان، فمعارك التفكيك الفكري أو الاختطاف المنهجي ســـتظل تلاحق كيانات أهل السنة لتسبي قطاعات من المنتســـبين إليها عن طريق الاســـتدراج إلى البـــدع القديمة أو المعاصرة، الناقلة عن الملة أو الســـنة، وستظل تلك السُّنة غرضاً للمعاديـــن لنهج الإســـلام الصحيح، يرمونها بســـهام ضلالات الأديـــان، وخرافات البدع الشـــيعية أو الصوفيـــة أو العقلانية العصرانية، أو يحقنون أهلها - باسم الحرية - بسموم التوجّهات الإلحادية، وعلى رأسها العَلمانية، بشقي الشقاء فيها: الليبرالية واليسارية، ولذلك لا بد من اســـتراتيجية مواجهة فكرية تشمل الدفـــاع والهجوم، لأن الدفاع عن حدود الله ليس بأقل قدراً من الدفاع عن حدود الوطن.

ثامناً: لأن المشـــروع السُّـــنِّي اعتقاديٌّ في جوهره، وشرعيٌّ في مظهره، ولأن المنهـــج هو عامل القوة الأكبر فيـــه؛ فإن أصحاب هذا المشـــروع والقائمين عليه لا تسوغ لهم الاستجابة للابتزاز المنهجي من الكارهين لما أنزل الله بالتنازل عن محكمات الدين، أو التجاهل للمحاذير الاعتقادية أو التشـــريعية بحجة (احتـــرام الآخر)، أو (المحافظة على اللحمة الوطنية)، أو (السلام الاجتماعي)، أو (الشراكة السياسية)... إلخ، فكل ذلك إن كان مهماً، فإن أهميته لا تســـاوي شـــيئاً أمام وهن القوة المنهجية التي لأجلها يجتمع الناس حول أهل الإسلام.

ونعود إلى السؤال:

(المشروع السني.. أين؟)..

- أين هو في العراق، وأين هو في لبنان؟ وأين هو في البحرين ودول الخليج وسورية؛ لمواجهة تغوّل المشروع الشيعي الإيراني؟!

- أين هـــو - في وضوحه وقوته ووحدته - في مصر وليبيا وتونـــس واليمن وبقية بلاد الثـــورات - التي قامت والتي لم تقم بعد؟ أين هو كي يتصدى لحالة الاستنفار والتأهب لدى جماعات (الخشب المســـنَّدة) من العَلمانيين الليبراليين الساعين بإصرار إلى استعادة السطوة والنفوذ، مستندين بذلك إلى جدار الحماية والغواية الغربي النصراني؟!

- أين هو في باكســـتان بشـــعبها الســـني المحكوم بشرذمة عَلمانية ذات أصول شيعية منذ عقود؟.. وأين هو في أفغانستان التي استباحها عملاء الأمريكان؟

- أين هو في إندونيسيا ونيجيريا وبقية بلدان آسيا وإفريقيا التي اســـتوطنت فيها الصوفية الغالية حتـــى كادت تُخرِج فئاماً كثيرة من البسطاء عن الملة بعد أن أخرجتهم عن السنة؟

- أين هو في صيغته الإقليمية، وصبغته العالمية؟

ونرجع للشق الثاني من السؤال: (إلى أين؟)..

أإلى غير شِـــرعة الله نلجأ وقد جعلنا أمة وســـطاً، وجعلنا خيار خير أمة؟!.. أم إلى غير الســـنة نتجه ونحن المخصوصين دون غيرنا بمسمى (أهل السنة)..؟

إنها دعـــوة لأهل العلم والفكر والدعوة للتلاقي حول مشـــروع (واحد واضح) لحماية الســـنة والنهـــوض بأهلها في بلادها، حيث لن تقوم قائمة لأهل السنة بغير مشروع قائم على القرآن والسنة.

(١) أخرجه البوصيري في إتحاف المهرة (٣٥٢/٧) وقال: إسناده صحيح؛ وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة برقم (٧٦) وقال الذهبي في المهذب: إسناده جيد.

خطوات ما بعد نجاح الثورة

محمد بن شاكر الشريف
alsharif@albayan.co.uk
@5942_alsharif

لم يكن إعلان اللواء عمر سليمان، النائب السابق للرئيس المصري السابق الذي عُيِّن في منصبه على عجل لاحتواء ثورة ٢٠١١/١/٢٥م في ٢٠١١/١/١١م، عن تخلي الرئيس السابق حسني مبارك عن منصب الرئاسة؛ يمثل انتصاراً حقيقياً للثورة بقدر ما كان انتصاراً أدبياً، وقد عانت الثورة بعد ذلك على مدى سنة ونصف محاولات إجهاضها والقضاء عليها عبر كثير من التصرفات التي اشتركت فيها جهات عدة داخلية وخارجية وحققت تعويقاً حقيقياً للثورة في تحقيق أهدافها، وبعد هذه المحاولات المتعددة وصلت الثورة - برحمة من الله وفضل - إلى أول نجاح حقيقي لها بفوز د. محمد مرسي بمنصب رئيس الجمهورية في ٢٠١١/٦/٢٥م، حيث مثّل هذا الحدث قطيعة حقيقية مع النظام البائد وبداية النهاية الفعلية لكل مؤسسات الفساد التي أنشأها ونمّاها ذلك النظام، فلئن كان تخلي حسني عن منصب الرئاسة مثل الإطاحة برأس النظام، فإن تولي د. محمد مرسي الرئاسة مثل البداية الحقيقية لنهاية النظام بأكمله، لكن هذا ليس يتحقق بالأمنيات، وانما بكثير من الفعل والجهد المتواصل في جد وعزم وحزم وبصيرة وروية.

فعملية الإصلاح ليست عملية يسيرة، وإنما تحتاج إلى جهد مضاعف، لا سيما أن الفساد قد تجذَّر في ظل مناخ مشحون بكثير من الإخفاق على كثير من الأصعدة ووجود جيوب مناوئة للإصلاح وتسعى بكل سبيل لمقاومة التغيير وإعادة الأمور إلى ما كانت عليه، ومن ثم فالإصلاح يحتاج إلى اقتلاع الفساد من جذوره، وهناك كثير ممَّن يعمل في الاتجاه المعاكس للثورة الأصل بغرض إفشالها، وهؤلاء يجمعهم موقف عام وهو تضرّرهم من نتائج الثورة التي يترتب على اكتمال نجاحها تقليص النفوذ وإعادة الأمور إلى نصابها الصحيح.

هناك كثير من الوسائل التي تتّبعها الثورة المضادة لإعاقة الثورة الأصل عن تحقيق نتائجها، ومن ثم فإنه يجب التنبه لهذه الوسائل ومواجهتها بوسائل مكافئة لإفشالها وتحقيق مطالب الثورة، ولا يصلح أن تتقاعس القوى الصاعدة عن تحقيق برنامجها وتسمح للقوى المناوئة بتحقيق رؤاها المناوئة لمصالح الأمة، لكن لا ينبغي أن تنزلق الثورة في تصرفات فيها نوع من العجلة أو نوع من تصفية الحسابات خارج نطاق العدل والحق، وهناك خطوات ينبغي اتخاذها لتحقيق الخير للناس، فمن ذلك:

١ - تنشيط جهود معلمي الناس الخير وأطباء العقول والقلوب:

المجتمع المصري عانى على مدى أكثر من ستة عقود متتالية عمليات تخريب وتجريف لإنسانية الإنسان وعقله ودينه قبل دنياه وإمكاناته المادية، ومن ثم فقد نجد في أحيان ليست بالقليلة أشخاصاً في صورة بني آدم يلبسون ما يلبس بنو آدم ويمشون كما يمشون ويتكلمون بألسنتهم، لكن حقيقتهم من حيث الأفكار والتصورات والتصرفات غير ذلك، فهم كمن قيل فيهم: «ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمر من الصبر، يلبسون للناس لباس مسوك الضأن، وقلوبهم قلوب الذئاب»، ومن ثم فإن عملية التغيير والإصلاح المنشودة لا تتم بطريقة صحيحة إذا أُغفلت تلك الحقيقة المتقدمة، لأنها تكون بمنزلة من يؤسس على غير قاعدة، أو يؤسس على شفا جرف هار، ومن هنا فإن عملية الإصلاح في حاجة ماسة إلى جهود معلمي الناس الخير وأطباء القلوب والعقول الذين يقتلعون ما بالناس من فساد في الرؤية وفي التصرفات بروية وحكمة، ويجعلون بدلاً منها لبنات الخير والحق، ويستفيدون في ذلك من الإمكانات التي يوفرها الإعلام النظيف ومناهج التعليم التي توضع على عناية وحلقات العلم في المساجد.

٢ - استعمال الحكمة في نشر الخير والدعوة إليه، فلا خير في خير لا يجيء إلا بالسيف:

كثير ممَّن يحبون الخير تدفعهم رغبتهم في نشر الخير وإذاعته لأن يبادروا إلى فعل ذلك أو يدعون إليه من غير نظر إلى الواقع ومدى ما يمكنه تحمله من الأمور، قال عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز لأبيه: «ما يمنعك أن تمضي للذي تريد؟ والذي نفسي بيده ما أبالي لو غلت بي وبك القدور. فقال: الحمد لله الذي جعل لي من ذريتي من يعينني على هذا الأمر، يا بني! لو بادهت (فاجأت) الناس بالذي تقول لم آمن أن ينكروها، فإذا أنكروها لم أجد بداً من السيف، ولا خير في خير لا يجيء إلا بالسيف.. إني أروض الناس رياضة الصعب، فإن يطل بي عمر، فإني أرجو أن ينفذ الله مشيئتي، وإن تغدو علي منية، فقد علم الله الذي أريد، وزاد في رواية: إني لأريد أن أحيي الأمور من العدل، فأوفِّر ذلك حتى أُخرج معه طمعاً من طمع الدنيا، فينفروا لهذا ويسكنوا لهذه»، فعبد الملك يمثل روح الشباب الوثابة التي تبغي الحق وتلتزم به وتعمل على نشره وإقراره وتتحمَّل ما يمكن أن تلاقيه في سبيل ذلك، وأبوه عمر بن عبد العزيز يمثل روح الشيخ الذي عركته التجارب وخَبِر طباع الناس وما يصلحهم، ولا غنى عن الأمرين، فروح الشباب تحافظ على قوة الدفع وتمنع جذوة الحق أن تخبو، وروح الشيوخ تقود المسيرة بحكمة وروية من غير أن تندفع في طريق بغير تبصر، وروح الشباب إذا زادت عن حدها المقبول انقلبت تهوراً واندفاعاً، وروح الشيوخ إذا زادت عن حدها المقبول انقلبت خضوعاً وخمولاً وقبولاً بالواقع السيئ، ووجود روح الشباب وروح الشيوخ جنباً إلى جنب تسند إحداهما الأخرى وتعادل إحداهما الأخرى، ومن ثم فلا ينبغي محاولة صب الجميع في بوتقة واحدة أو إضعاف إحداهما لصالح الأخرى ولا أن تحمل واحدة على الأخرى أو تنتقدها وتطعن في مسلكها.

٣ - الثبات على الحق:

في ظل ضعف نشأة النظام الجديد وحاجته إلى الاستقرار، هناك من الجهات أو الفئات من يحاول استثمار هذا الواقع في تحقيق أغراض خاصة تتنافى مع ما هو معلوم ومستقر من أحكام الشرع ويظل يدندن حولها على أساس أن الاستجابة لها تعني الإقرار بحق الآخر الكافر في المشاركة السياسية، فيطلبون أن يكون نائب الرئيس نصرانياً أو امرأة، ولا ينبغي الاستجابة لمثل هذه الدعوات، فليس من السياسة في شيء مخالفة أحكام الشريعة، وليس من السياسة في شيء أن يغضب المسؤول عشرات الملايين من الناس في سبيل إرضاء ما لا يزيد على عدة ملايين لا تجاوز عدد أصابع اليد الواحدة، أو أن يسعى المسؤول إلى ترضية العالم الخارجي بمخالفة الشرع وإغضاب الجماهير العريضة، فإن سياسة الملك والرعية بما يخالف الشرع - وإن بدا في ظاهرها لأجل تزيين الشيطان أنه من الحكمة التي تكف بأس الكافرين - يترتب عليها الخذلان من رب السموات والأرضين، وقد حذر القرآن الكريم من الاستجابة لما يطلبه المشركون مما يخالف الشرع المبين، فإن إجابتهم لما طلبوه يترتب عليها العذاب في الدنيا والآخرة من غير أن يكون هناك ناصر يحول بين ما قدره الله وأمضاه، قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٣ - ٧٥]، والنائب يسد مسد الأصيل ويقوم على تحقيق رؤيته، فكيف ينوب نصراني عن مسلم في تحقيق رؤية المسلم النابعة من دينه وتوجُّهه في إمضاء الأمور!

٤ - معالجة الملفات الساخنة:

الثورة وإن كانت لها نتائج حسنة مرغوب فيها، فإنه ينتج عنها نتائج أخرى ينبغي السعي إلى إزالتها والقضاء على أسبابها، كضعف الاقتصاد وزوال الأمن وضبط الإعلام وإصلاح القضاء؛ وكل واحد من هذه الأمور يحتاج لأن تقوم عليه لجنة متخصصة موسعة تعمل على دراسته ومعرفة نقاط الضعف وسبل الإصلاح والآليات التي ينبغي استعمالها، وإهمال هذه الأمور أو التهاون أو التراخي في معالجتها يترتب عليه شر كبير، ومبادرة الأمور في مباديها خير من تركها حتى تستفحل، فإنه يصعب تداركها بعد ذلك.

٥ - المصالحة واقتلاع الفساد من جذوره:

أمران قد يتعارضان في ظاهرهما ولا غنى عن حدوثهما: المصالحة بين فئات الشعب التي تناحرت في العهد البائد كالقوى التي كانت تقف مع النظام وتؤيّده وتتكّل بمعارضيه وبقية الشعب المطحون، والأمر الآخر اقتلاع الفساد من جذوره حتى لا يعود الأمر إلى ما كان عليه سابقاً، ولا يصلح أن يطغى أمر على الآخر ولا أن يُغَلَّب أحدهما على الآخر، فلا ينبغي أن تسود روح الانتقام بين الناس، كما لا ينبغي أن تكون المصالحة مدعاة لإقرار الفاسدين في مناصبهم، فذلك ليس من المصالحة أو الحكمة، بل من التساهل المفسد الذي يشجع الفاسد على إفساده، ولو نظرنا لفعل رسول الله ﷺ حينما دخل مكة فاتحاً وقال لأهلها: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»، لكنه قال في المقابل عن أشخاص بأعيانهم عظمت جنايتهم على الإسلام والمسلمين: «اقتلوهم ولو كانوا متعلقين بأستار الكعبة»، فالصفح الجميل لا ينافي البأس الشديد إذا كان كلٌّ في موضعه، ومع ذلك فإن توعدهم بالعقاب الأليم لا يمنع العفو عنهم إذا جاؤوا تائبين.

٦ - مجلس شورى الرئيس:

لا يستغني ولي الأمر عن المشاورة فيما يريد فعله أو اتخاذه من إجراءات، فمن ثم ينبغي أن تكون له بطانة صالحة من الخبراء المتخصصين في المسائل الدنيوية، وبطانة من علماء الشريعة الصالحين الصادعين بالحق الذين لا يخافون في الله لومة لائم؛ حتى تمضي الأمور على هدى وبصيرة، وهؤلاء المستشارون إنما يختارهم ولي الأمر على عينه لأنه يستعين بهم على أموره، فلا يُفرض أحد منهم عليه.

٧ - إنشاء جهاز إعلامي متخصِّص تابع للرئاسة:

يمثِّل الإعلام اليوم قوة هائلة في تكوين الرأي وتشكيل القناعات، ومن ثم يمثل أداة ضغط كبيرة، وليس من السياسة الحكيمة تكميم الأفواه الناطقة بالباطل بالقوة في مرحلة الابتداء، لأن أثره عكسي وسيزداد الحديث بالباطل أكثر فأكثر، والذي أراه الأنسب في ذلك إنشاء جهاز إعلامي متخصص على درجة عالية من الوعي والكفاءة تابع للرئاسة يكون من أولى مهامه متابعة كل ما يثار في وسائل الإعلام، خاصة الداخلية، وسرعة الرد على ما فيها من أباطيل بالدليل الواضح والبراهين

القوية، فإن هذا أقوى في كشف أباطيلهم وأوقع في نفوس الناس وأقدر على إثبات عدم مصداقية الإعلام الزائف.

٨ - عدم التهاون في مواجهة الانحراف:

لا بدَّ من التفريق بين اختلاف الرؤى والأفكار وبين الانحراف ومخالفة النظم والتشريعات عن قصد وعمد بما يترتب عليه إفساد حقيقي، فمثل هذا الانحراف لا بد من مواجهته بكل حزم وعزم من غير ظلم أو تزيد، فإن التهاون في مثل ذلك يكون مدعاة لإغراء آخرين على الانحراف، ومواجهته بالحزم والجد يوشك أن يقطع دابره، ولنا في موقف أبي بكر الصديق - رضي الله تعالى عنه - من مانعي الزكاة، قدوة وأسوة، فعندما منع قوم الزكاة بعد وفاة الرسول الكريم ﷺ فاشتد في مواجهة هذا الخرق وقال قولته الشهيرة: «والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدّونه لرسول الله لقاتلتهم عليه». فأبو بكر يقسم بالله على القتال على منع عقال، والعقال حبل يربط به الجمل، وقد يرى الناس أن قيمة العقال المالية قيمة تافهة ولا ينبغي نصب القتال من أجلها، لكن أبا بكر - رضي الله تعالى عنه - لم ينظر لما يمثله منع العقال من قيمة مالية، وإنما نظر لما يمثل منعه من خروج على الحق واعتداء على أحكام الشرع، فأوقف الله تعالى بموقف أبي بكر - رضي الله تعالى عنه - الحازم خرقاً لو انفتح لم ينسد ولأفسد الدين والدنيا.

٩ - تنقية الصفوف:

النظام البائد الفاسد ظل في سدة الحكم قرابة الثلاثة عقود، وقد سبقتها عقود ثلاثة أخرى من الاتجاه نفسه، ومعنى هذا أن ممارسات الظلم والفساد متجذّرة في الإدارات وفي الأجهزة المتنفّذة بالدولة، ووجود هذه على هيئتها يُخشى منه أشد الخشية في محاولة الإفساد من داخل النظام الجديد وإيجاد مناخ تتوتر فيه العلاقة بينه وبين قطاعات من الشعب بغرض قطع أواصر الاتصال والتفاهم والتناصر بين النظام الجديد وبين الشعب حتى يفقد قوته وحتى يُنتزع منه ما يمكن أن يستند إليه في حالة حدوث إشكالات بين النظام الجديد وبين الأجهزة التي ما زالت على ولائها لفكر النظام البائد ولتصوراته وتصرفاته، وهذا التخالف والمشاكسة بين النظام الجديد وبين الأجهزة الفاسدة أمر متوقع ولا يستبعد قيامها بتغذية حركات معارضة تسعى لإشغال النظام الجديد وتمنعه من التقدم في تحقيق مشروعه الإصلاحي في جوانبه المتعددة، وقد بيَّن لنا القرآن خطورة أن يكون في الصف من لا ينتمي إليه، وبيَّن ما يعود على وجوده من الخبال والفتنة، قال الله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧]. ومن الأشياء التي يخشى أثرها بشدة أن هؤلاء المفسدين يجدون في صفوف المسلمين الصادقين من تروَّج عليهم أباطيلهم فيصدقونهم ويستجيبون لهم، وقد بيَّن ذلك قوله تعالى: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾، وهذا ما ينبغي أن يدفع النظام الجديد لتنقية الصفوف والأجهزة العاملة، خاصة ذات التأثير على أمن المجتمع واستقامته من تلك العناصر، والاجتهاد في عزلها عن مواقع المسؤولية والتأثير.

١٠ - الحذر من محاولات بثّ الفُرقة:

من بين الأشياء التي يسعى ممثلو الثورة المضادة لترويجها وإشاعتها إيجاد فرقة وقطيعة بين النظام الجديد والشعب، ولهم في ذلك الكثير من أساليب الغش والخداع والكذب وافتعال المواقف الحادة، على أمل أن يقع النظام الجديد في خطأ معالجتها ومن ثم الانطلاق من هذا الخطأ ببناء هرم من الأكاذيب والإشاعات، وفي الناس من هو مستعد لقبول هذا الكلام، ومن ثم لا مندوحة عن تكوين جهاز تكون مهمته متابعة محاولات الإفساد بين النظام الجديد وبث الفرقة، ومن ثم اتخاذ الخطوات السريعة والحاسمة للقضاء على هذا المسلك ومنعه من إحداث فرقة ومشكلات وقلاقل في المجتمع.

١١ - العناية بالفئات المهمَّشة وأهل العشوائيات:

الفئات المهمّشة وأهل العشوائيات من الذين تروَّج عندهم الأكاذيب، ويستجيبون بسرعة لكل ما يقال، وليست لديهم القدرة على التحليل لمعرفة زائف الكلام من حسنه؛ فينبغي أن توجَّه العناية الزائدة لهؤلاء، ولا يكتفى بالتعليم والتثقيف لهم على ما يكتب في الكتب والصحف وما يذاع في الفضائيات ونحوه، بل هذه الفئات تحتاج إلى الدعوة المباشرة والمخالطة حتى يمكن التأثير فيهم، وهؤلاء ينبغي أن يخصص لهم فرع خاص يقوم على ذلك يضع الخطط ويبيِّن الآليات ويشرف عليها، حتى تكون هذه الفئات قوة في جانب الحق والخير، ولا تكون قوة يستغلها أهل الفساد والشر في مزيد من الإفساد والقضاء على الآمال التي بدأت تلوح في الأفق من التغيير والانتقال من السيِّئ إلى الحسن ومن الحسن إلى الأحسن.

اللهم وفّق عبادك لتحكيم شرعك، وكفّ بأس المعاندين المحادين.

الانتخابات المصرية..
تحوُّل ديمقراطي بأفق إسلامي

طـلـعـت رمـيـح

انتهت الانتخابات الرئاسية المصرية إلى فوز د. محمد مرسي، مرشح جماعة الإخوان المسلمين وحزب الحرية والعدالة، فكان تشديداً على المعلوم بالضرورة خلال حكم النظام السابق، الذي كانت رموزه وكَتَبته ومنظروه يشددون على أن الديمقراطية في مصر والدول العربية والإسلامية لن تأتي إلا بالإسلاميين للحكم في معرض تبريرهم لأسباب استمرار استبداد الحكم وعدم الأخذ بآليات الديمقراطية التي طالما طالبهم الغرب باعتمادها لتطوير نظم الحكم العربية لتكون أكثر كفاءة ومشروعية. ولما كانت الانتخابات المصرية أحد تجليات «الربيع العربي»، أو خريف حكام بعض النظم العربية، فالمعنى العام أن «التحول الديمقراطي» الذي تشهده المنطقة، جاء بأفق إسلامي، إذ ذهبت أوضاع الحكم في كثير من الدول العربية باتجاه الإسلاميين.

كان نجاح د. محمد مرسي بمنزلة النتيجة المتوقعة بعد أن حقق الإسلاميون نسبة تفوق ٧٠٪ في انتخابات مجلسي الشعب والشورى، لذا يبدو الأهم أن تلك الآلية الديمقراطية لم تطرح الأفق الإسلامي للربيع العربي وفق معنى محدود، بل وفق رؤية لتحول واسع وكبير وعميق، إذ لم يأتِ التحول الديمقراطي مقتصراً على نجاح الإسلاميين في استخدام آليات الصراع الانتخابي، بل جاءت النتائج على خلفية تنافس وصراع وصدام فكري داخل المجتمعات، بما أعطى التحول الديمقراطي معنىً أشمل وأشد تأثيراً، أو بما جعله انتقالاً أصعب في مدلولاته وأشمل في طبيعته الفكرية والدينية على الصعيدين الداخلي والخارجي.

لقد انفتح الصراع الانتخابي على صدام فكري حول الإسلام والنص على أحكام الشريعة في الدستور الجديد وأسلمة الدولة وتغيير الهوية العَلمانية لها – أو التحديثية كما توصف عند بعضهم، خاصة بعد أن فاز الإسلاميون بأغلبية مقاعد اللجنة التأسيسية لصياغة الدستور. وعلى الصعيد الخارجي ظهرت مؤشرات جدية على بدء الدول الغربية خطة لمواجهة نتائج تلك الانتخابات في مضمونها وأفقها الإسلامي، إذ بدأت أجهزة الإعلام الغربية تتحدث عن تغيير شامل في بنى الدول والمجتمعات العربية باتجاه الإسلام الذي سيُعتمد أساساً لتغيير رؤية وحركة دول الربيع لأوضاعها الداخلية ولتحركها على صعد العلاقات الإقليمية والدولية. لقد نشطت حملة لبث المخاوف والشكوك لدى المجتمعات الأوروبية حول الإسلاميين القادمين للحكم؛ لسياسات وخطط خارجية تعتمد رؤية «الصراع الديني»، سواء في مواجهة الكيان اليهودي – الصهيوني، أو في مواجهة الغرب، وأخرى موازية حول تغييرات في الأوضاع داخل دول الربيع العربي تمس حقوق ما تسميه الأقليات الدينية (خاصة النصارى) والعرقية والمرأة وغيرها.

لقد جرت انتخابات الرئاسة في مصر على وقع الصدام والصراع الفكري، داخلياً وخارجياً، بما طرح الأفق الإسلامي لمعركة التحول الديمقراطي.

انتخابات تأسيسية

وواقع الحال أن ظهور الأفق الإسلامي للصراع الذي جرى خلال مجريات انتخابات الرئاسة، لا يمكن إدراك أبعاده إلا بفهم ما جرى في الانتخابات التشريعية، التي كانت المحطة الانتخابية الأولى ما بعد الثورة المصرية. في تلك الانتخابات التشريعية لانتخاب مجلسي الشعب والشورى، كانت الثورة المصرية أمام اختبارها الديمقراطي الأول، ما جعل كل القوى والمؤسسات الرسمية والتيارات الفكرية والسياسية في وضع الامتحان الأقسى. كان المجلس الأعلى للقوات المسلحة في وضع اختبار جديد عليه، ليس فقط لأنه هو من تولى إدارة البلاد بعد حصوله على صلاحيات موقع الرئيس فور سقوط مبارك ودخول البلاد في حالة فوضى واضطراب حادة، بل أيضاً لأنه استهدف دعم شرعية بقائه في السلطة لفترة أطول حتى يعيد ترتيب الأوراق لمرحلة ما بعد خمود الفوران الثوري وعواصفه التي اجتاحت مختلف جوانب الحياة في المجتمع والدولة.

وكانت التيارات والقوى السياسية في اختبار أقسى هي الأخرى، إذ انفتح الأفق أمامها بعد سقوط حواجز الضغط والتزوير والإرهاب السياسي والإعلامي الذي كان يمارس عليها في ظل النظام السابق (سقط الرئيس والحزب الوطني وتبدلت أوضاع أجهزة الأمن... إلخ) وصارت في مواجهة بعضها بعضاً، ما دفعها للتمايز والتشديد على اختلافاتها الفكرية لا السياسية فقط. والأهم أن الانتخابات لم تجرَ لمجرد احتلال مقاعد مجلسي الشعب والشورى، بل من أجل اختيار أعضاء الجمعية التأسيسية لوضع دستور جديد للبلاد. هذا العامل كان بالغ التأثير في الانتخابات، ما جعلها انتخابات إعادة تأسيس للبلاد، إذ نص الإعلان الدستوري (الذي جرى الاستفتاء عليه مع مطلع الثورة) على أن يتولى مجلسا الشعب والشورى اختيار أعضاء التأسيسية لوضع الدستور، ما دفع الصراع السياسي إلى أفق الصراع الفكري حول هوية مجتمع ودولة ما بعد الثورة.

غلب الطابع الفكري على الصراع الانتخابي، وإذ فاز الإسلاميون بأغلبية حاسمة من مقاعد البرلمان، ما مكنهم من تشكيل الأغلبية في اللجنة التأسيسية – وهو ما يعني تسييد رؤيتهم في صياغة الدستور الجديد؛ فقد انفتح الصراع ضدهم من القوى اليسارية والليبرالية والقومية المدعومة بإعلام فضائي وصحفي شديد التأثير، ما انتهى إلى حل التشكيل الأول للجنة الدستور وإعادة تشكيلها وحل مجلس الشعب نفسه من بعد، وهو ما أدخل البلاد في فوضى ونفق سياسي مظلم، إذ عادت سلطة التشريع والرقابة وإقرار الميزانية للمجلس الأعلى للقوات المسلحة، وفق ما أصدره من إعلان دستوري مكمل – بعد حل مجلس الشعب – منح فيه هذه السلطات لنفسه وأضاف عليها حقه في الاعتراض على أي مادة من مواد الدستور الجديد، ما جعل الانتخابات الرئاسية المصرية قضية صراعية بالغة الخطورة والتأثير على مستقبل البلاد، لا من الجانب السياسي الديمقراطي فقط، بل من زاوية التأثير على الأفق الإسلامي الذي طُرح منذ بداية الثورة كأساس للتحول الديمقراطي.

اللحظة الخطرة

رغم حل مجلس الشعب المصري، وإلقاء قرار حله بظلال الخطر على الانتخابات الرئاسية وتحويلها إلى صراع على بقاء الثورة أو نجاح الثورة المضادة، إلا أن المجلس كان قد أدخل - قبل حله - تعديلاً على قانون انتخابات الرئاسة لم يُفهم مغزاه وأهميته البالغة في وقتها، لكنه لعب دوراً حاسماً في تقرير مسيرة الانتخابات ومصير البلاد من بعد.

أدخل مجلس الشعب تعديلاً على قانون الانتخابات سمح للقضاة المشرفين على اللجان الفرعية (وعددها أكثر من 13 ألف لجنة)، بتسليم مندوبي المرشحين نتائج فرز كل صندوق من صناديق الانتخاب فور انتهاء أعمال الفرز. هذا التعديل هو ما سمح لأنصار الرئيس د. محمد مرسي بجمع نتائج الصناديق وإعلان النتيجة في فجر اليوم الثاني لأعمال الفرز، لتبدأ مظاهرات الاحتفال في مقر الحملة التي انتقلت لتتحول إلى مظاهرات ضغط وحشد شعبي سياسي في ميدان التحرير وغيره من الميادين في المحافظات، فانتهى الأمر إلى صدور نتيجة الفرز بفوز مرسي.

لقد كانت الانتخابات نقطة مفصلية في تاريخ الثورة المصرية، إذ جاءت بعد انفراد المجلس الأعلى للقوات المسلحة بسلطة القرار التنفيذي والتشريعي في الدولة – بعد حل مجلس الشعب وصدور الإعلان الدستوري المكمل - وكان وصول مرشح موالٍ للعسكر بمنزلة إصدار شهادة ديمقراطية بموت الثورة، إذ لو فاز المرشح المنافس لمرسي في جولة الإعادة (الفريق أحمد شفيق) لكان ذلك إعلاناً بانتصار الثورة المضادة. ولذا تمحورت شعارات المعركة الانتخابية حول بقاء الثورة واستمرارها من قبل د. مرسي، وحول استعادة الأمن والاستقرار من قبل منافسه شفيق.

غير أن العامل الحاسم والجوهري في الانتخابات، باعتبارها نقطة تحول في مسألة إعادة تأسيس الدولة المصرية؛ هو «الأفق الإسلامي» المرتبط والمهيمن على تلك المعركة، إذ المرشح الفائز هو رئيس حزب الحرية والعدالة الذراع السياسية للإخوان – وهو عضو مكتب الإرشاد - صاحبة الرؤية والطرح الأكثر اتساعاً وشمولاً للبرنامج الإسلامي في المعركة الانتخابية.

لقد كان هناك ثلاثة مرشحين إسلاميين في الجولة الأولى – بعد استبعاد لجنة الانتخابات الرئاسية الشيخ حازم صلاح أبو إسماعيل ونائب مرشد الإخوان خيرت الشاطر، إلا أن د. مرسي أحرز أعلى الأصوات على حساب المرشَّحين الإسلاميين الآخرين (د. عبد المنعم أبو الفتوح، ود. محمد سليم العوا).

وقد تسبب بقاء مرشح وحيد للحركة الإسلامية في الجولة الثانية، ينافسه مرشح كان آخر رئيس وزراء في عهد مبارك؛ في جمع شمل الحركة الإسلامية، إذ أعلن د. عبد المنعم أبو الفتوح دعمه لمرسي، وكذا فعلت الدعوة السلفية وحزب النور وكل الأحزاب والفصائل والهيئات الإسلامية الأخرى، ما جعل معركة الرئاسة ذروة معركة التحول الديمقراطي - واستمرار الثورة - بأفق ورؤية إسلامية، إذ أصبحت المعركة بين الإسلاميين – الذين أصبحوا بتلك الانتخابات في أعلى هرم قيادة الثورة وأمل بقائها واستمرارها – في مواجهة الثورة المضادة التي أعادت تجميع صفوف عناصر النظام القديم.

كان فوز مرسي ضرورة حاسمة لاستمرار الثورة، لكنه مثّل بدايـــة لنمط جديد من الصراع بين الرئيس المنتخب وســـلطة المجلس الأعلى للقوات المسلحة، أو ما يسمى في مصر «الدولة العميقة». وكان تأخير إعلان النتائج مؤشراً على صعوبة وشدة حالـــة التضاغط الجارية. كان الفوز إعلاناً باســـتمرار معركة التحول الديمقراطي، إذ قضايا كثيرة لم تحسم بعد على صعيد مـــن هو صاحب القرار في إدارة الدولة، وطُرحت مجدداً فكرة أن الثورة حصلت على اندفاعتها الحقيقية على اعتبار أن الثورة لا تحقق نجاحاً إلا إذا أصبح ممثلوها أصحاب القرار السياسي في إدارة الجهاز التنفيذي للدولة، وحصلت الحركة الإســـلامية علـــى اندفاعة جديدة بوصولها إلى كرســـي الرئاســـة المنوط به إصدار القرار السياســـي لأجهـــزة الدولة، وطرحت ضرورة مواجهـــة تحدي توزع وتفرق فصائلهـــا، خاصة في ظل تحدي ضرورة اعتمـــاد أدوات الضغط والحشـــد الجماهيري وعدم الاقتصار على آليات الديمقراطية وحدها... إلخ.

لقد جاء وصول المرشـــح الإســـلامي د. مرســـي إلى كرسي الرئاسة في مصر، ميلاداً لحالة صراع جديدة، إذ يرى كل المحللين أن البلاد خرجـــت من مرحلة انتقالية أولـــى ودخلت في مرحلة انتقالية أخـــرى قوامها صراع متعدد الأبعـــاد وإن كان في اتجاه واحد: مَن صاحب القرار السياســـي في إدارة الدولة؟ وهل ينجح الإسلامي د. محمد مرسي في قيادة التحول الديمقراطي.. بأفق إســـلامي؟ أم أنه ســـيضطر لتقديم تنازلات للتيارات الأخرى في المجتمـــع ما يؤثر في زخم اندفاع وتطور وتبلور الأفق الإســـلامي الذي جاء مترافقاً ومتزامناً منذ بداية مجريات الثورة؟

وصل د. مرسي للرئاســـة محاصراً في صلاحياته (بحكم الصلاحيـــات غير المحددة التي حصل عليهـــا المجلس الأعلى للقوات المســـلحة)، وبدأ دورته الرئاسية بلا مؤسسات تمثيلية (نيابية) من نتاج الثورة لتدعمه وتسانده، ووصلت درجة حصار وتقليص صلاحياته إلى حد النص في الإعلان الدستوري المكمل (وشـــهرته في الإعلام تدور حول المكبل أو المكمم ويصل الأمر إلى حد وصفه بالإعلان غير الدســـتوري) على أن الرئيس إذا قرر الاســـتعانة بالقوات المسلحة أو تكليفها بأداء مهمة معينة، فليـــس له إصدار أمره لينفذ، بل يطلب من المجلس الأعلى أداء المهمة، فيبحث المجلس في طلبه ويقرر ما يفعل، ما يمثل إشارة إلى عدم اعتبـــار الرئيس القائد الأعلى للقوات المســـلحة، إذ سيُعرض الأمر للحوار وإصدار القرار.

أصبح البُعـــد الأول في الصراع الراهن متعلقاً بصلاحيات الرئيس، وبمدى ســـيطرته علـــى الأجهزة التنفيذيـــة للدولة. وفـــي البُعد الثاني أصبحت عودة مجلس الشـــعب وإنهاء قرار حـــل المجلس مادةً للصراع داخل أروقـــة الدولة أو بين الرئيس والقضاء والمجلس الأعلى للقوات المســـلحة. وفي البُعد الثالث يأتي الموقف شـــديد الصراع حول الإعلان الدســـتوري المكمل الذي يبـــدو مضمون وجوهر الصراع في تلك المرحلة، ســـواء لأنه قلص صلاحيات الرئيـــس، أو لأنه أعطى المجلس الأعلى صلاحيات مطلقة على حســـاب صلاحيـــات الرئيس، أو لأن المجلـــس الأعلى صار في موضع النائب عن الشـــعب والواقف على ربوة صلاحيات فوق الشـــعب وإرادته، إذ أعطاه الإعلان الدســـتوري حق إعادة تشـــكيل اللجنة التأسيســـية لصياغة الدســـتور في حال صدور قرار قضائي بحلها – كما حدث من قبـــل مع اللجنـــة الأولى – وحق الاعتراض علـــى أي مادة من موادها قبل الاســـتفتاء عليها (ســـواء اللجنة التي شكلها نواب الشعب أو تلك التي قد يشكلها المجلس الأعلى).

ولـــذا يجري الصـــراع الراهن داخل الإطار نفســـه الذي تحدد منذ بداية الثورة؛ صـــراع حول التحول الديمقراطي بما يتضمنه من صلاحيات الرئيس ومســـألة حل مجلس الشـــعب وما حصل عليه المجلس الأعلـــى من صلاحيات، وصراع حول هوية الدولة والمجتمع كما هو ظاهر من الصراع حول تشـــكيل اللجنة التأسيسية لصياغة الدستور وأصل الخلاف فيها حول من صاحب الأغلبية التي تقرر نصوص الدستور القادم.

وهنا تتعـــدد التقديرات حول مصير الصراع وســـيناريوهاته واحتمالاته؛ فهناك من يرى أن الأمور ستذهب نحو تسوية ضمنية عملية بعيداً عن المســـاس بالنصوص وأن القرار السياسي للدولة سيصدر وفق توازنات وأعمال ضغط متبادلة بين مختلف الأطراف، وهناك من يرى أن الصدام حتمي وأن البلاد ستشهد عنفاً وأعمال قمـــع قد تتطور إلـــى صراع داخل الدولة، ويـــرى طرف ثالث أن الطرفين ســـيعتمدان آلية صراع قضائية يعود بمقتضاها مجلس الشعب بثلثي نوابه ويستكمل باقي الأعضاء (الثلث المطعون عليه) بما ينهي أزمة الســـلطة التشـــريعية، ومعها يفقد المجلس الأعلى للقوات المسلحة سلطة التشريع والرقابة وإقرار الميزانية التي يكبل بها خطوات الرئيس وفق الإعلان الدستوري، وأن الأمور ستجري علـــى هذا النحو في قضايا أخرى إلى أن يحدث توازن مقبول من طرفي الصراع على صعيد صلاحيات القرار.

وفي ذلك يعود التساؤل المحوري ليطل طالباً الإجابة: كيف يكون الأفق الإسلامي للثورة وسط كل ما يجري؟

هليكوست جديد في أراكان

مجلة البيان

من أفغانستان إلى الفلبين، إلى كشمير والعراق والصين وفلسطين وسورية والأحواز، إلى حيث وُجد المسلمون وَجد أعداء الإسلام أساليبهم للتنكيل بهم رغم اختلاف معتقداتهم العدائية التي بسببها يعادون الإسلام، فإنهم توحَّدوا على غايتهم، سواء كانوا مجوساً أو بوذيين أو نصارى أو نصيريين أو يهوداً أو وثنيين؛ كلهم اجتمعوا على العداء للإسلام، وكأنها حكمة الله سبحانه وتعالى بأن يعود الإسلام غريباً كما كان وسط حالة الضعف والهوان التي تعيشها الأمة واستباحة كل شيء فيها من قبل أعدائها.

إقليم أراكان المسلم الذي توالى على حكمه ٤٨ ملكاً مسلماً، وأصبح دولة إسلامية يُضرب بها المثل في الحضارة والازدهار في جميع المجالات، ودخل أهله الإسلام بسماحتهم وأخلاقهم وكرمهم دون أن تراق قطرة دم واحدة؛ يتعرَّض اليوم لأبشع الجرائم في مأساة تتكرَّر منذ أن احتل الملك البوذي «بوداياي» هذا الإقليم عام ١٧٨٤م وأمعن في اضطهاد أهله وترهيبهم وتهجيرهم من مدنهم وقراهم.. وبمساعدة بريطانيا في ذلك الحين أخذت الجريمة تتكرَّر، خصوصاً مع ضم بورما إلى حكومة الهند الاستعمارية، التي قامت بطرد المسلمين من وظائفهم الحكومية، ومصادرة أملاكهم وتوزيعها على البوذيين، وتحريض وتقوية البوذيين على المسلمين، وإغلاق المعاهد الشرعية والمدارس والمحاكم الإسلامية ونسفها بالمتفجرات.. واليوم المأساة نفسها يعيشها سكان الأراكان البالغ عددهم أربعة ملايين مسلم.

في عام ١٩٤٢ وفي أجواء الحرب العالمية الثانية، كانت دولة أراكان ملتقى اليابانيين والإنجليز، فدارت على أراضيها معارك راح ضحيتها أكثر من مائة ألف مسلم بتآمر من جماعات «الماغ» البوذية، حيث زوَّدهم اليابانيون بالأسلحة والذخائر وكذلك البريطانيون الذين كانوا يستعمرون الهند في تلك الحقبة، وشُرِّد نصف مليون مسلم جراء هذه المجزرة، كما أُحرقت ودُمِّرت ٣٠٧ من قرى المسلمين تدميراً كاملاً.

وقبل أيام قامت جماعات بوذية بتكرار الجريمة نفسها من خلال مهاجمة قرى وبيوت المسلمين، حيث قتلت أكثر من ٤٠٠ شخص، وجرحت الآلاف، إضافة إلى تدمير العشرات من القرى والمدن على مسمع ومرأى المدافعين عن حقوق الإنسان في العالم الغربي.

يتجاوز عدد اللاجئين المسلمين من أراكان في بنغلاديش بحسب الإحصاءات الرسمية، أكثر من ٧٠٠ ألف لاجئ، والمسجل منهم لدى وكالة اللاجئين التابعة للأمم المتحدة ٣٠ ألف لاجئ فقط، والبقية من اللاجئين غير المسجلين حالياً لا يتمتعون بالحماية من جانب المفوضية؛ لأنهم وصلوا بعد توقف حكومة بنغلاديش عن منح مرتبة اللاجئ للروهنجيين المسلمين المهاجرين من بورما هرباً من قطار الموت الذي تقوده جماعة «الماغ» البوذية المتطرفة.

وتقوم حكومة بنغلاديش بطرد الكثيرين منهم وتعرّضهم للاعتقال التعسفي بهدف ردعهم عن الفرار إلى أراضيها.

ويشير تقرير إخباري إلى أن عشرات الآلاف من اللاجئين البورميين غير المسجلين في المخيم المؤقت ببنغلاديش، لا يستطيعون الحصول على المعونات الغذائية، وأن ٢٥٪ من الأطفال يعانون حالات سوء التغذية الحادة، وأن ٥٥٪ من الأطفال ما بين ٦ و٥٩ شهراً يعانون الإسهال، وأن ٩٥٪ من اللاجئين يقترضون ويتسوّلون ليأكلون.

وفي موقف خبيث من قبل حكومة ميانمار، التي من المفترض أن تقوم بحماية هؤلاء الأبرياء، شكر نائب وزير خارجيتها ماونغ مينت حكومة بنغلاديش على عدم قبولها النازحين المسلمين من أراكان الذين حاولوا اللجوء إلى أراضيها بعد تعرّضهم لمجازر وحشية على يد البوذيين «الماغ» في شمال أراكان خلال شهر يونيو ٢٠١٢م.

وقبل أيام نُشر خبر عن وفاة أربعة سجناء من المسلمين في سجن بوسيدنغ بعد تعرضهم للضرب المبرح على أيدي الشرطة في ميانمار. ويقول شهود عيان إنه تم نقل ٢١٨ سجيناً من مدينة منغدو إلى سجن بوسيدنغ بعد أحداث يونيو، وهم يتعرضون لأبشع أنواع التعذيب، ولا يُسمح لأحد، حتى السجناء الموجودين في السجن نفسه، بزيارة هؤلاء المعتقلين.

وفي ظل حالة الطوارئ وحظر التجول في مناطق المسلمين، فإن الحكومة تواصل الاعتقالات العشوائية بشكل شامل في مدينة منغدو وضواحيها والمناطق الجنوبية؛ بناءً على القائمة التي أعدتها الشرطة بمشورة من البوذيين المحليين، وهي تستهدف العلماء والأطباء وزعماء المسلمين والنشطاء الشباب.

وبحسب تقارير تأتي من هناك، فإن رجال الشرطة وحرس الحدود (ناساكا) يقومون، بدعم من البوذيين المسلحين، بمحاصرة قرى المسلمين واقتحام البيوت وهتك الأعراض ونهب الأموال والأشياء الثمينة، وإذا قاومهم أحد اعتقلوه، كما يستهدفون في حملتهم العلماء والأطباء والمتعلمين وأئمة المساجد وزعماء القرى.. وإلى أن تثمر نتائج الربيع العربي فإننا بحاجة إلى ربيع إسلامي يحرك قضايا المسلمين ويدافع عنها في جميع أنحاء العالم، ولا يجب أن نمتلك القوى ولا نستغلها.. نحن بحاجة إلى وحدة القرار والموقف.. المسلمون هناك بحاجة إلى أكثر من الدعاء ولا يجب السكوت عن هذه الجريمة النكراء.

مرصد الأخبار

جلال سعد الشايب(*)
galal_elshayp@hotmail.com

مسلمو بورما.. بين مجازر بوذية وإهمال إسلامي

يتعرَّض مسلمو بورما إلى حالة من الاضطهاد غير المسبوق في تاريخ البلاد، وذلك ضمن حملات الاضطهاد المتواصلة ضدَّهم منذ عقودٍ عديدة، إلا أنها قد تَعاظَمت في الأيام الأخيرة، في ظل انشغال العالم العربي بثوراته وحركاته وصراعاته؛ والعالم الإسلامي بتحدياته وهمومه.

وعن موقف حكام أمتنا فإنه لم يختلف كثيراً في مثل هذه المواقف؛ فقد صدرت من بعضهم انتقاداتٌ واستنكارات هادئة ضد المذابح الجارية هناك، فيما لا يزال آخرون يُفكرون في ماذا يصدرون وماذا يقولون عن هذه المذبحة المروِّعة، والتي وإن كانت متواصلة منذ سنوات، إلا أنها تزايدت في الآونة الأخيرة.

وحتى تلك الانتقادات والاستنكارات التي ظهرت من بعضهم؛ لم تتم ترجمتها في صورة مواقف واضحة كسحب سفراء، وتوقف إمدادات... وغير ذلك.

وقد أكد تقريرٌ حقوقي أن مسلمي ولاية أراكان الواقعة غرب بورما يتعرضون لمجازر وعمليات قتل مروعة بعدما تحولت المواجهات التي يشهدها الإقليم إلى حرب شاملة ضد المسلمين، فيما ترفض بنغلاديش المجاورة استقبال المسلمين الفارين من بورما. [عدة مواقع ٢٠١٢/٧/٦]

لا وجود للدولة «الدينية» في الإسلام

في محاضرة له بالقاهرة أكد الشيخ محمد الحسن بن الددو الشنقيطي، أن الدولة الدينية غير موجودة في الإسلام، وأنها «مجرد خرافة»؛ لأنها قائمة على ادعاء العصمة لمن لا عصمة له.

وقال الشيخ في لقاء مفتوح مع المشاركين في مؤتمر منظمة «فور شباب» الرابع في القاهرة: «لا يوجد أحد من أهل الإسلام قال بوجود الدولة الدينية باستثناء الفرقة الإمامية من الشيعة، وهي مرتبطة عندهم بعصمة الأئمة وبنسخ أقوالهم للكتاب والسنة».

كما أكد الشيخ أن قصارى ما يمكن المطالبة به في النظام السياسي الإسلامي، هو تطبيق شورى لا يمارَس فيها إكراه على أحد، والكتاب والسنة لم ينصا على تطبيق محدد للشورى، وإنما اختلفت الطريقة التي طبقها بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وطريقة اختيار أبي بكر رضي الله عنه للخلافة، ثم اختيار الخلفاء من بعد أبي بكر رضي الله عنه.

واختتم الشيخ الددو كلامه بقوله: «بتطبيق الإسلام في الدولة بما يحمله من عدالة وتوزيع عادل للثروات ودعم لجهود العلماء والمصلحين، ستقل الجرائم التي تستدعي حدوداً». [موقع الشيخ، وموقع مفكرة الإسلام ٢٠١٢/٧/٣]

الحرب الإعلامية على الإسلاميين في مصر بالأرقام

قال مركز «ابن رشد» للدراسات الحضارية إن جماعة الإخوان المسلمين وحزبها «الحرية والعدالة» تعرضا خلال الـ ٥٠ يوماً الماضية لهجوم يومي بمتوسط ١٢٠ ساعة تلفاز، و١٣٢ مقالاً، و١٥٠ صفحة جرائد. وأشار المركز إلى أن نسبة إتاحة الرد للإخوان لم تتجاوز الـ ٦,٣ ٪ فقط!!

وقال الدكتور محمد البلتاجي القيادي في الجماعة لـ «المصريون»، إن محاولات الهجوم وتشويه صورة الإخوان ستستمر ما داموا موجودين في العمل السياسي، مشيراً إلى أنهم لا يلقون بالاً بمحاولات إيقافهم عن العمل والأداء المتواصل، وفي الوقت نفسه سيلاحقون أي محاولات لإثارة الرأي العام أو توقيف عجلة الوطن.

وأشار البلتاجي إلى أن وسائل الإعلام تحاول جاهدة أن تعرقل مسيرة الإخوان وأن تفشلهم، وقال: «لكن دائماً نصر الله هو ما يكون».

وأضاف: «الإعلام ظل يهاجم ويفتري على الإخوان أثناء العملية الانتخابية، وكانت النتيجة فوز مرشح الجماعة والتفاف الجميع حوله، فدائماً ما يكون كيدهم مردوداً عليهم». [المصريون ٢٠١٢/٧/٤]

(*) نرحب بمقترحاتكم البنَّاءة في باب مرصد الأحداث على بريد الكاتب.

هل بدأت محاولات تشييع مصر؟

حذَّرت وزارة الأوقـــاف المصرية الأئمة والدعاة من قبول دعوات «مشـــبوهة» لزيارة إيران، مؤكدةً أن تلك الدعوات «يُراد بها بلبلة عقيدة الأمة وإثارة الفتن في كيانها».

وقالت الـــوزارة في بيان لها: «لوحظ في الفترة الأخيـــرة توافد بعض الشـــخصيات الإيرانية على مساجد آل البيت بالقاهرة والأقاليم، وذلك لتقديم دعوات مجانية مشـــبوهة لزيارة ما يسمى العتبات المقدسة بإيران موقَّعاً عليها من بعض الشخصيات الدينية الإيرانية».

وأهابـــت الوزارة بالمختصين إخطارها فوراً بأي دعـــوات من هذا النـــوع تدعو لزيـــارة إيران غير محددة المصدر.

وأكدت الوزارة أنها ستتخذ إجراءاتها بكل شدة وحزم ضد من يستجيب لتلك الدعوات أو يروج لها.

وشهدت الفترة الأخيرة ما يمكن اعتباره انفتاحاً إيرانياً شعبيّاً على مصر، حيث قام عدد من رجال الدين الإيرانيـــين بزيارة مصر، ومـــن بينهم علي الكوراني الذي عقد سلسلة من الندوات أوائل شهر مايو الماضي، وقام بافتتاح أول حسينية شيعية في مصر أغلقتها الســـلطات لاحقاً بعد ما أثارته من غضب لدى جموع المصريين.

ويتحفظ النظام الرسمي المصري والأزهر على المحاولات الإيرانية للانفتاح على مصر، ويرى فيها «محاولات لتشييع مصر».

[الدستور ومفكرة الإسلام ٢٠١٢/٦/٢٢]

وسائل جديدة للتبشير في موريتانيا.. (إنجيل على شكل المصحف)

اســـتنكر المواطنون في العاصمة الموريتانية نواكشـــوط العثور على كثير من كتب الإنجيـــل المطبوعة باللغة العربية وســـط سوق العاصمة، والتي تُباع أمام المحال التجارية وفي بعض المكتبـــات الصغيرة الموجودة على قارعة الطريق. وقد كُتِب على تلـــك الكتب عناوين بالعربية بالخط العريض مثل «المعنى الصحيح لإنجيل المسيح» و«أخبار سارة.. الله يحبك يا صديقي المسلم».

وكانت العاصمة نواكشـــوط قد شهدت قبل أشهر جدلاً كبيراً حول قضية المحاولات التبشـــيرية بعد اكتشاف خلية ســـرية توزع الكتب ذات الطابع المسيحي، إضافة إلى نشاط مشبوه من قبل منظمات تتهم بمزاولة العمل التبشيري تحت عناوين التدخل الإنســـاني، وهي تصرفات يحظرها القانون الموريتاني.

كما تم كشـــف مجموعة من نسخ الإنجيل في نواكشوط تتسم بحجمها القريب من حجم المصاحف القرآنية المتداولة فـــي موريتانيا وبخطهـــا العربي المطابـــق لخط المصاحف بروايتي «ورش» و«غالون»، مع فارق بارز يتمثل في غياب أي كتابة على أغلفة نسخ الإنجيل.

وكان علمـــاء وأئمة قد طالبوا في بيانهم الختامي لمؤتمر علمـــاء الأئمة وهيئات الإشـــراف على المنتـــدى الإفريقي للتواصل بين العلماء، الشـــهر الماضي، بـــ «ضرورة تكثيف الجهود لصد حملات التنصير والتهويد في القارة السمراء».

ودعا المؤتمرون «المؤسسات المالية الإسلامية إلى التعاون على إنشاء مصرف للدعوة يموَّل من أنصبة الزكاة وعائدات الوقف، ويصرف منه على نشـــاطات الدعوة في القارة، وفق خطة عمل تستهدف تحصين المسلمين من حملات التّنصير ودعايات التشـــويه التي تستهدف الأمة الإسلامية، وتبصير سائر الناس بحقائق الدين الحنيف».

[العرب اليوم ٢٠١٢/٦/٢٧]

• نشر تقرير حقوقي أعده مجموعة من اللاجئين المسلمين في بنجلاديش حول وضع المخيمات واللاجئين، أن عدد اللاجئين البرماويين المسلمين في بنجلاديش تجاوز ٧٠٠ ألف لاجئ، المسجل منهم لدى وكالة اللاجئين التابعة للأمم المتحدة ٣٠ ألف لاجئ فقط.

ويشير التقرير إلى أن عشرات الآلاف من اللاجئين البورميين غير المسجلين في المخيم المؤقت في بنجلاديش لا يستطيعون الحصول على المعونات الغذائية، وأن ٢٥٪ من الأطفال يعانون حالات سوء التغذية الحادة، وأن ٥٥٪ من الأطفال ما بين ٦ – ٥٩ شهراً يعانون الإسهال، وأن ٩٥٪ من اللاجئين يقترضون ويتسولون ليأكلوا. [موقع خدمة العصر ٢٠١٢/٧/٣]

• عقب اندلاع المظاهرات الفئوية أمام القصر الجمهوري، قامت جريدة «اليوم السابع» المصرية باستطلاع للرأي على موقعها الإلكتروني؛ حول القضية في سؤال بعنوان: هل توافق على المظاهرات الفئوية أمام قصر الرئاسة؟

وأشارت النتائج إلى أن: ٨٥,٨١٪ من المشاركين في الاستطلاع صوتوا بـ «نعم»، بينما صوتت نسبة ١٣,٩١٪ من القراء بـ «لا»، ولم تهتم نسبة ٠,٢٩٪ بالتصويت.

ويشار إلى أن الجريدة لم تبين العدد الإجمالي للمصوتين أنفسهم، وهو مما يشكك في هذه النتيجة. [اليوم السابع ٢٠١٢/٧/٥]

• كشفت الكاتبة شهلا شفيق الإيرانية، وأستاذة علم الاجتماع، اللثام في تصريحاتها لمجلة «لوبوان» الفرنسية، عن أن ما يقرب من نحو ٦٠ إلى ٨٠ مليون لتر خمر تدخل بشكل غير شرعي إلى إيران، التي تمنع دخول كل الكحوليات إلى البلاد منذ عام ١٩٧٩.

وذكرت المجلة الفرنسية أن هذه المعلومات تعبر عن حقيقة تعد من المفارقات الكثيرة التي يتخبط داخلها المجتمع الإيراني، لا سيما مع وجود أكبر العلامات التجارية كالويسكي والفودكا التي تباع بأسعار عالية.

وقالت الكاتبة الإيرانية: «تجارة هذه المواد تكلف نحو ٥٨٠ مليون يورو، والإيرانيون أصبحوا متخصصين في صناعة النبيذ والخمور داخل المنازل».

وأضافت: «هناك نوع آخر من الكحول منتشر بشكل كبير في إيران، وهو العرق الذي يحتوي على نسبة ٤٥٪ من الإيثانول».

[شبكة سني نيوز الإخبارية ٢٠١٢/٦/٣٠]

• أوضح السفير محمد بن إبراهيم التويجري الأمين العام المساعد لجامعة الدول العربية – رئيس قطاع الشؤون الاقتصادية – أن الفقر والاستبداد والاحتكار كانت كلها عوامل مهمة أسهمت في انتفاضة الشعوب العربية، إلا أن أهم أزمة تواجه الشباب العربي حالياً تتمثل في ارتفاع نسب البطالة، حيث من المتوقع أن يتجاوز عدد الباحثين عن عمل في الوطن العربي عام ٢٠١٥ أكثر من ٥٢ مليوناً، مقابل ٣٢ مليون شخص سنة ٢٠١٠. [العربية ٢٠١٢/٦/٩]

• نشرت صحيفة «البينة» تقريراً أعدته وزارة التخطيط العراقية تحت عنوان «خارطة الحرمان ومستويات المعيشة في العراق لعام ٢٠١١»، أكد أن ٣٠ في المائة من العراقيين يعيشون تحت خط الفقر، منهم ما يقارب ٤ في المائة يعيشون في مستوى معيشي منخفض جدّاً.

وأوضح التقرير أنه بالنسبة للأسر، فإن نحو ٢٨ في المائة منها تعيش في مستوى متدنٍ، وما يقارب ٣ في المائة منها تعيش في مستوى معيشي منخفض جدّاً.

وأفادت النتائج بأن أقل المحافظات حرماناً هي الأنبار وبغداد وكركوك والبصرة ومحافظات كردستان، حيث لا تتجاوز نسبة السكان المحرومين في أي منها ٣٠ في المائة، بينما أكثر المحافظات حرماناً هي: ميسان والمثنى والقادسية وذي قار جنوبي البلاد، حيث تراوح نسبة السكان المحرومين فيها ما بين ٤٨ و٥٦ في المائة.

وقالت الصحيفة: «التقرير نفذ ميدانيّاً لجمع بيانات اجتماعية واقتصادية على مستوى المدن والبلدات والقرى والأرياف في جميع المحافظات، من ضمنها محافظات إقليم كردستان».

[شبكة أخبار الناصرية ٢٠١٢/٤/٣٠]

• يبذل بنك «بيتك ماليزيا» جهوداً موسعة لبيع صكوك إسلامية بقيمة ٣ مليارات رينجيت ماليزي (ما يعادل ٩٤٠ مليون دولار) تضمنها الحكومة الماليزية بالمشاركة مع اثنين من البنوك الماليزية.

وقامت الشركات الماليزية ببيع صكوك إسلامية بقيمة ١٥ مليون رينجيت ماليزي في ٢٠١٢ بزيادة ٨ ٪ على الفترة نفسها من العام الماضي.

وذكرت مصادر أنه من المتوقع أن تصل أصول البنوك التي تخضع لأحكام الشريعة الإسلامية إلى ١,١ تريليون دولار العام الجاري مقابل ٨٢٦ مليار دولار في ٢٠١٠.

[الإسلام اليوم ٢٠١٢/٦/٩]

(س) و (ج)

س: ما التحديات التي تواجه رئيس مصر الجديد؟

ج: تردد هذا السؤال منذ أن صعد أول رئيس إسلامي لسدة الحكم؛ ورأينا أن ننقل رأي مثقف جديد (مثقفو المنتديات)، فتنوعت إجاباتهم حول هذه الأشياء:

أولاً: يرى (ز ع أ) أن التحديات كثيرة جداً، ومنها:

١. فك الارتباط بين مصر وإسرائيل، وفتح باب جديد للعلاقات المصرية السودانية، والمصرية الإفريقية، لأن مصر في عهد مبارك لم تهتم بإفريقيا نهائياً.

٢. إعادة ترتيب الأوضاع الداخلية لمصر، والقضاء على فلول مبارك وأتباعه الموزعين في كل مفاصل الدولة.

٣. إعادة الهيكلة العامة للدولة المصرية، وتحسين المستوى المعيشي للمواطن.

٤. العلاقة مع أمريكا، والتوجه نحو الاكتفاء الذاتي: (الزراعي، والصناعي، إلخ).

ويستكمل (غ أ) تلك التحديات في صورة إحصاءات؛ فيقول: من أهم تلك التحديات: الأمية ٤٠٪، والمرض ٥٠٪، والمعاقين ١٠٪، فضلاً عن المخدرات (هلاك المال والعقل)، والتخلف في مخرجات التعليم، والانفلات الإعلامي تحت مسمى (الحرية).

ويضيف المثقف (الجديد) «لكن لمصر ميزة قد تعبر بها كل هذه الأزمات؛ وهي: ارتفاع أعداد حفظة القرآن، ومصلي الفجر».

وتتحدث (أ ك) عن التحديات الخارجية، فتقول: بالنسبة للتحديات الخارجية، أولاً: ليبيا وتهريب السلاح عبر الحدود المصرية، والقضية الفلسطينية وإسرائيل، واتفاقية (كامب ديفيد)، والعلاقة مع دول الخليج، والعلاقات المصرية الإيرانية والضغوطات الأمريكية، وأخيراً علاقات السودان - المؤهلة لثورة بسبب الوضع الحالي - وموقف مصر منها وليس الرئيس وحده.

بينما يرى (أ ع) أن أهم التحديات الآن أمام الرئيس هي: معركة الدستور، وإصلاح مؤسسات الأمن والجيش، وإعادة محاكمة مبارك والاقتصاص لدماء الشهداء، ثم خارجياً: سورية أولاً، وغزة ثانياً، ودول حوض النيل ثالثاً.

[بتصرف من قسم المنبر السياسي، من منتدى بوابة العرب ٢٠١٢/٦]

علامة تعجب

مرسي.. بداية لسلام حقيقي مع إسرائيل؟!

توقَّع توماس فريدمان الكاتب الأمريكي في مقال له بصحيفة «نيويورك تايمز» الأمريكية؛ أن انتخاب محمد مرسي رئيساً لمصر قد يكون بداية لسلام حقيقي بين مصر والكيان الصهيوني، معتبراً أن سلام «مرسي» سيكون أفضل من السلام البارد والرسمي الذي كان بين «إسرائيل» و«فرعون مصري وحيد».

وطالب الكاتب الجانبين (المصري والصهيوني) بتغيير بعض السلوكيات الراسخة بعمق وسريعاً من أجل تحقيق ذلك، كما طالب بضرورة التخلص من السذاجة في التفكير الصهيوني الذي يجد سهولة في أن يمتلك سلاماً مع ديكتاتور مثل مبارك وليس ٨٠ مليون مصري، مشيراً إلى أنهم كانوا يعتقدون أنه في حالة امتلاكهم لعلاقة مع مبارك أو غيره فإن لديهم كل ما يحتاجون إليه، إلا أنه بمجرد انهيار السلطوية وبدء عملية تطبيق الديمقراطية، فإن هذا كله سينهار.

وقال الكاتب أيضاً إنه يتعين على الكيان الصهيوني الآن أن يجعل رجل الشارع لا يخشاه فقط، بل يفهمه أيضاً، معتبراً أن هذا ليس بالسهل، كما أنه ليس بالمستحيل أيضاً.

في النهاية شدَّدَ الكاتب - الفذ - على أن الرئيس المصري عليه أن يفهم أنه يمتلك ورقة قوية تتمثل في أن الكيان الصهيوني سيقدر سلاماً حقيقيّاً مع مصر يقوده الإخوان المسلمون، وهو ما قد يعني سلاماً مع العالم الإسلامي ونهاية حقيقية للنزاع.

[جريدة الوفد المصرية ٢٠١٢/٧/٤]

الأقلية الإسلامية في بنما

د. أحمد محمود السيد
mr.ah54@hotmail.com

بنما.. هي إحدى دول أمريكا الوسطى، تقع شمال أمريكا الجنوبية.. وهي التي تربط بين الأمريكتين.. وهي التي تحجز المحيط الأطلنطي عن المحيط الهادي.. تحدّها من الشمال: جمهورية كوستاريكا.. ومن الجنوب: كولومبيا.. ومن الشرق: البحر الكاريبي.. ومن الغرب: المحيط الهادي.. وتعتبر بنما من أقل دول أمريكا الوسطى سكاناً.. فعدد سكانها نحو ٢ مليون ونصف مليون نسمة، ويبلغ عدد المسلمين نحو ١٥ ألف نسمة. من أهم معالمها قناة بنما التي تعتبر من أعظم الإنجازات الهندسية في العالم وتصل بين المحيط الهادي والبحر الكاريبي والمحيط الأطلسي بواسطة ممر مائي يمر خلال برزخ بنما، وقد بدأت العمل في عام ١٩١٤م.. وكانت بنما مستعمرة إسبانية منذ عام ٩٥٨ هجرية (١٥٥١ ميلادية) حتى حصلت على استقلالها وانضمت إلى الأمم المتحدة في ١٣ نوفمبر سنة ١٩٤٥ ميلادية.. ونظام الحكم فيها جمهوري.. والعاصمة هي مدينة «بنما»، واللغة الإسبانية هي اللغة الرسمية.. والعملة المتداولة هناك اسمها «بَالْبُو».. أهم المدن: بوكاس، جيركي، كولون، وفراكوس.

الجماعات العرقية:

١,٥٨٪ متسيزو.

١٤٪ مولاتو.

٦,٧٪ الشعوب الأصلية في الأمريكتين.

٨,٦٪ بيض.

٥,٥٪ آسيويون.

٧,١٪ آخرون.

الأديان:

رومان كاثوليك (٨٥ ٪).

بروتستانت (١٤ ٪).

مسلمون وأديان أخرى (١ ٪).

وقد عرفت بنما الإسلام في القرن العاشر الهجري، حيث هاجر إليها عدد من مسلمي الأندلس وبعض المسلمين من الشام.. وقد جلبت إسبانيا العديد من المسلمين عندما فكّرت في حفر قناة بنما في عام ١٢٩٩ هجرية (١٨٨١ ميلادية).. وذلك بعد نجاح حفر قناة السويس في مصر. ويتكون المجتمع الإسلامي في بنما من مسلمي الهند وباكستان والصين وإفريقيا والعرب.. إلى جانب عدد من الهنود الحمر سكان البلاد منذ القدم.

وشهدت بنما في السنوات الأخيرة إقبالاً متزايداً على اعتناق الإسلام.. فأعلن أكثر من ألف شخص إسلامهم.. كما تم تأسيس بعض المساجد الجديدة والمدارس الإسلامية.. ووصلتها هجرات إسلامية معاصرة من مسلمي الهند والصين والشام.. وتنظّم المراكز الإسلامية في فنزويلا وترينداد زيارات دورية إلى بنما لدراسة أحوال المسلمين وتقديم المساعدات اللازمة لهم وتزويدهم بترجمات معاني القرآن الكريم باللغة الإسبانية والكتب الدينية بهذه اللغة.. حتى أصبحت الأقلية المسلمة ذات هوية أصيلة ومعترف بحقوقها في البلاد.

عدد المساجد في بنما تسعة مساجد موزعة في العاصمة وبقية المدن، من أهمها: المسجد الكبير في العاصمة بنما وهو تابع للمركز الثقافي الإسلامي في بنما، وكذلك المركز الثقافي الإسلامي في مدينة كولون، ومسجد سليمان بيكو وهو أقدم مسجد في بنما أنشأه سليمان بيكو وهو مسلم هندي في عام ١٩٩٨م وألحق بالمسجد عمارة كبيرة يقوم على تأجير شققها للصرف على المسجد من ريعها.

أهم مطالب المسلمين:

إنشاء المدارس الإسلامية وزيادة عدد المساجد وزيادة عدد الدعاة وكتب التفسير والحديث باللغة الإسبانية، فضلاً عن تدريب الدعاة من مسلمي بنما على العلوم الشرعية والتأييد السياسي من الدول العربية والإسلامية لتدعيم الأقلية المسلمة وتأسيس قناة إسلامية وجريدة رسمية لهم.

المصادر والمراجع:

- موقع المركز الإسلامي لأمريكا الشمالية والجنوبية.
- Fact book.
- موقع المعرفة.
- سيد عبد المجيد بكر، الأقليات الإسلامية في الأمريكتين والبحر الكاريبي.
- مسعود الخوند، الأقليات المسلمة في العالم، العالمية للنشر، بيروت، ط٢، ٢٠٠٦م.

دوافع تنازل الصهاينة عن النظام السوري

د. عدنان أبو عامر(*)
adnanaa74@hotmail.com

حافظت إسرائيل منذ اندلاع الثورة السورية على موقف «النأي بالنفس» وعدم التدخل، الظاهري على الأقل، لكنها في الأيام الأخيرة أجرت انقلاباً في نظرتها، وبدأت تعلي صوتها بضرورة التدخل لإسقاط النظام السوري، ما يطرح جملة من التساؤلات والأبعاد التي تقف خلف مثل هذا التغيُّر المفاجئ في الموقف.

وليس سراً أن حاجة إسرائيل إلى النظام السوري طوال العقود الأربعة الماضية، لم تضاهيها حاجتها إلى أنظمة عربية عديدة وقعت معها اتفاقيات تسوية، وتبادلت السفراء، ليس بالضرورة لأن حكام دمشق مرتبطون بتل أبيب وَفق الصورة النمطية بين أجهزة استخبارات متبادلة، لكن الطرفين أقاما بينهما عقداً غير مكتوب يقضي باستراتيجية «البقاء مقابل البقاء»!

بمعنى الرضا الإسرائيلي بـ «بقاء» الأقلية الطائفية تحكم الأغلبية السورية، مقابل «بقاء» الهدوء يخيِّم على هضبة الجولان، بحيث لا يسمح لطائر أن يغرد في سمائها دون أخذ الإذن من القصر الجمهوري، وقد قرأ الساسة والعسكر في الجانبين هذه الاستراتيجية وارتضوها لأنفسهم.

(*) كاتب فلسطيني.

صحيح أن دمشق أزعجت تل أبيب كثيراً باحتضانها حركات المقاومة الفلسطينية ووفرت لها ما لم توفره عاصمة عربية، ومنحت حزب الله أنبوب أوكسجين عزَّ نظيره؛ لكن ذلك لم يكن يضاهي أن تعود جبهة الجولان لتشتعل من جديد، وهو سيناريو يجتهد الإسرائيليون في عدم تخيُّله، لأنه حينها سيصبح كابوساً لا يُطاق!

إذن ما الذي حصل.. هل أن حاجة إسرائيل إلى دمشق تراجعت؟ أم أن استراتيجية البقاء انتهت صلاحيتها ولا بد من البحث عن استراتيجية بديلة؟ أم أن تغييرات إقليمية ودولية باتت تحتم الحاجة إلى نظام آخر في سورية قد لا يكون بذات الحديدية التي التزم بها آل الأسد في حفظ هدوء الجولان، لكنه قد يخدم أغراضاً وترتيبات أخرى يُعِدُّ لها أرباب القرار في العالم؟

وما الذي دعا حكام إسرائيل لإبداء قدْر «غير مسبوق» من الشفقة على الضحايا السوريين وهم المذبوحون من الوريد إلى الوريد منذ ١٦ شهراً وتل أبيب صامتة كأن على رأسها الطير؟ وفجأة، ومن دون مقدمات، باتت تدعو جهاراً نهاراً إلى تدخل دولي لإسقاط النظام السوري، لا لشيء، إلا لوقف نزيف الدم المسفوح!

وهنا، يمكن متابعة الحراك السياسي الإسرائيلي السائر على «نار هادئة» في سعي منها لاستكشاف ما لدى العواصم المساندة للنظام السوري من تقديرات وتوقعات، حيث أرسلت رئيس مجلس الأمن القومي «يعكوب عميدرور» إلى موسكو لاستشراف الموقف الروسي، وهو ما قام به رئيس هيئة الأركان العامة «بيني غانتس» في حديثه مع المسؤولين الصينيين خلال زيارته الأخيرة إلى بكين.

رغم ثقة تل أبيب بأن مشاهد الذبح التي تصل من سورية لن تبعث على إجراء ناجع يضائل تيار الدم السوري؛ لأن رئيساً أمريكياً ضعيفاً مشغولٌ بانتخابات داخلية، وأوروبا في تهاوٍ وتناضل ضد الأزمات الاقتصادية، والقيادتين الروسية والصينية تبحثان عن طرق لتعظيم أرباحهما السياسية والاقتصادية؛ كل ذلك يُفسد احتمال عمل حازم موجَّه ضد الأسد.

سيناريوهات مقلقة:

هناك جملة من التقديرات، والتفضيلات، والسيناريوهات، تطرحها إسرائيل لليوم المتمثل في سقوط الأسد يمكن تناولها على النحو التالي:

١ – السيناريو الأفضل بقاء الوضع على ما هو عليه الآن أطول فترة ممكنة، لأنه في حال سقوط النظام وصعود الإسلاميين للحكم، فمن الواضح ماذا سيكون تأثيره السلبي على إسرائيل.

٢– تعتبر إسرائيل أن عدداً من العوامل القوية تهيئ المسرح السوري لاضطرابات ستستمر فترة طويلة، مع تزايد وحشية الدولة ووكلائها، وتحسن تنظيم وتسليح المعارضة، والهجمات الانتحارية التي تشنها جماعات مسلحة، وتزايد اهتمام دول مجاورة بتسليح الأطراف المختلفة.

٣ – ازدياد الوضع في سورية خطورةً، واستمرار القتل لأشهر طويلة، إلا إذا حصل اغتيال للأسد وشخصيات أخرى، مع أن التقدير يستبعد اضطراره إلى التنازل عن الحكم بصورة أو بأخرى.

٤ – رغم تغيُّر الموقف الإسرائيلي من تطور الأحداث السورية، لكنها في الوقت ذاته تتخوف من تبعات ونتائج التدخل العسكري الدولي، أو المبادرة لحملة عسكرية لإسقاط الأسد؛ لأن التجربة المريرة للأمريكيين والغرب في العراق حين أوصلوا قادة المعارضة المنفية إلى مناصب أساسية في بغداد، وفككوا الجيش وأجهزة الأمن؛ علمتهم درساً مهماً في تحضير مؤسسة الحكم السورية لليوم التالي بعد بشار.

إلى جانب ذلك، فإن دمشق في أيامها وأشهرها القادمة، مقدمة، بنظر تل أبيب، على عدّة سيناريوهات محتملة أثرت جميعها في تغيير الموقف من تطور الثورة هناك، ومن بينها:

١ **الحفاظ على الدولة بقيادة أخرى:** بحيث يقوم مسؤول بمستوى رئيس الأركان، أو رئيس المخابرات، بـ «إلقاء عظمة سمينة» للجمهور باعتقال عائلة الأسد، ومحاكمتها، للحصول على الهدوء، ويعلن عن تغييرات في الدستور، وإصلاحات اقتصادية، وانتخابات.

٢ **انشقاق الحكم:** إذا نشبت خلافات في أذرع الأمن، بحيث يغيّر بعضها ولاءه من الحكم إلى الشارع، كما حصل في ليبيا واليمن، لتبدأ حرب شاملة بين القسم المؤيد للثوار والموالي للحكم، أما إذا تكرر السيناريو اليمني، فسيشعر الجيش بالشلل لوقوف جزء منه ضد جزئه الآخر.

٣ **سيناريو بطعم سوري يمكن أن يؤدي لتقسيم الدولة إلى قسمين** يعكسان الانقسام الجغرافي للقوة، ويحتمل رؤية حرب بين الطرفين كالتي اندلعت في ليبيا، ما سيخلق عدم استقرار، لأن كل جزء سيواصل وقوعه تحت سيطرة نخبة عسكرية، والمشاكل الأساسية لسورية لن تحل، بل ستتفاقم، وستدعم إيران الحكم، فيما سيدعم الغرب الثوار.

٤ **انهيار الدولة:** إذا خسرت المجموعة العلوية السيطرة على الحكم، فمن المتوقع أن يبسط السنة سيطرتهم على أجزاء واسعة من البلاد، ويعلن أكراد الشمال عن دولة كإخوانهم في العراق، ويستعيد دروز الجنوب الحكم الذاتي، وبدو الشرق سيقيمون كياناً مستقلاً، ويستغل الحلبيون الفرصة لينفضوا عن أنفسهم إلى الأبد سيطرة الدمشقيين، لتقوم على خرائب سورية ٦ دول.

٥ **تسخين الحدود مع إسرائيل:** وهي ممارسة عادية في كل مرة يقف فيها الحكم السوري أمام مشاكل داخلية ليخلق وضعاً يسمح له بالقول للجماهير الغاضبة: «الصهاينة يتصدون للقضاء علينا، ولهذا عليكم أن تدعوا كل الخلافات، وتتحدوا تحت علم الرئيس المنقذ».

الخلاصة: إن قراءةً في تقدير تغيُّر الموقف الإسرائيلي من الأحداث السورية، يمكن استنباطها بالوصف الإسرائيلي للحدود السورية بـ «غير الهادئة»، ما يستوجب استعداد الجيش، الذي يراقب من كثب تطورات الأحداث، خشية نقل أسلحة متطورة أو غير تقليدية من الأراضي السورية أو إليها.

ولهذا تعتبر تل أبيب أي تطور يحصل في دمشق خسارةً لها؛ لأن سقوط الأسد سينشئ حالة من عدم الاستقرار، رغم أنه سيُحدث شرخاً في المحور المعادي، وإن بقي سيكون ضعيفاً، ما يعني نشاطاً مسلحاً على طول الحدود معها.

اللاجئون السوريون.. والفرار من جحيم العنصرية

أحمد أبو دقة(*)

لم يكن يسعفنا الوقت لنتحدث عن الجميع، لكن وإن أوجزنا فإن المعاناة تتكرَّر أينما حلوا وأينما رحلوا.. يتحدث إليَّ الشيخ زايد حماد، رئيس جمعية الكتاب والسنة التي تقوم على تقديم الإعانات للاجئين السوريين في الأردن: «أشعر بحرقة وألم شديد حينما أنظر إلى معاناة هؤلاء الناس، وما يؤلم أكثر هو أن الأمة التي تستطيع أن تقدم الكثير بحقهم لا تفعل ما يكفي مع الأسف.

إحدى المآسي التي تتكرَّر دائماً هو أننا وجدنا عائلة سورية تعيش في بيت شبه منهار تسترهم جدرانه عن عيون الناس، لكن لا تقيهم حرارة الشمس أو برد الشتاء، ولا حتى ألم الجوع، خرجتُ في التاسعة صباحاً وبرفقتي أحد المتبرعين، كان يحمل بسيارته مجموعة من الأثاث يريد التبرع بها للعائلات السورية الهاربة من رعب العداء العنصري الذي يمارَس بحقها، وكأنها حكاية بوسنة جديدة تتكرَّر!! دخلنا المنزل ففوجئنا بالمنظر المهول؛ عائلة سورية «الرجل وزوجته وطفله»، نظرت يميناً وشمالاً فلم أرَ أي شيء سوى فراش وغطائين خفيفين باليين، فسألتهم: أين نمتم ليلة البارحة؟ فقالوا: على هذا الفراش. فصدمت أنا ومن معي، فالفراش مهترئ ولا يصلح لأن ينام عليه أحد، والذي صدمني أكثر كيف أنهم تحمَّلوا البرد القارس – وكنا حينئذ في فصل الشتاء، ونظرت إلى الطفل الذي يرتدي الملابس الخفيفة.. لا يستطيع المرء أن يرى هذا المنظر ويتخلى عن واجبه تجاه إخوانه المسلمين، فهم هربوا من جحيم الحرب بملابسهم التي يرتدونها».

حكاية أخرى من مآسي اللاجئين السوريين في الأردن يرويها الشيخ حماد، «في منطقة نائية تسكن عائلة في بيت قديم وصلنا لتفقدها بعدما سمعنا عن وجودها، وحينما شاهدنا المنزل وجدنا جدراناً خارجية فقط ونوافذَ مكسورة وجرذاناً تنتشر في المنزل.. هل يُعقل أن تعيش مسلمة بأطفالها الأربعة في مثل هذا المنزل؟ ليس ذلك فحسب، فالمرأة مصابة بالصرع وأحد أطفالها مصاب بالسرطان.. كل ما يرتديه الأطفال لا يستر سوى نصف أجسادهم، والأمر الأكثر إيلاماً أنهم يحصلون على الطعام من حاوية النفايات كما أخبرنا بعض من ذهب إليهم.

أما قصة المرأة الحامل التي سقطت بالقرب من الحدود السورية – الأردنية مصابةً برصاصة في خاصرتها؛ هي كارثة إنسانية بكل معنى الكلمة.. لا يسع المرء أن يصدق أن يقدم إنسان على مطاردة امرأة حامل ويريد قتلها هي وطفلتها.. كانت تركض هي وطفلتها وزوجها هرباً من عصابات النظام السوري حينما أطلقت عليها النار بالقرب من الحدود، فسقطت خلف الأسلاك الشائكة مغشياً عليها، ولولا شهامة بعض الجنود الأردنيين الذين تسلَّلوا داخل الحدود وأحضروها، لفارقت الحياة أمام أعيننا.

(*) مجلة البيان.

زحفوا لمسافة ثلاثة كيلو مترات ليهربوا من الجحيم، ويبحثوا عن مكان يجدون فيه الدفء والأمان من الخوف الذي يطاردهم في وطنهم.. تم نقلهم إلى المستشفى وعولجت المرأة وعولج زوجها من إصابة في قدمه».

الدعم الإغاثي

منذ أن اندلعت الثورة السورية المباركة في ٢٠١١/٣/١٥، والشعب الأردني يقف مع الشعب السوري في ثورته، وتحرِّك الشعورَ بواجب المؤازرة هذا عدة روابط تأسَّست مع مرور الزمن بين الشعبين، وعلى رأسها رابط الدين والعقيدة الذي يجمعنا نحن المسلمين.

لذلك منذ أن بدأت العائلات السورية الهاربة من جرائم العصابات النصيرية في درعا تصل إلى مدينة الرمثا الأردنية؛ بدأت الجمعيات الأهلية والخيرية التواصل مع اللاجئين ومدَّ يد العون والمساعدة لهم.

ويتوزع اللاجئون السوريون في الأردن على سبع مدن، هي: (إربد، الرمثا، المفرق، الزرقاء، جرش، الكرك، وعمّان). ويمكن تقسيم اللاجئين السوريين إلى حالات إنسانية مختلفة؛ فمنهم من هو مقتدر مالياً، ومنهم من لا يملك المال - وهؤلاء تقدم لهم مساعدات من قبل الجمعيات الخيرية وفاعلي الخير، وهناك لاجئون يعيشون عند أقاربهم.. ويبلغ عدد اللاجئين السوريين في الأردن بحسب الإحصاءات الميدانية شبه الرسمية، ما يقارب ٢٠٠ ألف لاجئ، وعدد المسجلين لدى الجمعيات العاملة في الجانب الاغاثي أكثر من ١٠٠ ألف فرد، تكفل جمعية الكتاب والسنة التي يديرها الشيخ زايد حماد العددَ الأكبر منهم، حيث مقيَّدٌ في سجلات الجمعية ٥٠ ألف فرد، ولا تزال الأعداد في تزايد، والله المستعان.

الحالة الصحية والمعيشية:

يعاني بعض اللاجئين حالة صحية متردية نتيجة ما عانوه في الداخل أو أثناء رحلة اللجوء، كما أن هناك كثيراً من الحالات بحاجة إلى تدخّل جراحي عاجل، وبسبب عدم توفر الأموال الكافية لم يتم إجراء تلك العمليات العاجلة لارتفاع تكاليفها، وهو ما يسبِّب تردي الوضع النفسي والصحي لهم. ويقدر عدد المصابين الذين هم بحاجة إلى علاج عاجل بأكثر من ٥٠٠ حالة تقريباً، وهم بازدياد بسبب تفاقم الأوضاع الصعبة داخل سورية، أما بالنسبة إلى الحالات المرضية المزمنة وكبار السن فتقدر بـ ٢٠ ألف حالة من أمراض السكري والضغط والقلب وغيرها، وهم يحتاجون إلى الدواء بشكل دائم، ويضاف إلى ذلك مرضى العمليات المتوسطة وحالات الولادة، كذلك الحالات النفسية التي هي بحاجة إلى علاج ومتابعة.

أما الجانب المعيشي في حالة اللجوء السورية، فإنها في أحسن أحوالها لا تزيد عن حد الكفاف، إذ يعيشون على الإعانة والإغاثة من الجمعيات الخيرية التي تقدم لهم طرداً غذائياً مرة في الشهر أو مرتين، بغية سد الرمق وكفاية الحاجة. ومحتويات الطرد الغذائي معلبات وسكر وأرز. ولا يحصل اللاجئون على الخضار أو اللحوم والدواجن واحتياجات الأطفال والمرأة الأساسية. من باب الإشارة وليس التفصيل، فإن جلَّ النساء بحاجة إلى مستلزمات نسائية شخصية، منها ما يستعمل بشكل يومي أو بشكل دوري، يضاف إليها الاحتياجات اليومية للأطفال، مثل: الحليب، والحفاضات، وغيرهما.

وللمزيد من التفصيل فإن الأردن كغيرها من البلدان العربية لا تمتلك مخيمات للاجئين، لذلك يسكن اللاجئون في بيوت مستأجرة، فتحتاج الأسرة إلى إيجار شهري يراوح بين ١٥٠ و٢٥٠ دولاراً شهرياً بسبب غلاء المعيشة في الأردن، والأسرة التي لا تملك ثمن الإيجار ستسكن مع أسرة ثانية، وربما ثالثة، في بيت واحد، كما في بعض الحالات.. ومن هنا؛ فإن توفير إيجار البيوت يعدُّ من أولى الأولويات ومن أصعب الأشياء المراد تحصيلها وتوفيرها للاجئين، خصوصاً إذا علمنا أن جمعية الكتاب والسنة لوحدها بحاجة إلى قرابة المليوني دولار شهرياً لإيجارات المنازل.

أما بالنسبة للتعليم، فإن الحكومة الأردنية تسمح لأبناء اللاجئين السوريين بالانضمام إلى المدارس الحكومية في المملكة مجاناً، وكان لهذه الخطوة أثر طيب مبارك في طمأنة اللاجئين على مستقبل أبنائهم التعليمي والدراسي، لكن هذا مرتبط بقدرة المدارس الحكومية في مناطق اللاجئين على استيعاب الطلبة، وهي قدرة محدودة، فلذلك ستكون هناك حاجة إلى إدخال بعض الطلبة في مدارس خاصة، وهذا أمر فوق قدرة اللاجئين، بل كثير من الأردنيين أنفسهم، وبالطبع هؤلاء الطلبة بحاجة إلى حقائب مدرسية وكذلك مصروف يومي.

تحديات تواجه العمل الإغاثي:

يلاحظ الزائر لمخيمات اللاجئين المذكورة أن التحديات التي تسهم في تعطيل العمل الإغاثي أو استغلاله بشكل سيئ من قبل المنظمات الدولية؛ كبيرة جداً، ومن أبرزها: قلة الدعم المالي مقارنة بالأعداد الكبيرة للاجئين، وتأخر وصول المساعدات، فالفارق الكبير بين الإعلان عن حملات الإغاثة الإقليمية والدولية لدعم اللاجئين والوجود الحقيقي لها على أرض الواقع؛ سبَّب إرباكاً لخطط سير البرنامج الإغاثي، وخيبةَ أمل لدى اللاجئين، وتبرز أصابع الاتهام إلى القائمين على العمل الإغاثي. وكذلك

يركز كثيـــر من المتبرعين على الطـــرود الغذائية رغم وجود حاجات أساسية للاجئين يغفلونها، فمثلاً الكثير من اللاجئين الذين يعيشون في بيوت مستأجرة لا يستطيعون تحمل نفقات الإيجار ولا أحد يساعدهم على ذلك إلا القليل من أهل الخير. ومن المعوقات أيضاً إصرار المتبرعين على التوزيع الشخصي للمساعدات، وهذا الأمر يسبب إرباكاً كبيراً، فلا يمكن ضبط تواريخ المساعدات ضمن برنامج، بل تصبح تحت رحمة زيارة المتبرع! كمـــا أن المتبرع الفردي تكـــون قدرته محدودة على تغطية الأســـر المنتظرة للمعونة «فنصبح في حرج؛ من تعطي ومن تدع»، ولأنهم يعيشون في بيوت مستأجرة متباعدة وليس في مخيمات، فهذا الأمـــر فيه إهدار للوقت وإرهاق للكوادر وتكلفة مالية عالية بسبب التنقل بالتبرعات العينية.

ابتزاز اللاجئين وتنصيرهم:

تتســـتَّر المنظمات الدولية والغربية بستار الإغاثة لنشـــر منصِّرين لابتزاز اللاجئين واستغلال حاجتهم إلى المأكل والمشـــرب والملبس... وغيرها؛ لتنصيرهم، وهذا الأمر من المؤســـف أن يقع بين ظهرانينا ونحن نتأمل ذلك ولا نفعل شيئاً.

تقوم الكنائس في كثير من الأحيان بتوزيع مساعدات على أسر ســـورية من خلال بعض المنصِّرين مع أناجيل وبطانيـــات تحمل صور صلبان، وتم هذا التوزيع من قبل الكنائس والمدارس الكنسية مباشرة، مع توزيع منشورات تنصيرية، وعند تقديم المساعدة الطبية للأسر السورية يتم طلب ترديد عبارات الخلاص وربوبية المسيح.

وكذلك ظهرت مشكلة (الحجز المؤقت) للاجئين عن طريق الشـــيك (دخول غيـــر نظامي أو تهريب)، حيـــث يتم ترحيل اللاجئين الذين يدخلون عن طريق الشـــيك وليس المعبر الحدودي الرســـمي (بالحجز التحفظـــي)، لحين إجراء عمليـــة الكفالة، حيث يتم اســـتيفاء مبلغ ٦ دنانيـــر عن كل فرد مـــن العائلة، والتوقيع على كفالة بثلاثة آلاف دينار أردني.

وكذلك لا ينبغي إهمال مشكلة اللاجئين الفلسطينيين القادمين من سورية الذين تحتجزهم السلطات الأردنية في (الحجـــز المؤقت)، فمنـــذ أكثر من ٤ أشـــهر وهم يعيشون في ظروف معيشـــية صعبة، وهذه العائلات لا يســـمح لأحد بكفالتها لاعتبارات سياســـية - على حد قول السلطات الأردنية.. وهل مئات الأشخاص سيعلنون الأردن وطناً بديلاً للشعب الفلسطيني؟!

أهم احتياجات اللاجئين السوريين حسب الأولويات هي:

❋ الاحتياجات المعيشية: وتتلخص في إيجار البيت الشهري، حاجيـــات الأطفال من حليب وفوط، حاجيات المرأة الأساســـية، فرش البيوت بســـجاد وخلافه، وطرد شهري لأهم المواد الغذائية والصحية التي يجب توفرها: خبز، خضار، ولحوم.

❋ الاحتياجات الطبية: إجـــراء عمليات جراحية للمصابين، تغطية حالات الـــولادة، المتابعـــة الفيزيائيـــة للمصابين، توفير العلاجـــات الطبية المســـتمرة للأمراض المزمنـــة، مثل: جرعات الســـرطان، وهي مكلفة جداً، ولا يمكن إغفال أمراض الســـكري والضغط والقلب أيضاً.. وهناك حاجة إلى عيادة لحل المشـــاكل النفسية «حيث وجدنا كثيراً من هذه الحالات بين الأطفال والنساء بســـبب ما كانوا يسمعونه ويرونه من إطلاق نار وقتل واقتحامات وتعذيب لهم ولأناس أمامهم»، وإيجاد مستشـــفى ميداني بأقصى سرعة ممكنة.

❋ الاحتياجـــات التعليمية: مصروف شـــهري للطلبة، حقيبة مدرسية وقرطاسية، ورسوم دراسية لمن لم تتوفر لهم مقاعد في المدارس الحكومية.. وقد لوحظ أن هناك عدداً كبيراً من الطلبة المتسرِّبين من الدراسة وهم بحاجة إلى برامج تدريب وتأهيل.

❋ الاحتياجات الدعوية: توفير كتب ومصاحف لتوزيعها على العائلات الســـورية، حيث إن الكثير منهـــم يطلب ذلك مع بعض الكتب، خاصة أن كثيراً منهم يجهل أمور الدين الضرورية.

❋ حاجيات عائلات الشـــهداء والمفقودين والمعتقلين: توفير كفالات للأيتام بشـــكل دوري بحيث يتم العناية بهم مادياً ومعنوياً وتعليميـــاً وإيجـــاد متابعة حثيثة لهم وتخفيف الجانب النفســـي لوضعهم المعيشي.

وكذلـــك هناك حاجـــة ملحة إلى كفالة أبناء المشـــاركين في الثورة، فيوجد الكثير من الرجال يتركون عائلاتهم في مساكن ثم يعودون إلى داخل سورية للمشاركة في الثورة.

وهناك كذلك بعض الاحتياجات للموجودين في الحجز التحفظي، مثـــل: تجهيز «كرفانات»، وتقديم الغذاء بشـــكل يومي، وتأمين مبلغ نقدي من أجل دفع الكفالات لإخراجهم من الحجز المؤقت.

وفي نهاية المطاف؛ إن مشـــكلة اللاجئين السوريين لا توجد فقط في الأردن، فهم يعانـــون أيضاً في لبنان وتركيا، ومع قدوم شـــهر رمضان المبارك فإن هذه القضية مـــن أهم القضايا التي تضع الإنسان المسلم أمام اختبار حقيقي لمؤازرة إخوانه في الدين وتعويـــض ما فاتهم من حرمان والتهوين من عذاباتهم، فهم وقفوا دفاعاً عن الأمة الإسلامية بكاملها ضد عدو هو الأخطر من بين أعدائها، وهم النصيريون ومن أعانهم من المجوس.

معيار التوفيق والخذلان

مـشـاري بـن سـعـد الـشـثـري
meshari.s.sh3@hotmail.com
@m_alshathri

يُؤمَر المؤمن بالإمساك عن شهواته ما يقارب الخمسَ عشرة ســاعة؛ صيانةً للقلب من أي شــيء يزاحمه حتى يخلُص لله ويعمُرَ بذكــرِه وتأمُّلِ كلامه. ويجتمع المؤمنون كلَّ ليلة قياماً لله تعالى يرجون رحمته ويخافــون عذابه، فيكون اجتماعهم عوناً على سلوك ســبيل المتقين. وتُحبس أنفاس الشياطين، وتضيَّقُ مجاريهم من ابن آدم، وتكبَّل أياديهم عن الإضلال؛ ليكمُل تحلِّي المؤمنــين بطاعاتهم، ويُخلَّى بينهم وبين خالقهم. ويترقَّب المؤمن ليلــة القدر، ليختصر فيها الأزمنة، ويحــوز بالعبادة في ليلتها أجورَ عبادة ألف شهر، بل هي ﴿ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ [القدر: ٣].

وتُضاعــف الأجور مما يحفز على كثير مــن القربات، فليس سقف المضاعفة متوقفاً عند سبعمائة ضعف، بل أمرُ الصوم أعظم مــن ذلك، والله وحده مَن يعلــم أيَّ مدى يبلغه ثواب الصائم، فقد جاء فــي الصحيحين من حديث أبي هريــرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: (كل عمل ابن آدم له، الحســنة بعشــر أمثالها إلى ســبعمائة ضعف، قال الله عز وجــل: إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به). قال ابن رجب: (الأعمال كلها تُضاعَف بعشــر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلا الصيام، فإنه لا ينحصر تضعيفه في هذا العدد، بل يضاعفه الله عز وجل أضعافاً كثيرة بغير حصرِ عدد)[1].

(١) لطائف المعارف، (٢٨٣)، ط. دار ابن كثير.

كل ذلك الإمداد الإلهي ابتلاءٌ من الله لعباده - والابتلاء يكون بالخير كما يكون بالشر، قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] - ليمتحن صدقَ تألُّههم، فأسباب الخير قائمة، ولا يمكن - والحالة تلك - أن يتخلَّف عن ركب الصالحين إلا من عُدِمَ التوفيق وتلفَّع بمروط الخذلان!

تأمَّل معي هذا الحديث: جاء في الأدب المفرد من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ رقى المنبر فقال: (آمين، آمين، آمين). قيل له: يا رسول الله، ما كنت تصنع هذا؟ فكان مما قال: (قال لي جبريل: رَغِم أنفُ عبدٍ دخل عليه رمضان لم يُغفر له. فقلت: آمين).. ما تقدم قبضةٌ من أثر هذا الحديث، فأنت ترى كيف أن جبريل دعا على مَن أدرك رمضان ولم يغفر له لعلمه بعظيم تفضُّل الله على عباده في هذا الشهر، وقد أمَّن النبي ﷺ على دعائه، فنِعمَ الداعي والمؤمِّن.

وقد جاء في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: (من صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفِر له ما تقدم من ذنبه)، وقال: (من قام رمضان إيماناً واحتساباً غُفِر له ما تقدم من ذنبه)، وقال: (من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غُفِر له ما تقدم من ذنبه)؛ فهذه موجبات المغفرة قد دنت لكل من أراد اللهَ والدار الآخرة، فلا غرو أنْ رَغِم أنفُ من أدرك رمضان ولم يُغفر له.

رمضان إذاً معيار التوفيق والخذلان، فبه يُعلم من وفقه الله لطاعته فأقبل عليه بقلبه وقالبه، وبه يتبيَّن من وَكَله الله إلى نفسه فلم تُجِد فيه طلائع التوفيق ولم تأتِ به سحائب المغفرة إلى حيث تلقي رحلَها.

جمعيَّة القلب

لبُّ رمضان في العيش مع كلام الله والنهل من معينه، ولا يؤتي ذلك ثمرته ما لم يهيِّئ العبدُ قلبَه ليكون محلاً قابلاً لأنوار القرآن، وتهيئةُ القلب هي ما يسمّيه أهل السلوك: (جمعيَّة القلب) بأن يسعى المرء جاهداً في تخلية قلبه من الشواغل ويقيَه من كل ما يشتّته ويفرِّقه. وجمعيَّة القلب جديرةٌ بأن يصرف المرء كثيراً من أوقاته لتحقيقها، فليس شأنها كعمل الجوارح التي يملك المرء أطرَها على ما يريد، بل هي بحاجة إلى مسيرة مُضنِية يكثر فيها المرء من الالتجاء إلى الله حتى يكرمه بها، ويتنعَّم حينئذٍ بهدايات القرآن. يقول ابن القيم: (الأفضل في وقت قراءة القرآن جمعيَّة القلب والهمة على تدبُّره وتفهُّمه حتى كأنَّ الله تعالى يخاطبك به، فتجمع قلبك على فهمه وتدبره والعزم على تنفيذ أوامره أعظمَ من جمعية قلبِ مَن جاءه كتابٌ من السلطان على ذلك)[1].

إن مما يتقطع له قلب المرء حسرات أن يمر عليه شهر رمضان يقرأ فيه القرآن المرَّةَ بعد الأخرى دون أن يذرف دمعةً لله تعالى محبةً له أو خشيةً منه، وإن من الأسى أن يسمع في صلواته مناديَ الإيمان، فيرى من حوله تتضوَّرُ قلوبُهم فَرَقاً من الله تعالى، ثم ينظر في حاله فإذا هو جثة هامدة خاويةٌ على عروشها أخطأت طريقها فدفنت نفسها بين جموع المصلِّين!

من كان يفقد ربَّه في قلبِه
أنَّى يذوق حلاوةَ الإيمانِ؟!
كلُّ المطالبِ قد تُنالُ بدرهمٍ
إلا المصيرَ لمنزلِ الإحسانِ

وإن من أظهر شعائر الله في رمضان: الصوم، وأنت لو تأمَّلته لوجدت الغاية منه تحقيقَ (جمعيَّةِ القلب)، فشهواتُ الإنسان من الطعام والشراب والجماع لها أثرٌ على جمعيَّةِ القلب الجالبةِ للتقوى، فمهما اشتغل المرء بتلبية شهواته كان ذلك على حساب تخلية قلبه، ولذا أوجب الله تعالى على عباده الإمساك عن هذه الشهوات، وقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

ثم تأتي العشر الأواخر من رمضان، تلك التي لازم فيها النبي ﷺ مسجدَه واعتكف فيه طمعاً في تحقيق (جمعيَّة القلب)، وهذا يجلِّي لك أيَّ مقام لهذه الجمعيَّة في شريعة الله، حيث يمكث المؤمن في معتكَفِه ليُخلِّص قلبه من علائق الدنيا، ويُفرِغَ فيه معانيَ الإيمان، ويسرحَ بذهنه في مشاهد الآخرة وعرصاتها، بعيداً عن كدر الدنيا وشهواتها، وبعيداً عن تلك الحُجُب الفانية التي طالما حالت بينه وبين سيره إلى الله، هناك حيث تصَّعَّد روحُ المؤمن لتبلغ أعلى مقامات الإحسان، وتعبدَ الله كأنها تراه، وتقضي ليلها ونهارها تبتُّلاً لله وذكراً وتفكُّراً في حالها ومآلها، وتنظر كم قطعت من المراحل في طريقها إلى الله تعالى.

جمعيَّةُ القلب لله وحدَه سُلَّم التوفيق، وتفرُّقُه عن الله واشتغاله بغيره قرينُ الخذلان، فمن تقرَّب إلى الله تعالى تقرَّب اللهُ منه، ومن نسي اللهَ نسيه، (ولا يهلك على الله إلا هالك)[2].

(١) مدارج السالكين، (١: ١٨٤)، ط. دار طيبة.
(٢) صحيح مسلم، (٢٠٨).

الجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بمحافظة بلقرن

الحساب العام : SA٣٩٨٠٠٠٠٢٥٧٦٠٨٠١٠٠٩٩٩٩٢

الوقف : sa٢١٨٠٠٠٠٢٥٧٦٠٨٠١٠٠٠٠٥٠٣

حلقات البنين : sa٦٥٨٠٠٠٠٢٥٧٦٠٨٠١٠٢٥٧٣٤٣

كفالة حلقة
٥٠٠ ريال شهرياً

كفالة طالب
٢٥٠ ريال شهرياً

كفالة معلم
٥٠٠ ريال شهرياً

الزكاة

عن جابر رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله أرأيت إن أدى الرجل زكاة ماله؟ فقال رسول الله (ﷺ) : (من أدى زكاة ماله ذهب عنه شره) .

الزكاة : sa٦١٨٠٠٠٠٢٥٧٦٠٨٠١٠٠٩٩٩٨٤

دار الفرقان بشواص

دار الهدى بمعراة

بدعمكم بنيت الدور

دار ذات النطاقين بالحرجة

وبدعمكم يحفظن القرآن

دار مريم بنت عمران بالعمران

دار الفضيلة بالعلاية

الدور النسائية : sa٨٧٨٠٠٠٠٢٥٧٦٠٨٠١٠٢٥٧٣٣٥

هاتف : ٠٧/٦٣٠١٣٩٩ - ٠٧/٦٣٠٢٠٨١ - فاكس تحويلة : ١١٤ للتواصل / ٠٥٥٧٧٤٧٧٤١

سبت العلاية الشارع العام بجوار المحافظة ص.ب (٢٠٦) الرمز البريدي (٦١٩٨٥) عسير

موقع الجمعية www.quranb.net ايميل الجمعية qw-mn3@hotmail.com